الدكتور برهان زريق

العرب المسيحيون

وحدة الأصل و المصير بين المسيحيين و المسلمين

آفاق التعايش الإسلامي - المسيحي

دور العرب المسيحيين في بناء الحضارة العربية الإسلامية

الرابطة الإسلامية المسيحية في ضمير التاريخ



العرب المسيحيون

الدكتور: برهان زريق

العرب المسيحيون

دراسة

العرب المسيحيون

العرب المسيحيون/ دراسة.
الدكتور: برهان زريق.
الطبعة الأولى: ٢٠١٢.

الناشر: دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع
سورية – دمشق: هاتف: ٦٧١٣٠٧٩.
موبايل: ٠٩٤٤٢٨٤٥٦٧
إيميل: horan-dar@hotmail.com

مقدمة عامة

انطلقنا في تناولنا لهذا البحث من التعريف بالفلسفة لأرسطو المتضمنة العلم بالموجود بما هو موجود....

لقد اهتجسنا بالنهضة العربية، فتناولنا من أجل ذلك الأعم الأغلب منطلقات وأساسيات هذه النهضة، بيد أنه بقي علينا أن نعانق عنصراً هاماً في هذا "الموجود"، ألا وهو العرب المسيحيون باعتبارهم أحد أجنحة هذه الأمة[1].ولاحاجة للقول بأن المسيحيين في وطننا العربي ينحدرون من أصل عربي[2]، فهم مواطنون وشركاء في العروبة وإخوة لكل عربي، وأصحاب تاريخ وأصحاب رسالة ووحدتها وتآلفها الحضاري وإن قراءتنا الحضارية هي إرثنا التاريخي الذي يعبر عن المحافظة عليه، وتطويره وتجذيره وتفعيله يكون أساس عيشنا المشترك وتعاوننا الأخوي، فالمسيحيون في الشرق هم جزء لاينفصل عن الهوية الحضارية

---

[1] – منير درويش: هجرة العرب المسيحيين في الوطن العربي ص ٧.

[2] – المرجع السابق ص ٢٣.

للمسلمين، كما أن المسلمين في الشرق هم جزء لاينفصل عن الهوية الحضارية للمسيحيين، ومن هذا المنطلق فنحن مسئولون بعضنا عن بعض أمام الله والتاريخ[1].

فالمسيحية إذن لم تكن غريبة عن العرب، فلم يكونوا يعرفونها عن طريق الشام والملكانيين والسريان فيها فقط، بل كانت هنالك مسيحية مونوفيزية في اليمن ومسيحية في قبائل عربية بدوية بالبحرين واليمامة ومسيحية مدينية ومهنية بمكة والطائف والحجر[2].

يقول ابن قتيبة: إن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وفي مكة والطائف عاش مسيحيون ملكيون أوروم وأحباش بالإضافة إلى الأخوة المسيحيين في الوطن والقومية...

وهنا يبرز لدينا بقوة في الفكر الدستوري مفهوم سيادة الشعب الذي يعني سيادة كل فرد مواطن باعتبار أن هذا العضو يمتلك ذرة من الإرادة العامة بالتساوي مع بقية المواطنين[3]، وهذا هو "فقه المواطنة" الذي أصبح شائعاً في الاعتناق والرسوخ على أرض الوطن العربي... ذلك أن

---

[1] - الأب د. انطوان ضو مقال موسوم بعنوان المسيحيون في عالمنا العربي والإسلامي، منشور في مجلة المنار، العدد ٨١، السنة ١٩٩٧/١١م، ص٣٥.

[2] - أدمون رباط: المسيحيون في العهد الأول للإسلام – الشرق المسيحي قبل الإسلام وانظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، بيروت دار التنوير للطباعة والنشر، ١٨٤، ص١١٦.

[3] - د. ثروت بدوي: النظم السياسية، النظرية العامة للسياسة، ج١ جامعة القاهرة ٩٦٧، دار النهضة العربية، ص٣٧.

المسيحيين جزء لايتجزأ من الأمة منذ سطوع شمس الإسلام، فهم من "أهل الأرض"، وقد ظهر هذا المصطلح منذ خلافة الراشد عمر بن الخطــاب، ففي الرسالة المتبادلة بينه وبين الوالي عمرو بن العاص أجاب هذا الأخير بكل اعتداد بالرأي "ولكن أهل الأرض استنظرو إلى أن تدرك علتهم، فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما غنى بهم عنه"[1].

وإذا كان الوجود في الكينونة للمسيحيين فــي الطيــف العربــي الوطني والقومي قد وجد منذ ماقبل الإسلام، فهذا الواقع الوجودي انبثــق منه مصطلح "أهل الأرض"، وبالتالي فقد أصبح مدعاة لنا لأن نتساءل أي المصطلحين أحق بالرعاية والاستعمال، مصطلح المسيحيين العــرب أم العرب المسيحيون؟؟؟

الجواب المنطقي المستمد من الحقيقة التاريخية والأولى بالأخــذ والاستعمال هو العرب المسيحيون[2].

ولعل المسيحيين العرب أحرار من العقدة الصليبية فلــم يكونــوا خارج هذه الحملات، ولكن لأنها استهدفتهم في بــلاد الشــام وقبــرص، فأهدرت دماءهم كما أهدرت دماء المسلمين، وقوضت مملكة الروم، كما أتت على حكم الإسلام زمناً طويلاً[3]، فالإسلام يملك في الوطن العربــي

---

[1] – وليام. سليم قلادة: العلاقات المسيحية، العربية في الواقع المعرفي ص٢٦٢.

[2] – منير درويش: هجرة العرب، دمشق، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع.

[3] – مجموعة من المفكرين (الشيخ محمد حســين فضــل الله وآخــرون)، مركــز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيــروت ٩٤٤، كلمــة المطــران جورج خضر ص ٢٠٤.

على الخصوص شريكاً قديماً على أرضه يتمثل في المسيحيتين: الأرثوذكسية والسريانية، وكان للإسلام والمسيحية الشرقية علاقات تتفاوت على المستوى الكلامي والفقهي، بالإضافة إلى تراث التعايش وكان المسلمون في القرن الرابع الهجري يعرفون المسيحية التي يعاشونها معرفة جيدة من خلال الدراسات والعروض النقدية التي أنجزها علماؤهم عن أصول المسيحية وعقائدها وتمايزات علاقاتها فيما بينها، وتراثها مع المسلمين.

وقد تراجع مستوى تلك العروض، وغلبت عليها الجدل وخالطتها الردود منذ الحروب الصليبية، بيد أن المسيحية الشرقية التي تعامل علماؤها مع السلطات الإسلامية طويلاً، واشتركوا مع النخبات الإسلامية في حركات النهوض العلمي فأعانوا بالتعرف على الإسلام كما تميز المسلمون بالتعرف عليهم[1]، وإذا كان "أهل الأرض"[2] المسلمون والمسيحيون قد تأصل اتحادهم بالجذر الابراهيمي المشترك[3]، فقد تعزز هذا اللقاء "بحوار الحياة"[4] ذاتها الذي أخذ ينمو شيئاً فشيئاً منذ يوم

---

[1] – المرجع السابق، مقال رضوان السيد ص ٦٨.

[2] – تعبير استعمله وليم سليم قلادة انظر مقاله في مجموعة من المفكرين المرجع السابق ص٢٥١ وما بعدها.

[3] – مقال رضوان السيد، المرجع السابق ص١٠٠، ومقال المطران جورج خضر، المرجع السابق ص٢٠٣.

[4] – مقال وليم سليم قلادة، المرجع السابق ص.

المباهلة[1] مع أهل النجران، وذلك على نار هادئة حتى أصبح بشراً سوياً لاتقوى على زعزعته حدثان الدهر، ومرد ذلك -في نظرنا- العمق الإنساني الذي يدخل في صلب الشخصية المسيحية والإسلامية[2].

زد على ذلك فإننا نشهد أيضاً قفزات في التخاطب بعد أن أضحى اطلاع أحدنا على الآخر أكثر شمولاً وأعظم عمقاً من الماضي بسبب هذا الهدوء الذي بلغته النفوس في توقها إلى الوحدة، بعد ما ذاقت من شدة التنافر ورهبة العزلة، وبعد أن تخطت ميزات الألم التاريخي[3].

ويجب أن لاننسى الدور الفعال الهام الذي يلعبه العرب المسيحيون لصالح حضارتنا وأمتنا كحلقة وصل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية[4]، فهم سفراء حضارتنا إلى الغرب.

"ولايمكن القول إن هذه الصلة ناتجة عن ارتباط ثقافة المسيحيين في الشرق بثقافة الغرب، بل بتأثير هذه الثقافة على رؤية الغرب لهذا الشرق الذي تتسم غالباً بالسلبية كمصدر للإرهاب، وخزان للمواد الخام والثروة.

"ولقد مارست ثقافة المسيحيين الشرقيين عموماً والغرب خصوصاً على مدى تاريخها تأثيراً متبادلاً بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية الغربية"[5]، بالإضافة إلى عدد من بني أسد وبعض عائلات قريش وإلى

---

[1] – مقال رضوان السيد، المرجع السابق ص٦٤.

[2] – راجع مقال العلامة محمد حسين فضل الله، المرجع السابق ص٣٤.

[3] – مقال المطران جورج خضر، المرجع السابق ص٢٠٣.

[4] – منير درويش: هجرة العرب المسيحيين في الوطن العربي، ص١١.

[5] – منير درويش: هجرة العرب المسيحيين، ص١١.

مجموعات تنتمي إلى مسيحيات انتشرت في الجزيرة العربيــة، وكــذلك عرف الإسلام المسيحية داخل الجزيرة لدى أهل نجران وخارجها عنــد الغساسنة، وكانت عاصمتها بصرى موقع مراقبة القوافل التــي تـؤمن التجارة بين قلب الجزيرة العربية وسوريا وفي فلسطين، واللخميون فــي الحيرة كانوا أيضاً من المسيحيين الذين التقاهم الإسلام في نشأته[١].

والعرب المسيحيون ليسوا نتاج التاريخ فحسب، بــل هــم نتــاج الجغرافيا[٢]، ولاحاجة للقول بأن الصراع بين الغرب المسيحي والشــرق المسلم والذي أولى فصوله في الحروب الصليبية والذي اشتعل أواره في الحروب الصليبية.

هذا وإبراز لبعض مداميك وحدتنا الوطنية، نعرض لرأي المجمع الفاتيكاني في الدين الإسلامي، يقول المجمع المــذكور "تنظــر الكنيســة بتقدير إلى المسلمين الذي يعبدون الله الأحد الحي القيوم الرحمن القــدير فاطر السموات والأرض الذي كلم الناس، إنهم يجتهدون في التسليم بكل تقدير لأحكام الله وإن خفيت مقاصده، كما سلم الله ابراهيم الذي يفتخــر الدين الإسلامي بالانتساب إليه.

وعلى الرغم من أنهم لايعترفون بيسوع إلهــاً فــإنهم يكرمونــه ويكرمون أمه العذراء مريم ويذكرونها في خشوع، ثم إنهم ينتظرون يوم

---

[١] – طارق متري الكنيسة الشرقية في العالم العربي الإسلامي أعمال المؤتمر العــام الثاني لكنيسة الروم والملكيين الكاثوليك، الربوة ١٩-٢١ تموز ١٩٩١، لبنان مجلة المسرة ٨٧ تشرين الثاني ١٩٩١ ص١٠٠٧.

[٢] – منير درويش: هجرة العرب المسيحيين، المرجع السابق، ص٤٩.

الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس عندما يبعثون أحياء، من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم.

وفي رأينا إن الوطنية من حيث هي جمع لطاقات الأمة وابداعاتها هي نتاج الاجتماع الإنساني والشكل الأمثل له.

هكذا ردد سينتوت حنا ورفع عقيرته ليقول: الوطنية ديننا، ولقد عقب المستشار طارق البشري على ذلك بالقول: "يلحظ من شواهد هذه الفترة أن غالب المصريين قد وجد نفسه في عبادة "الوطنية ديننا".

وإذا كان سينتوت حنا هو صاحب هذه العبارة، فقد اطرد استعمال هذا المعنى بعبارات مختلفة وصيغ متعددة قبل سينتوت وبعده، وتلقف الجميع عبارة سينتوت لتكون عنواناً عليه كاسمه، وأصبحت ماركة العصر[1].

وتحتفظ دور الآثار المصرية بقطع أثرية يحيط فيها الهلال بالصليب، وذلك في تكوين للمسارح التي تضاء بالزيت، ويرجع تاريخ هذه الآثار إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أي أن صانعيها أبدعوها أثناء اشتعال معارك الحروب مع الفرنجة "الحروب الصليبية".

ويسجل تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية أن هؤلاء الغزاة كانوا يبغضون القبط، وأنهم منعوا هؤلاء من الحج إلى القدس الشريف[2].

ونؤكد ما قاله الأستاذ منير درويش بأن المسيحيين المهاجرين لم

---

[1] - العلاقات الإسلامية – المسيحية، ص٣٣٠.

[2] - العلاقات الإسلامية – المسيحية، ص٣٣٢.

يتخلوا عن وظيفتهم وعروبتهم وبقوا ملتصقين بها، وهم يعملون مع الجاليات الإسلامية والعربية في دعم قضايا العرب والمسلمين[1].

ونلفت الانتباه، بل نذكر بهذا الدور الفعال الذي لعبه العرب المسيحيون في النهضة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي[2].

هكذا يؤكد الوليد بن طلال في جريدة النهار أن بقاء المسيحيين في الشرق هو ترسيخ لفكرة الدولة العصرية والتنوع الثقافي والتعددية والديمقراطية، ومنع استنزاف الطاقات العلمية والفكرية والثقافية في منطقتنا، أما حسنين هيكل فيرى أن الوطن العربي كله سيختلف حضارياً وإنسانياً مع هجرة المسيحيين، وسيصبح أكثراً فقراً وأقل ثراء لو أن هجرة المسيحيين ترك أمرها للتجاهل والتغافل والمخاوف، فأي خسارة لو أحس مسيحيو الشرق أن لامستقبل لهم ولأولادهم فيه، ثم بقي الإسلام وحيداً في الشرق لايؤنس وحدته غير وجود اليهودية الصهيونية في إسرائيل[3].

لقد رفض العرب المسيحيون في العراق مشروع الحماية التي عرضت تقديمها لهم القوات الأمريكية وعملاؤها، كما رفضوا الهجرة، وأعلنوا تمسكهم بوطنهم باعتبارهم جزءاً من نسيجه رغم الحوادث المؤلمة التي تعرضوا لها، وهم يرفضون المشروع الذي أيده رئيس الجمهورية جلال الطالباني، بإحداث محمية لهم في سهل نينوى يتجمعون

---

[1] – منير درويش المرجع السابق ص٣٤.

[2] – فدوى نصيرات: المسيحيون العرب وفكرة التوعية العربية في بلاد الشام ومصر (١٨٤٠-١٩١٢)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

[3] – منير درويش: المرجع السابق ص١٧.

فيها بعد الاعتداء على كنيسة النجاة في بغداد، وأسسوا رفضهم بأنهم مواطنون لهم الحق بالتمسك بهويتهم الوطنية، وهم لم يتوانوا عن اتهام قوات الاحتلال بالوقوف وراء تلك الاعتداءات[1].

وبخصوص التسمية فإننا نفضل التسمية "العرب المسيحيين" لأن هذه التسمية تفصح عن عراقتها وطبيعتها وامتداد أصولها إلى ما قبل الإسلام، هذا فضلاً عن حق كل كائن أن يطلق على نفسه التسمية التي يريدها[2].

فالمسيحيون تبنوا المشروع القومي ودافعوا عنه لأن انتماءهم القومي سبق انتماءهم للمسيحية، حيث إن العرب وجدوا "قبل المسيحية" ولازالت القبائل العربية بأسمائها المعروفة تتردد في الكتب واستقبلوا الإسلام كوريث.

ويرى المطران جورج خضر أنه في أنطاكية سمي التلاميذ أول مرة المسيحيين (أعمال الرسل: ١١-٢٦) وذلك في النصف الأول من القرن الميلادي الأول، وإذا بقيت تسمية "الناصريين" شائعة في القرن الثاني هنا وثمة في بلاد الشام، إلا أنها مضت حتماً إلى التلاشي الكامل في القرن السابع الميلادي[3].

ويستطرد المطران جورج خضر في قوله: في أنطاكية سمي

---

[1] - منير درويش: المرجع السابق ص٤٤.

[2] - منير درويش: المرج السابق ص٣٩.

[3] - مقال المطران جورج خضر في العلاقات الإسلامية - المسيحية، المرجع السابق ص٢١٥.

التلاميذ أول مرة مسيحيين (أعمال الرسل: ١١-٢٦)[1].

واستطرد في قوله: "هؤلاء النصارى إنما هم فرقة مسيحية تهودت، ولعل ما يرجح هذه النظرية أن دعوة الإيبونين (الفقراء) المتهودين معروفة في التاريخ الكنيسي، وفي الأدبيات المتصلة فيها، والتي كانت متفشية في شرق الأردن في القرن الرابع الميلادي تقول بانتظار نبي جديد، وكانت السيدة خديجة تتمنى قبل البعثة أن يكون محمداً نبياً، وقد أكد هذه النبوءة نسيبها ورقة عند أول النزول[2].

وخشية الوقوع بأي خطأ عقيدي ديني، فإننا نكتفي بالغوص في هذه المسألة، وهنا أردد قولة المطران كيرلس سليم بسترس: "المسيحية اليوم ليست النصرانية التي التقاها القرآن، والمسيحيون اليوم ليسوا "أهل الكتاب" وحسب، كما يرد ذكرهم في مختلف سور القرآن، وتعاليمهم ليست التعاليم التي يكفرها القرآن، فإنني أنا اللاهوتي المسيحي عندما أقرأ ما يقول القرآن عن التثليث وعن ألوهية السيد المسيح أخلص إلى أن هذه الأوصاف لاتعبر عن إيماني المسيحي بالتثليث وبألوهية السيد المسيح، وبالتالي فإن تكفيرها لايطالني، وهذا في رأيي هو الحل الوحيد للخروج من المأزق الذي يقع فيه المسيحيون والمسلمون على السواء[3].

ويستطرد المطران كيرلس القول: الأب وحكمته روحه ليست في

---

[1] - المرجع السابق ص٢١٥.
[2] - المرجع السابق ص٢١٥.
[3] - العلاقات الإسلامية – المسيحية، المرجع السابق ص٢٢٥.

اعتقادنا ثلاثة آلهة منفصلة أحدها عن الآخر، بل إله واحد تميز فيه ثلاثة أقانيم أي صفات ذاتية غير منفصلة أحدها عن الآخر، فكما تميز بين الإنسان وعقله وروحه دون أن نفصل بين هذه الثلاثة، كذلك وإن ميزنا في الله الواحد بين الله وعقله – كلمته وروحه دون أن نفصل بين هذه الثلاثة، كذلك وإن ميزنا في الله الواحد بين الله وعقله – كلمته وروحه، إلا أننا لانفصل بين الثلاثة، لذلك نعلق في صلاتنا إيماننا بالثالوث الواحد في الجوهر غير المنفصل[1].

"لذلك نؤكد أن المسيحية ديانة توحيدية وقولها بالتثليث هو تعمق في سر الله، وتفسير لتجلي الله في عالم البشر، فلا نكتفي بالقول إن الله أرسل إلينا أنبياء، بل إنه أتى إلينا في شخص كلمته يسوع المسيح، وفي روحه القدوس، فكلمة الله وروحه حصراً في ما بيننا، أما التثليث الذي يكفره القرآن فهو عبادة كائنين "من دون الله أي لاعلاقة لهما بالله، وفي هذا التثليث نحن منه براء، لأن كلمة الله وروح الله ليسا كائنين من دون الله، وإنما هما صفات ذاتية في الله الواحد نفسه[2].

وعلى كل فإننا نذكر بالمنظور الإسلامي المتضمن هو أن سيدنا عيسى كان مسلماً حنيفاً كما كان ابراهيم وهو عبد الله ورسوله ومخلوق كما خلق آدم، والإسلام ينكر إلهية عيسى كما ينكر التجسد والصلب[3].

---

[1] – العلاقات الإسلامية – المسيحية، المرجع السابق ص٢٣٢.

[2] – المرجع السابق ص٢٣٢.

[3] – قول المطران جورج خضر انظر العلاقات الإسلامية والمسيحية ص٢١٣.

ونعود لنؤكد بأن الحوار في العقائد غير مستحب[1].

والخلاصة فالعرب المسيحيون ذو وجود راسخ في التاريخ والحياة العربية، وقد انغرست مفرداتها في نفوسهم وكونت جزءاً هاماً من وعيهم الفكري وممارساتهم العامة[2].

وليس ذلك عجباً فقد عرف مجتمعنا ومارس الوحدة الوطنية بأحلى مظاهرها، ونجد ذلك بارزاً في نصوص قانون حمورابي.

لقد مرَّ أحمد عرابي ذات يوم في خط النار في كفر الدوار (مصر) فاستوقف نظره شيخ هرمٌ حنت الأيام ظهره وخط الشيب رأسه، فاستدعاه إليه، وقال له: "يا أبت أنا أرى شيبك لايسمح بوجودك بين صفوف المقاتلين، فلك أن تستريح كما تشاء" فأجابه الرجل: كيف تحرمني من أن أجود بذمتي فدية عن بلادي من المغيرين عليها، وأنا وإن كان أولادي ثلاثة هنا أيضاً في ميدان القتال، ولكنني لم أود إلا أن أشترك فيها، فقبله عرابي على جبينه، وسأله عن اسمه فقال له: "جرجس بقطر"[3].

يجمع المؤرخون على أن المسيحيين قد تعاونوا بعد الفتح في مختلف المجالات ولاسيما في الطب والعلوم، وبفضل تعاونهم عرف

---

[1] – العلاقات الإسلامية – المسيحية ص٢٠٠ والقول للأستاذين فهمي الهويدي ووليم سليم قلادة.

[2] – منير درويش: المرجع السابق ص٤٠و٤٣.

[3] – العلاقات الإسلامية – المسيحية، مقال وليم قلادة ص٣٠٨.

الشرق العربي الازدهار الحضاري الذي يشهد له التاريخ، يقول الأب إغناطيوس ديك المؤرخ الملكي الكاثوليكي: إن الملكيين ظلوا موالين للحكم العربي ولم يتعاونوا مع الروم الفرنجة في حروبهم ضد المسلمين، وقد أسهموا في تكوين الحضارة العربية بترجماتهم ومؤلفاتهم، واشتهر كثير منهم في مجال الطب[١].

هكذا كان القمص مرقص سرجيوس يردد: إذا كان الانكليز يتمسكون ببقائهم في مصر بحجة حماية القبط فأقول: "ليمت القبط وليحيا المسلمون أحراراً إذا كان استقلال المصريين يحتاج إلى التضحية بمليون قبطي فلا بأس من هذه التضحية"[٢].

لقد اقترح عبد العزيز فهمي أن يكتب الشاعر أحمد شوقي دعاء يعبر به الشعب في المساجد والكنائس ليكلل الله جهود الوفد بالنجاح في مفاوضاته، فأبدع الفنان أنشودة وطنية روحية صلى بها المدنيون المسلمون والمسيحيون معاً وقالوا بصوت واحد:

اللهم قاهر القياصر، ومذل الجبابر، وناصر من ليس له ناصر.

هذه كنائسك فزع إليك بنوها، وهرع إليك ساكنوها هلالاً وصليباً.

بعيداً وقريباً شباباً وشيباً مستبقين كنائسك التي دفعتها لقدسك.

أعتاباً ميممين مساجدك التي شرعتها لكرمك أبواباً نسألك بهذه الصلاة العامة من أقباط الوادي مسلميه، آتنا اللهم حقوقنا كاملة.

---

١ – المرجع السابق، مقال المطران كيرلس بسترس ص٣٣٨.

٢ – العلاقات الإسلامية – المسيحية، مقال وليم قلادة ص٣٢٥.

اللهم تاجنا منك نطلبه، وعرشك إليك بخطبة، واستغلالنا التام تستوجبه، فقلدنا زماننا، ولنا أحكامنا، واجعل الجن أمامنا[1].

هذه نبذة عن مظاهر فلسفة الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين في وطننا التي تنامت أغصانه وجذوعه منذ الزمن السحيق ثم اهتزت قربت لتنتج كل زوج بهيج، روحاً تتفتح على روح ودماً يمتزج بدم وحياء تترع في حياة، وذلك هو موضوع هذا الكتاب والله المستعان على ما تصفون.

---

[1] - المرجع السابق، مقال وليم قلادة ص٣٣٣.

وحدة الأصل والمصير الانساني

الاختلاف بين الناس في الوجهة والشرعة والمنهاج قائم مذ كان الاجتماع الإنساني، وهو ثابت بإرادة الله الذي لوشاء لجعل الناس أمة واحدة...

بيد أن الخلق الإنساني واحد نبع من أصل واحد ويتجه نحو غاية وهدف واحد، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات١٣.

ومن هذه النفس الواحدة خلق منها أزوجاً وبث منها رجالاً كثيراً ونساء:

"خلق الناس من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء، وجعل الذكر والأنثى – بعضاً من بعض–".

وبالطبع يترتب على هذه النتيجة والمآل، على هذا الأصل الواحد والوحدة الواحدة الله تعالى رب الناس جميعاً، لارب فئة منهم:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ ﴾ الناس(مكية)٦

فهو تعالى رب العالمين لارب الناس وحدهم:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ الفاتحة(مكية)٧.

ولهذا فالدعوة إلى الله ذات طابع شمولي تتجه إلى كل إنسان مهما كان جنسه، وحيثما تكون أرضه وسماؤه.

قال تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الأعراف١٥٨.

والله تعالى جعل الإنسان: "في الأرض خليفة"

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ

فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة٣٠.

والله تعالى كرم بني آدم:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ الإسراء٧٠.

والناس جميعاً مدعوون إلى التعاون: "على البر والتقوى"، وقد أرسل لهم: "رسله بالبينات"، "وأنزل مع الرسل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط".

"وليعبدوا الله مخلصين له الدين".

"وجميع أبناء الله مسلمون له".

"ولكل جعل منهم شرعة ومهاجاً".

وهكذا يتم التساؤل: ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً وأبنائه من بعده.

والله تعالى يعلن: "لا إكراه في الدين".

والله تعالى يفصل بين أتباع الأديان يوم القيامة.

والعدل مطلوب مع الناس جميعاً، مهما كانت عقائدهم:

﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ النساء٥٨.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل٩٠.

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ النساء١٣٥.

والمسلم يدعو إلى الإيمان بجميع الرسالات السماوية لانفرق بين أحد من رسله...:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ البقرة٢٨٥.

هذه النظرة الإسلامية إلى تكريم الرسالات والأنبياء ليست نابعة من الفراغ، بل نابعة من وحدة الأصل، من عند الله، ومتجهة إلى وحدة الهدف، فهي تدعو إلى عبادة الله وإلى عبودية الإنسان له، إلى وحدة التواصل والمسيرة:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ الشورى١٣.

والرسالات يكمل بعضها بعضاً، والرسالة التي نزلت على محمد هي خاتمة هذه الرسالات ومكملتها:

﴿ . . . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً . . . ﴾ المائدة٣.

والمسلمون مكلفون بأن يؤمنوا بهذه الرسالات وبالكتب التي تنزلت بها، دونما أي تفريق بين رسالة وأخرى:

﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة١٣٦.

ومن هذه القيم – وهي أهلية الناس لحمل دعوة الله والتزام المسلم بنظرة المساواة إلى الناس لكرامتهم الإنسانية، وتكليفه بالعدل في تعامله معهم– تكون علاقة المسلم بغير المسلم بعامة، وعلاقة المسلم بغير المسلم في المجتمع الإسلامي بخاصة، قائمة على الاحترام وحفظ الحقوق، يضاف إلى ذلك أن نظرة الإسلام إلى أهل الأديان السماوية هي نظرة متميزة خاصة بهم دون غيرهم، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يدعو إلى الإيمان بجميع الرسالات السماوية السابقة، وبتكريم جميع الأنبياء والرسل الذين اضطلعوا بحمل أمانتها:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة٢٨٥.

وهذه النظرة الإسلامية إلى تكريم الرسالات والأنبياء والرسل ليست نابعة من الفراغ، بل هي نابعة من وحدة الأصل، لأنها كلها من عند الله، ومن وحدة الهدف فهي كلها تدعو إلى عبادة الله وإلى عبودية الإنسان له، ومن وحدة التواصل والمسير:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الشورى١٣.

وإذا كانت هذه نظرة الإسلام إلى الرسالات والرسل فإن المسلم مكلف أن ينظر إليها نظرة اعتبار وتقدير لايشوبها سوء ظن أو عداء، ذلك أن الرسالات يكمل بعضها بعضاً، والرسالة التي نزلت على قلب محمد (ص)، هي – في اعتقاد المسلمين – خاتمة هذه الرسالات ومكملتها:

﴿ . . . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً . . . ﴾ المائدة٣.

ولهذا فإن المسلمون مكلفون، وبصيغة الأمر، والأمر أعلى صيغ

التكليف في الإسلام، مكلفون بأن يؤمنوا بهذه الرسالات، وبحملتها من الأنبياء الرسل، وبالكتب التي تنزلت بها، ما أنزل الله إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، ما أوتي موسى وعيسى، ما أوتي النبيون من ربهم، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون...

وقد أحسن رسولنا محمد (ص) بوصف هذه العلاقة بين الرسالات وبأنها علاقة تكامل حين قال: "مَثَلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[1].

كما أحسن وصف علاقته بالأنبياء السابقين حيث جعلهم جميعاً إخوة، أبوهم واحد دين الله، وأمهاتهم مختلفات: "الأنبياء إخوة لعلاّت[2]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد"[3].

وهذه النظرة القائمة على الاحترام للأديان السابقة تجعل الدين الإسلامي دين تقريب لاتفريق، ودين تواد لاتباغض، الأمر الذي يجعل الإسلام هو الدين المهيأ للتقريب بين صفوف جميع المؤمنين بالله من سائر الأديان والوقوف معهم في وجه تيارات الإلحاد والمادية والظلم، هذه التيارات التي تكتسح العالم اليوم، والتي تشكل خطراً جاداً على المجتمع الإنساني كله، وهذه القدرة على التجميع لم تخف على الأذهان

---

[1] - صحيح البخاري (الجامع الصحيح)- كتاب المناقب - باب خاتم الأنبياء ٢٥/٥.

[2] - العلاّت: الأخوة من أب واحد ومن أمهات مختلفات.

[3] - الجامع الصحيح (صحيح البخاري) كتاب الأنبياء ٣٢٧/٤.

الواعية، قد لحظها كثير من أبناء الأديان الأخرى ونوّهوا بها، من ذلك ما قاله الكاتب: "دينكان لريلس": "إن نبل وتسامح هذه العقيدة التي تتقبل جميع الأديان الحقيقية في العالم بحسبانها منزلة من الله، سوف يظلان على الدوام إرثاً مجيداً للجنس البشري يمكن أن يبنى عليه دين عالمّي"[1].

من جماع ما تقدم نخلص من ذلك للقول بأن جميع الأديان السماوية تدعو إلى الخير، وتنهى عن الشر، وتحرص على سعادة الإنسان في دنياه وفي أخراه، ولكن الله تعالى خلق التنوع لإعمار الأرض وإخصابها، ولقد أبان لنا ابن خلدون هذه النظرة حين استهل تاريخه الشهير قائلاً: "أعلم أن الله سبحانه اعتمد هذا العالم بخلقه، وكرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وثبتهم في نواحيها لتمام حكمته، وخالف بين أممهم وأجيالهم إظهاراً لآياته، فيتعارفون بالأنساب ويختلفون في اللغات، ويتمايزون بالسير والمذاهب والأخلاق، ويعترفون بالنحل والأديان والأقاليم.

وانتهى إلى القول "ليتم" أمر الله في اعتماد أرضه بما تبوز عليه من وظائف الرزق وحاجات المعاش بحسب خصوصياتهم وعملهم، فتظهر آثار القدرة وعجائب الصنعة، وآيات الوحدانية، إن في ذلك لآيات للعالمين، واعلم أن الامتياز بالنسب أضعف المميزات لهذه الأجيال والأمم[2]، وهناك أيضاً تقارب وتعاون بغية اعتماد هذا العالم الاجتماع

---

[1] – رسالة الإسلام: دينكان كرينلس ص٢٧ (٩٤٥ – دون مكان الطبع) نقلاً عن (موقف الإسلام من الأديان الأخرى) لكامل الباقر مدير جامعة أم درمان بالسودان بحث في أدبيات ندوة الحوار الإسلامي، المسيحي بطرابلس ص٦.

[2] – ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.

الإنساني الذي هو ضروري للنوع الإنساني، وهذا هو جوهر اصطلاح التعايش الحديث[1].

إفراد النصارى بالود والمعاملة الخاصة

إن تمسك أي إنسان بمعتقداته والتزامه بأمور دينه لايعني إطلاقاً افتئاتا على معتقدات أبناء دين آخر أوتجريحاً لها. ولكنه، ومن خلال احترامه لهذه الأديان جميعها، أفرد النصارى باعتبارات خاصة أقامت بينهم وبين المسلمين علاقات من الود متميزة لم يحظ بها غيرهم:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿٨٣﴾ المائدة.

وفي هذه الآيات وصف للنصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، ثم يقترن الوصف بالتعليل الذي يوضح الدوافع التي أحلت هذا القرب، وفسّرت نزعة الخير لديهم، وهي دوافع نابعة من سجايا يتحلّون بها، منها تأثير علمائهم من القسيسين والرهبان الذي يعملون بما يؤمنون

---

[1] – د. أحمد صدقي الدجاني: مسلمون ومسيحيون في الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، مركز يافا، للدراسات والأبحاث، ط١، ٩٩٩، ص١٧.

به، ومنها تواضع فيهم لا كِبرْ معه، ومنها رقة في قلوبهم وعواطفهم واتصافهم بالرأفة والرحمة، وهما من ألطف وأنبل والنعوت.

والنصارى واليهود كثيراً ما تقلدوا مناصب هامة في دوائر المال والكتابة والمهن الحرة، جسدهم عليها بعض المسلمين من العامة بحيث ظهرت نتائج ذلك التنافس في استئناف شرائع جديدة لإيقاف أهل الذمّة عند حدودهم، غير أن أكثر هذا التشريع الجديد ظل حبراً على ورق ولم ينفذ دائماً[1].

لكن النصارى تمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية ونالوا كثيراً من التساهل والعطف كما تشهد عدة حوادث، فقد جرت مناقشات دينية في بلاط العباسيين كتلك التي جرت في بلاط معاوية وعبد الملك وقد ألقى تيموناوس بطريرك النساطرة في سنة ٧٨١ دفاعاً عن النصرانية أمام المهدي لايزال محفوظاً نصه إلى اليوم[2].

كذلك تحدرت إلينا رسالة للكندي[3] تصرح أنها بيان لمناقشة جرت سنة ٨١٩ م في حضرة المأمون بين محاسن الإسلام والنصرانية، أما الأبحاث الدينية التي وضعها على الطبري (المتوفى ٨٥٤–هـ) وسماها

---

[1] – د. حتي ورفقاه: تاريخ العرب، ص٤٢٢.

[2] – A.Mingana in Bulletin of the John Ryland's library. Vol,12 (Manchester.1928), pp. 137, 298.

[3] – رسالة عبد المسيح ابن إسحاق الكندي (لندن ١٨٧٠٠) والطبعة الثانية (لندن ١٨٨٥٠).

"كتاب الدين والدولة"[1] فهي دفاع شبه رسمي عن الدين الإسلامي وإيضاح لحقائقه ألّف تحت رعاية المتوكل وبمساعدته، وهذا المصنّف معتدل بعيد عن التعصب والحمية الدينية تكثر فيه الإشارات إلى الكتاب المقدس والراجح أن المؤلف اعتمد فيه على نص التوراة السرياني أوعلى ترجمة عربيّة قديمة.

ففي الوقت الذي أنشأ فيه ابن النديم كتاب الفهرست (٩٨٨) كان للعهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس ترجمات عربية معروفة[2]، وهناك أخبار تذكر أن رجلاً يدعى أحمد بن عبد الله ابن سلام كان قد ترجم التوراة إلى العربية منذ ولاية هارون الرشيد[3]، ولدينا مايثبت أيضاً أن التوراة كانت قد نقلت إلى العربية في القسم الأخير من القرن السابع ولعلها ترجمت من السريانية أومن الترجمة السبعينية اليونانية، ولقد أرّخ الطبري[4] من حوادث سنة ٦١ هجرية أن عبد الله بن عمرو ابن العاص كان قد قرأ سفر دانيال.

على أن أول ترجمة هامة للعهد القديم إلى العربية كانت تلك التي قام بها سعيد الفيومي المصري (٨٩٢-٩٤٢)، وهي المعوّل عليها عند المتكلمين بالعربية من اليهود إلى اليوم، ولقد أثرت هذه الترجمات في

---

[1] - نشره أ. منجانا (القاهرة، ١٩٢٣) وترجمه إلى الإنكليزية The Book of Religion Empire (Manchester.1922).

[2] - الفهرست ص٢٣.

[3] - المصدر نفسه ص٢٢ ولعلها كانت ترجمة جزئية.

[4] - ج٢ ص٣٩٩.

العلماء المسلمين بأن شحذت قرائحهم ودفعت بهم إلى مناقشة النصارى حتى أن الجاحظ (المتوفي ٨٦٩) انبرى لدحض آراء الدين المسيحي[١].

ثم إننا نعرف وزراء نصارى قاموا في الشطر الثاني من القرن التاسع منهم عبدون بن صاعد الذي يُحكى أنه دخل على قاضي بغداد فقام له ورحب به فأنكر المشهود ذلك[٢]، وكان للمتقي (٩٤٠-٤٤) وزير نصراني[٣]، كما كان لأحد بني بويه وزير آخر[٤]، أما المعتضد (٨٩٣-٩٠٢) فقد جعل على المكتب الحربي لجيش المسلمين نصرانياً[٥].

وقد نال أمثال هؤلاء النصارى من أصحاب المناصب العالية ما ناله زملاؤهم المسلمون من الإكرام والتبجيل ونستطيع أن نتبين ذلك حين نقرأ عن بعض من امتنع عن تقبيل أيديهم من المسلمين، وكانت أكثرية أطباء الخلفاء أنفسهم من أبناء الكنيسة النسطورية، وقد نشر أخيراً براءة منحها المكتفي[٦] سنة ١١٣٨ لحماية النساطرة وهي توضح مدى العلاقات الودية بين رجال الإسلام الرسميين وبين رجال النصرانية.

---

[١] – د. حتي رفقاه: تاريخ العرب ص٤٢٣.

[٢] – ياقوت، أدباء ج٢ ص٢٥٩.

[٣] – التنوخي، الفرج بعد الشدة (القاهرة، ١٩٠٤) ج٢ ص١٤٩.

[٤] – هو نصر ابن هارون، انظر مسكويه، تجارب الأمم نشر مرغليوث ج٢ (القاهرة وأكسفورد، ١٩١٥) ص٤٠٨و٤١٢.

[٥] – الصابئ، وزراء ص٩٥.

[٦] – A.Mingana in B Bulletin John Ryland's library. Vol,10(1926) pp. 127. 33.

النساطرة

وقد كان رعايا الخلفاء العباسيين من النصارى ينتمون بالأكثر إلى كنيستين سريانيتين هما الكنيسة اليعقوبية والكنيسة النسطورية وكانت الأكثرية بين النصارى في العراق من النساطرة فنال بطريركهم المعروف بالجاثليق[1] حق السكنى في بغداد، وجعلها مقراً لكرسيه وهو امتياز سعى اليعاقبة أن ينالوه فلم يفلحوا، وقد نشأ حول مقر الجاثليق ببغداد المدعو بدير الروم[2] حي للنصارى عرف بدار الروم، وكان للجاثليق سلطة روحية على سبع ابرشيات أومطرانيات منها أبرشية البصرة وأبرشية الموصل وأبرشية نصيبين، وفي كل منها مطران وأسقفان أوثلاثة، وكان المرشح المنتخب لمنصب الجثلقة يتسلم من الخليفة براءة تسند إليه الزعامة الرسمية على نصارى الإمبراطورية الإسلامية كلها.

واستطاع الجاثليق في سنة ٩١٢-٩١٣ أن يحمل الخليفة على منع بطريرك اليعاقبة من نقل كرسيه في أنطاكية إلى بغداد[3]، وكان أهم ما اتهم به اليعقابة أنهم كانوا يمالئون البيزنطيين، غير أنه كان لليعاقبة دير

---

[1] - بكسر التاء أو فتحها وهو تعريب "Catholicos".

[2] - ياقوت، بلدان ج٢ ص٦٦٢.

[3] - لقد ذكر السمعاني أمر البطاركة الموفوفيزيين اليعاقبة لهذا العصر. Assemani Bibliotheca orien, vol..ii, (Rome. 1721) وراجع د. حتي ورفقاه: تاريخ العرب ص ٤٢٣.

ببغداد[١]، وأبرشية في تكريت غير بعيدة عن العاصمة، وقد أورد ياقوت[٢] أسماء نحو ستة أديرة من أديرتهم كانت في الجانب الشرقي من بغداد غير الأديرة التي قامت في الجانب الغربي.

وكان أقباط مصر كما ذكرنا قبلاً قد اعتنقوا عقائد اليعاقبة وكذلك كنيسة النوبة فإنها كانت يعقوبية واعترفت برئاسة بطريرك الإسكندرية، وقد انتشرت النصرانية بين معاشر البربر على الساحل الضيق المحاذي للبحر في أفريقية الشمالية المتاخمة لمصر، ولكن سواد الشعب في داخلية هذه البلدان الإفريقية ظلوا يمارسون عقائد أومذاهب خاصة تختلف باختلاف قبائلهم.

ومن أعجب الظواهر في حياة النصرانية في ظل الخلفاء أنه كان لها من القوة والنشاط ما دفع بها إلى التوسع فافتتحت لها مراكز تبشيرية في الهند والصين، وقد أنبأنا ابن النديم[٣] عن اجتماعه براهب في دار الروم[٤] ببغداد كان قد أنفذه الجاثليق مبشراً إلى الصين، وإن العمود المجري المشهور في "سيان فو" بالصين الذي نصب سنة ٧٨١ تذكاراً لجهود سبعة وستين مبشراً نسطورياً[٥].

---

١ - ياقوت ج٢ ص٦٦٢.

٢ - مادة "دير".

٣ - ص٣٤٩.

٤ - لقد أخطأ فلوغل محرر الفهرست في شرحه ان دار الروم هنا هي مدينة القسطنطينية.

٥ - راجع P.y. Saeki, the Nestorian Documents and Relics in China (tohyo, 1937) pp. 10.

وانضمام الكنيسة الهندية واتباع القديس توما في مالابار بالقرب من مدراس إلى بطريركية بغداد لدليل على حيوية الكنيسة السريانية الشرقية وغيرتها الدينية للتبشير بينما كانت تعيش في كنف المسلمين، ثم إن حروف الكتابة المتداولة اليوم عند المغول والمانشو قد تحدرت في الأصل عن أشكال كتابية مشتقة من الألف باء السريانية التي حملها إلى تلك الأصقاع مبشرون من رهبان النساطرة.

وكانت الخطة التي سلكها الفاتحون العرب في معاملة رعاياهم في الأندلس لاتختلف كثيراً عن خطتهم في البلدان الأخرى التي فتحوها، فقد وضعت الجزية على النصارى واليهود دون غيرهم وكانت تتراوح بين اثني عشر وأربعة وعشرين وثمانية وأربعين درهماً في السنة، وذلك بالنسبة لمقدرة المكلف المالية، وقد أعفي من الجزية النساء والأحداث والشيوخ والمعوزون ومثلهم الرهبان والمصابون بالأمراض المزمنة، وقد كلف أهل الذمة بدفع الخراج أيضاً وهو بمعدل عشرين بالمائة مما تنتجه الأرض ويختلف عن الجزية في أنه لايسقط بالإسلام، وصودرت المناطق التي أخذت عنوة والأراضي التي تخص الكنائس وأملاك الذين فروا من البلاد عند الفتح فجعلت كلها قطائع للمسلمين، وأبقي للفلاحين المستعبدين للعمل في الأراضي عملهم الزراعي على أن يؤدوا أربعة أخماس حاصلاتهم لأسيادهم الجدد المسلمين، ولكن الدولة لم تستملك من الأراضي التي غنمها الفاتحون سوى الخمس ولم تطالب الفلاحين المستعبدين للعمل الزراعي بغير الثلث من الغلال، وقد أقطعت بعض

أراضي الدولة لأهل الشام والعرب الذين جيء بهم لقمع الثورات[١].

وكان الرقيق إذا أسلم أعتق إذ: "لا رق في الإسلام"، وكان أتباع الطوائف النصرانية المختلفة أحراراً في ممارسة دينهم كل جماعة على الطريق التي تألفها تابعة نظامها الكهنوتي في أمور القضاء والشريعة، ولقضاة كل جماعة صلاحية النظر في أمور أفرادها إلا إذا كان في القضية مساس بحق المسلم أوقدح في الإسلام، ولهذا فلم يكن الاحتلال العربي بوجه عام مجحفاً بحق أهالي البلاد الأصليين ولا هو وضع عليهم أعباء جديدة بل إنه قد أفاد إسبانية من بعض الوجوه كما يقول دوزي[٢]، فقد قضى على سطوة الطبقة المتمتعة بالامتيازات على حساب الشعب ومن هذه الطبقة النبلاء والأكليروس، وحسّن أحوال المستخدمين والعمال، ومنح الملاك النصراني حقوقاً كحرية التخلي عن عقاره وهو أمر لم يعهده في حكم القوط[٣].

اليهود

ولقد بقي اليهود من محاسنه المسلمين فرق بالغيه النصارى والسبب أنهم كانوا قليلي العدد فلم يحسن أذاهم، وقد وحدوا المقدس سنة ١٩٨٠ أن أكثر الصيارفة وأرباب البنوك في سوريا يهود وأكثر الكتبة

---

[١] – د. حتي ورفقاه: تاريخ العرب، ص٥١٧.

[٢] – Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed, É, Levi. Provencal (leyden, 1932) Vol I,p. 278 tr. Francis G. stokes, Spanish Islam (London, 1913), p. 236.

[٣] – د. حتي: المرجع السابق ص٥٨٧.

والأطباء نصارى ونرى في عهد عدد من الخلفاء وأخصهم المعتضد (٨٩٢-٩٠٢) أنه كان لليهود في الدولة مراكز هامة، وكان لهم في بغداد مستعمرة[١] كبيرة ظلت مزدهرة حتى سقوط المدينة، وقد زار هذه المستعمرة بنيامين التطيلي[٢] حول سنة ١١٦٩ فوجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين[٣] كنيساً منها واحد رئيسي مزدان بالرخام المخطط ومجمل بالذهب والفضة.

وأفاض بنيامين في وصف الحفاوة التي لاقاها رئيس اليهود البابليين من المسلمين بصفته سليل بيت داود النبي ورئيس الملة الإسرائيلية (ريس جالوتا في الآرامية أي أمير السبي[٤] أوبصفته في زعيم جميع اليهود الذين يدينون بالطاعة للخلافة في بغداد، فقد كان لرئيس الحاخامين هذا من السلطة التشريعية على أبناء طائفته مثل ما كان للجاثليق على جميع النصارى، وقد روي أنه كانت له ثروة ومكانة وأملاك طائلة فيها الحدائق والبيوت والمزارع الخصبة، وكان إذا خرج إلى المثول في حضرة الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء موشاة فيها الجواهر وأحاط به رهط من الفرسان وجرى أمامه ساع يصيح بأعلى صوته "أفسحوا درباً لسيدنا ابن داود."

---

[١] - ياقوت ج٤ ص١٠٤٥.

[٢] - The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela. Tr. And. A. Asher vol. I, (London and Berlin, 1840). Pp. too. 105.

[٣] - جعل غيره من الرحالين عدد الكنائس ثلاثاً فقط وهو أقرب إلى التصديق.

[٤] - لايستبعد أن بعض يهود بغداد هم ذرية بني إسرائيل الذي سباهم نبوخذ نصر سنة ٥١٧ وسنة ٥٨١ ق.م.

الصابئة

كان المَنْديُوْن[1] وهم الصابئة[2] الحقيقيون الذين عرفهم كتاب العربية طائفة يهودية – نصرانية عُرف أبناؤها في العالم اليوم خطأ بنصارى القديس يوحنا لأنهم كانوا يدعون أنفسهم "نصارَى إد يحيا" أي المراقبون أوالممارسون، وقد مارس المنديون سنة المعمودية بعد الولادة وقبل الزواج وفي أحوال كثيرة أخرى، وأقاموا في سهول بابل السفلي، ويرجع أصل طائفتهم إلى القرن الأول الميلادي، وكانت فلسطين فيما يظن موطنهم الأصلي وموطن غيرهم من أبناء الطوائف المعمدانية الأخرى، أما اللغة المندية فهي لهجة آرامية يشابه خطها كثيراً الخط النبطي والخط التدمري، وقد ورد ذكر الصابئين ثلاثاً في القرآن وقد اعتبروا كأهل الذمة وأعطاهم المسلمون أمان أهل الكتاب، وذكر الفهرست[3]، أن منهم فرقة المغتسلة وهم يسكنون منخفضات العراق الجنوبي، ولايزال من هذه الطائفة جماعة تقدر بنمو خمسة آلاف تسكن الأغوار بجوار البصرة وقد دفعهم إلى الإقامة قرب الأنهار ما في ديانتهم من فريضة الاغتسال أوالتغطيس في الماء الجاري وهي أبرز ميزة في طقوسهم الدينية، ومن الصابئة في بغداد اليوم فريق يعملون بصياغة

---

[1] – مشتقة من "يدع" الآرامية أي "عرف" وقد كانت هذه الطائفة تقول بالمعرفة (غنوسية)

[2] – صابئون أوصابئة مفردها صابئ من (المندية) أي المغطس، راجع د. حتي ورفقاه: تاريخ العرب ص٤٢٦.

[3] – ص٣٤٠، المسعودي ج٢ ص١١٢.

الفضة وصناعة الميناء عليها ويعرفون بأهل العمارة، وهناك صابئة في حرّان[1] يختلفون عن الصابئين البابليين وليسوا من الصابئة حقاً، وقد أخطأ مؤرخو العرب حين خلطوا بين الفريقين فصابئة حرّان في الواقع وثنيون يقولون بالثنوية الإلهية وقد اتخذوا الصابئة لهم اسماً بعد مجيء الإسلام ليضمنوا لأنفسهم الأمان الذي منحه الإسلام لأهل الكتاب ومن جاراهم، ثم لصق بهم هذا الاسم فظل أبناؤهم مقيمين بجوار العاصمة إلى أواسط القرن الثالث عشر حين غشي المغول البلاد وهدموا آخر هيكل لهم، وليس من شك في أن مؤهلاتهم العقلية وخدمات بعض نوابغهم العلمية هي التي أهابت بالمسلمين إلى منحهم الحماية التي لأهل الكتاب[2]، ونبغ منهم ثابت ابن قرة وغيره من علماء الفلك الحرّانيين أما سِنان ابن ثابت فقد حلمه الخليفة القاهر على الإسلام[3].

ومن اللامعين بين الصابئة البتّاني الفلكي وابن وحشية المنسوب إليه كتاب "الفلاحة النبطية" ولعل جابراً ابن حيان الكيماوي الشهير كان منهم أيضاً، إلا أن الثلاثة الآخرين قد أسلموا[4].

المجوس وسواهم من الثنوية

لايمكن أن يكون النبي محمد قد اعتبر أتباع زرادشت "المجوس"

---

[1] – المسعودي ج٤ ص٦١-٧١ يفرد لهم جانباً من بحثه.

[2] – الفهرست ٢٧٢.

[3] – الفهرست ٣٠٢ وقد اقتبس عنه ابن اصيبعة ج١ ص٢٢٠-٢١.

[4] – نجد إيضاحات وافية عن الصابئة في كتاب D.Chwolsohn, Dir Ssabier und Ssobismus 2 Vols. (ST. Petersburg, 1856).

الذي ورد ذكرهم مرة واحدة في القرآن[1] في عداد أهل الكتاب غير أن التقليد والشرع جعلاهم فئة من أهل الذمة وحُسبوا كأنهم من الصابئين، فقد قضت السياسة العملية والمصلحة أن يوسع نطاق الذمة فيشمل كل أهل إيران، وهكذا فقد ظلت الديانة الزرادشتية (وكانت دين الدولة) وهياكلها بعد الفتح الإسلامي منتشرة لا في الأمصار الإيرانية فحسب بل في العراق والهند وبعض المناطق التي إلى الشرق من فارس[2]، ولايزال فريق منهم اليوم في بلاد الهند كان آباؤهم قد نزحوا إليها من بلاد فارس في أوائل القرن الثامن، ولقد نبغ بين أتباع زرادشت أعلام اعتنقوا الإسلام أقدمهم ابن المقفع، أما المانيّون فقد التبس أمرهم على المسلمين أول الأمر فحسبوهم تارة نصارى وأخرى زرادشتية، ثم جعلوهم بعدئذ كأهل الذمة، ويظهر أن تعاليم ماني الفارسي (المتوفى ٢٧٦م) راقت لبعض المسلمين وكانت تفتنهم بحيث أن المهدي والهادي أصدرا أوامر صارمة تضييقاً على هذه النزعة، ويقال أن مروان آخر خلفاء بني أمية اتهم بالمانوية[3]، وكان له مؤدب قتل فيما بعد لزندقته[4].

---

[1] - سورة الحج:١٧.

[2] - المسعودي ج٤ ص٨٦.

[3] - الفهرست ص ٣٣٧-٨.

[4] - أطلق قدماء كتاب العرب لفظة زنديق (وهي مشتقة من زنديك البهلوية) على كل مسلم أظهر عقائد الفرس لاسيما المانوية، وصارت لفظة زنديق فيما بعد تدل على من اتصف بالحرية الفكرية قابل E.G.B rowne, A library History of Persia Vol. i (New York 1902) PP. 159. 60. وانظر ص١٤٥ من هذا الكتاب هامش رقم ٣.

وفي سنة ٧٨٠ صلّب المهدي في حلب جماعة من الذين أسـرّوا المانوية، وفي السنتين الأخيرتين من عهده جدّ في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق وجرّد فيهم السيف[١]، وقد نسج الهادي من بعده على المنـوال نفسه[٢]، فاشتدت نقمته على الزنادقة، ثم جاء الرشيد فولى أمرهم موظفاً خاصاً قلده حق قتل القائلين بالثنوية[٣]، ولكن كثيرين من أتباع ماني ومن أصحاب المزدكية[٤] الاشتراكية نجوا بعد ذلك الاضطهاد.

وغني عن البيان أنه تحقق إظهار الإسلام في جزيرة العرب على الشّرك والتهوّد والتنصّر، وتأمّنت قاعدة "مجتمع الدعوة" التي فيها ينطلق الإسلام ليستوعب بالدعوة تلك الشعوب الأمية الأخرى – غير الكتابية – التي قرر الله في سورة الجمعة التحاقها بالأميّين العرب:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ

---

[١] – الطبري ج٣ ص٤٩٩، ٥١٩،٢٠، ٥٨٨.

[٢] – المصدر نفسه ص٥٤٨، ٥١.

[٣] – من أقدم المصادر عـن المانويـة وأفضـلها: الفهرسـت ص٣٢٧ ومـايلي، الشهرستاني ص١٨٨ وما يلي اليعقـوبي ج١، ص١٨٠–٨٢، وراجـع بحثـاً حديثاً فيهم أورده وليمز جاكسون. A.V. Williams Jackson Researches in Monichoeism (New York. 1932).

[٤] – انظـر الطبـري ج١ ص٨٨٥–٦، ٧٩٩، الشهرسـتاني ص١٩٢ ومـا يلـي وراجع د. حتي ورفقـاه: تـاريخ العـرب ص٤٢٨. Browne, Vol, i. PP. 166.72

آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ الجمعة.

أما خارج جزيرة العرب فقد جعل الله العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة "تدافع":

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ الحج.

غير أن هذا التدافع يخضع لأشكال مختلفة تبعاً لمتغيّرات الزمان والمكان فهناك دفع بالتي هي أحسن:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ فصلت٣٤.

وهناك تدافع تستمر صراعاته لأنه بنيَّ على التناقض، كالتدافع

بين المسلمين واليهود[1]، وهذا ما قررته سورة الإسراء، وأوضحت بداياته سورة الحشر ففي الإسراء يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ ٤ ﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿ ٥ ﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿ ٦ ﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿ ٧ ﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ ﴿ ٨ ﴾ الإسراء.

قد فسرت هذه الآيات من قبل بالإشارة إلى ما مضى من تدافع بين بني إسرائيل ونبوخذ نصَّر الذي جاس خلال ديارهم وسباهم في فترة ما قبل الميلاد، غير أن التحديد القرآني لصفة من جاسوا خلال الديار الإسرائيلية بأنهم "عباد لنا" بما يعني انتساب أولئك إلى عقيدة التوحيد باعتبارهم يعبدون الله – فهم عباده – تنفي إلقاء الوصف على

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: الحاكمية، بيروت، دار الساقي ٢٠١٠، ط١، ص١٣٥.

قوم نبوخذ نصّر الوثنيين، ومن هنا يتجه البحث إلى مؤمنين، موحّدين، يعبدون الله الواحد الأحد، فهم الذين جاسوا خلال الديار، وليس في التاريخ من قوم مؤمنين جاسوا في ديار يقطنها الإسرائيليون قبل المسلمين.

ذلك من ناحية البحث التاريخي، أما من ناحية نصيّة فنجد القرآن يشير في مطلع سورة الحشر إلى تغلّب المسلمين في المدينة المنوّرة (يثرب) على قبائل من بني إسرائيل ومنهم بنو قَيْنُقَاع، الذين أجلوا عنها واتجهوا شمالاً صوب أذرعات وبنو قُرَيْظَه وكذلك بنو النضير.

كذلك كان أول حشر لبني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة من أرجاء يَثْرب (المدينة المنورة)، حيث جاس المسلمون في ديارهم "قاطعتم من لبنة أوتركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليجزي الفاسقين".

تلك مرحلة "وعد أولاهما" بادئه بالمسلمين الذين أجلوا اليهود، وقذفوا بهم إلى الأرض المقدسة لأول الحشر.

ثم تأتي مرحلة ثانية يتغلب فيها بنو إسرائيل على الذين أجلوهم لأول الحشر:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ الإسراء٦.

والمدد استعانة بما في الخارج، أموالاً أوبنين، وأكثر نفيراً تشير إلى التركيز واستخدام أقصى الطاقات والفعاليات، وهذه هي مواصفات ما

هو حادث بعد أربعة عشر قرناً من إجلائهم أرجاء المدينة[1].

هجرات، وهجرات، وهبات ومعونات، وتركّز عرفناه في حروب متتابعة، والموجات البشرية تتدفق من أرجاء الأرض مصداقاً للآية في سورة الإسراء، آية الوعد الثاني، فقد قال الله لبني إسرائيل من بعد خروجهم من مصر مع موسى أن يسكنوا الأرض المقدسة، ثم في فترة تالية سيأتي بهم لفيفاً إلى الأرض نفسها وبما تشير ضمناً إلى خروجهم منها:

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ الإسراء١٠٤.

قد جاء وعد القاهرة – الوعد الثاني – الذي يتضمن وعدين في آن واحد: وعد لبني إسرائيل بالعودة، ووعد للمؤمنين بالنصر عليهم:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ الإسراء٧.

ويتلخص السياق التاريخي التدافعي في الآتي[2]:

١. إجلاء لقبائل بني إسرائيل عن المدينة المنورة باتجاه الأرض المقدسة مقدمةً لحشرهم فيها إيذاناً بانتصار عباد الله المسلمين،

---

[1] – محمد أبو القاسم حاج حمد: الحاكمية ص١٣٦.

[2] – محمد أبو القاسم حاج حمد: الحاكمية ص١٣٧.

في كلتا الحالتين، ومن هنا تشير الكتابات المعاصرة قضايا خلافية عديدة تتناول – في ما تتناول – مصداقية الانتساب "الصهيوني" الراهن إلى العِرْق الإسرائيلي التاريخي ومدى نقائه، كما تثار قضايا حول نوعية وكيفية الروابط القائمة بين الكيان الصهيوني والقوى العالمية منذ نشوء عصرْ الاستعمار، وبغضّ النظر عن هذه الجوانب الخلافية وتأويلاتها تبقى الحقيقة حول "التدافع" قائمة.

خلاصة أساسية

إذن لايجتمع دينان في جزيرة العرب حيث "مجتمع الدعوة" و"قاعدة الانطلاق العالمي"، ثم يكون من بعد "التدافع" بأشكال مختلفة، ولكنه – أي هذا التدافع – يكتسب جانب (الصراع التناقضي) مع الإسرائيليين خاصة ولكن ليس مع غيرهم.

إن الصراع مع الكيان الصهيوني أمر لايمكن العرب الذات أن يلغوه أوينادروا عليه ولو أرادوا، وذلك لأسباب ترجع إلى طبيعة بني إسرائيل وموقفهم من الآخرين، فهم لايكتفون بنصب أنفسهم أوصياء على كلمات الله، بل يزيفون التوراة ويعمدون إلى تزييف الديانات الأخرى التي يتفضل الله بها على الناس:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا

بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٩١﴾ البقرة.

آفاق التعايش والتعاون
الإسلامي - المسيحي في حضارتنا

موضع الكتاب هو "العرب المسيحيون" لذلك كان من المفـــروض أن توسم أبحاثه بعناوين تدل على ذلك، ولكن بما أن الإسلام يلعب دوراً هاماً كبيراً فعالاً على أرض العروبة لذلك فأي بحث لايحسب حساب هذا العنصر يتحرك في فراغ وكأنني بالشاعر يردد:

يا صديقي أنا لولا أنـــت   مـــــا رددت لحنـــــــاً

كنت فـــي خلـــدي لمـــا   كنـــت وحـــدي أتغنـــى

وهل توجد الأرض مستقلة عـــن الجاذبيـــة، أم يضـــيء القمـــر بالاستقلال عن سطوع الشمس؟؟؟.

إذن فليس الإسلام في هذه مقحماً على طبـــائع الأشـــياء، وإنمـــا الأمور تركزت في مكانها وموقعها (الأرض وجاذبيتها) مجموعة الشمس وكواكبها.

والملاحظ أننا افتتحنا هذا العنوان بكلمة آفاق: لأننا وجدنا محيطاً (اوقيانوساً) واسعاً للبحث لاسيما أن كلمة لقاء تنطـــوي علـــى الجانـــب الفكري المحض إضافة إلى حوار الواقع الذي هو يـــومي يغلـــب عليـــه

الجانب العملي، وهكذا تتحدد مواضيع دراستنا في الآتي:

- معانقة التسمية وهل هي: المسيحيون العرب أم العرب المسيحيون.
- مبدأ وأساس اللقاء والتعايش.
- تجليات ومظاهر اللقاء.
- سياسة اللقاء والتعاون.
- دور العرب المسيحيون في إشادة الحضارة العربية الإسلامية.
- الأداة والصياغة والإطار لتجربة التعاون واللقاء.
- "مسألة عقد الذمة: طبيعته، ضماناته، مكانته.
- عرض تاريخي لمسار العلاقة الإسلامية المسيحية في دارنا العربية
- آفاق المستقبل.

معانقة التسمية المسيحيون العرب أم العرب المسيحيون -ومسألة أهل الأرض-

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء ٩٢،

فهذه الأمة الكريمة تقرر وتعلن عن وجود حقيقتين مطلقتين – وإن اختلفنا في الطبيعة والجوهر وليس في الدرجة، الأولى في علياء السماء "الله تعالى"، والثانية على الأرض "الأمة".

والحقيقة الثانية التي نعلنها وندل بها هي "إن الدين يساهم في تكوين الإنسان، والإنسان يضع العالم بعقله ووجدانه وإرادته[1].

والحديث الذي أجراه الرسول (ص) مع الصحابي معاذ بن جبل عندما أوفده قاضياً على اليمن، فقد سأل الرسول الكريم معاذ بماذا تقضي عندما لاتجد دليلاً له في القرآن أو السنة، فأجاب معاذ: أجتهد برأيي ولاآلو...

ولقد برزت هذه الظاهرة جلية واضحة في العصر الحديث واتسعت تلك الدائرة التي للإنسان في نطاق إرادته ووجدانه وضميره، حيث ظهر جلياً مفهوم سيادة الفرد المقترنة بمبدأ سيادة الجماعة "سيادة الأمة" المطلقة على آفاق واسعة من الحياة والحرية.

هذا البروز لمفهوم سيادة الأمة وسيادة الفرد لم يقتصر على النمو الشاقولي بل تعداه بالطبع إلى الصعيد الأفقي الذي يشمل كافة مكونات الأمة وتضاريسها ومكوناتها وعناصرها، وبالعكس فتضيق هذه الدائرة ليس معناه إلا اختزال إرادة الأمة والتغول عليها.

هذا ما أقوله عندما أريد أن أتناول أي حديث عن الطيف الدستوري "المواطنة" في الدائرة العربية، والتسمية (وهي مشتقة من سما وعلا) هي بناء فوقي يعلو البناء التحتي الذي هو وجود الإنسان

---

[1] - مقال وليم سليم قلادة موسوم بعنوان العلاقات الإسلامية – المسيحية في الواقع المصري، منشور في كتاب العلاقات الإسلامية المسيحية – قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق بيروت، ط١، ٩٩٤ ص٢٥٦.

أوالجماعة، إذن فمن حق الفرد أوالجماعة أن تطلق على نفسها ما تشاء وتختار مع الإشارة والتنويه إلى أن تسمية "نصارى واردة في القرآن الكريم، وهذا الاسم يلمح إلى الناصرة التي كان ينتمي إليها عيسى عليه السلام، كما يتضمن معنى العطاء والعون، وقد ورد في لسان العرب أن الناصرة قرية بالشام والنصارى منتسبون إليها، وورد أيضاً أن النصارى جمع "نصرى ونصران" من نصر بمعنى أعان وأعطى[١].

أساس ومبدأ التعايش

كل شيء في الوجود – حسب طبائع الأمور والنسب المركوزة في الشيء – يتألف من عنصر أساس يكون بمثابة الجوهرة الأساس، ثم عناصر ثانوية تنزل منزلة الشروط.

وهكذا أعلن لسان السماء بأن هنالك عنصراً يعتبر أساس وجوهر العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب، فهو البوصلة أوالموجه الذي يتحكم بمسار المجتمع الإسلامي وهنالك طرق ومناهج للوصول إلى الجوهر (الدين)...

وقد أوضح هذه الناحية تمام الإيضاح أبو حنيفة ذلك الفقيه المعهود المعروف وصاحب المدرسة الفقهية التاريخية المشهورة، وقد عرض تنظيره في مسألة وظيفة الإسلام في العالم وصلته بالشرائع الأخرى، وكان هذا العرض في كتابه العالم والمتعلم[٢].

---

[١] – د. النجاني: مسلمون ومسيحيون ص٩٥.

[٢] – العالم والمتعلم (نشره الكوثري)، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

وطبعاً فهذا الطرح للخطاب يؤكد النظام العام للثقافة الإسلامية ومرونتها وتسامحها وانفتاحها وقيامها على سياسة الأبواب المفتوحة تجاه الشعوب لاسيما أن هذه الثقافة قائمة على أساس أن المسلمين أمة تدعو إلى كافة الشعوب والأمم... ومن جهة أخرى يؤكد دور العرب في حمل هذه الرسالة بقلب مفتوح نبيل وروح متآخية محبة تتفق مع أحكام الدين الحنيف، وهكذا كان هذا اللقاء بين العرب الحاملين للإسلام، وبين دعوة أخرى سميت بديانة المحبة، ألا وهي المسيحية...

قال أبو حنيفة: "إن الله عزّ وجل إنما بعث رسوله رحمةً ليجمع به الفُرقة، وليزيد الإلفة، ولم يبعثه ليفرّق الكلمة ويحرّض الناس بعضهم على بعض..."[1]، فهذه الوظيفة التوحيدية للإسلام هي التي تعطي لكل أمر آخر معناه المنطقي وسط المنظومة الشاملة، منظومة الاستيعاب والوحدة والتوحيد، وكان طبيعياً بعد هذا أن يُزيل أبو حنيفة كل أسباب سوء الفهم فيما يتصل بعلاقة الإسلام بالشرائع الأخرى، يقول المذكور[2]: "...إن رسل الله لم يكونوا على أديان مختلفة، ولم يكن كلّ رسولٍ منهم يأمر قومه بترك دين الرسول الذي كان قبله لأن دينهم كان واحداً، وكان كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه، وينهى عن شريعة الذي قبله لأن شرائعهم كثيرة مختلفة، ولذلك قال الله تعالى[3]: "لكلٍ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً". ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً (أي في الشريعة)، وأوصاهم جميعاً بإقامة

---

[1] - العالم والمتعلم ص٩.

[2] - العالم والمتعلم ص١٠-١١.

[3] - العالم والمتعلم: ص١١.

الدين – وهو التوحيد – وأن لايتفرقوا لأنه جعل دينهم واحداً[1]:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. . . .﴾ الشورى ١٣.

فالدين لم يُبَدَّلْ ولم يُحَوَّلْ ولم يغَيَّرْ والشرائعُ قد غُيِّرَتْ وبُدِّلَتْ لأنه ربَّ شيءٍ قد كان حلالاً لأناسٍ قد حرمَه الله عزّ وجلّ على آخرين..."

هنا تأتي مهمة الإسلام التوحيدية لبني البشر والمؤمنين منهم على الخصوص، لقد رأى أبو حنيفة أن الدين واحد – هوالتوحيد – والشرائع مختلفة، فإن اتفق آخرون مع المسلمين في الأصل فإن اختلافات الشرائع جزئية وعلى الفقيه أن يفهم هذا المعنى الوحدوي في الإسلام المستوعب الذي يريد جمع الناس، وتوحيد المجتمع في الداخل من مبدأ الاعتراف باختلاف الشرائع أي إمكان وجود شريعة اجتماعية أخرى غير الشريعة الإسلامية لفئات اجتماعية تعيش مع المسلمين في مجتمع واحد.

بل إنّ أتباع الإمام أبي حنيفة – سيراً مع فلسفة إمامهم حول معنى الإسلام – مضوا قدماً في هذا السبيل فقالوا إنّ أهل الكتاب الذي

---

[1] – العالم والمتعلم: ص١١-١٢.

تحدث عنهم القرآن ليسوا النصارى واليهود فقط بل[1]: "كُلٌّ من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزل مثل التوراة وصحف ابراهيم وشيث وزبور داود...." هذا على الرغم من أن هناك آية في القرآن تُشعر بأن المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى فقط[2].

هذا ونشير إلى أن أبا حنيفة ليبرالي عقلاني حسب تصنيف الدكتور حنفي له، لكنه شتان بين ليبراليته وليبرالية هنتيغتون وغيره من الغربيين الملتصقين بحمأة الأرض وأدرانها.

مظاهر وتجليات التفاعل والتعايش

قلنا سابقاً إنه قد تتعدد دوائر التنوع في الأمة، فهنالك الوحدة، وهنالك التنوع الذي يزيد الوحدة مرونة وقوة.

ذلك أنه كثيراً ما يتعدد الانتماء الديني "العقائدي" في الأمة الواحدة بدون أن يمس التعدد وحدة الأمة.

وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تنظم العلاقة الاجتماعية بين المنتمين إلى أديان متعددة في الأمة الواحدة، وتوصي برعايتها[3].

---

[1] – الدر المختار ٣٧٠/٣، وتبين الحقائق ١١٠/٢، وفي منتهى الإرادات لابن النجار الحنبلي ٣٢٩/١، "ولاتُعقَدُ إلاّ لأهل الكتاب اليهود والنصارى، ومن يدين بالتوراة كالسامرة، أوالإنجيل، كالفرنج والصابئين، أومن له شبهة كتاب كالمجوس".

[2] – سورة الأنعام/١٥٦: "أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا".

[3] – د. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٩٨٦، ص٦٩.

فقوله تعالى: تعالوا إلى كلمة سواء، فهناك دعوة أهل الكتاب إلى الكلمة السواء، ما هو مشترك دون التخلي عن الذات وخصائصها.

فالقرآن الكريم يتحدث عن المسلمين وأهل الكتاب الذي ينتمـون إلى أمة واحدة أوشعب واحد، من أجل هذا نظم علاقات التعـايش فيمـا بينهم اجتماعياً مع أنهم مختلفون ديناً، إنهم ينتجون معاً ويستهلكون معـاً ويتزاورون ويستضيف بعضهم بعضاً، فقال:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ. . .﴾ المائدة٥.

وقد نشأ فيما بينهم أوشاج المودة، قيود المسلم لو تزوج من كتابيه تكون سنداً له، ويأتمنها على نفسه وماله وتربية أولاده، فأحل الزواج لها: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذ أتيتمـوهن أجـورهن، وأمر يحفظ أعراضهن إلى حد أن قرن بين الزنا بالكتابية وتعبير الكفـر حتى ولو كانت راضية، إذ أتم الآية بقوله[1].

هذا الاشتراك في الحضارة العربية الإسـلامية، أتـاح للأهـل المسيحيين التعبير عن كافة تجليات الحياة، يقول المطران جورج خضر: وأنا في قلب هذه الحضارة منذ بزوغها ورافقتها، وفي القرون الأخيـرة علمتها[2].

---

[1] – د. سيف الدولة: المرجع السابق ص٤٠.

[2] – المطران جورج خضر، بحث المسيحية العربية والعـرب كتـاب "المسـيحيون والعرب، ص٩٦ وانظر د. الدجاني: مسلمون ومسيحيون، ص٢٧.

لقد كانت مخالطة أهل الأديان المختلفة بعضهم بعضاً، وبخاصة المسلمون والنصارى واليهود قوية، وكانت بينهم صداقات جاء بعضها في أبيات من الشعر حفظها لنا الجاحظ في كتابه الحيوان، أمثلتها ما قاله: أبو الطحان الأسدي الذي كان نديما لناس من بني الحداء النصارى وفيها بنو الصلب وأعداء كل سميدع: له في العروق الصالحات عروق.

وإني وإن كانوا نصارى أحبهم: ويرتاح قلبي دونهم ويتوق.

ومن أمثلتها أيضاً ما قاله الفزارى في ناس خالطهم من اليهود مشيراً إلى اختلاف القصيد، الذي لم يمتع في إنصاف الآخر وإقامة علاقة طيبة معه:

وجدنا في اليهود رجال صدق: على ما كان من دين غريب.

لعمرك إنني وابني غريض: لمثل الماء خالطه الحليب.

ونسوق مثلاً على هذا التعاون حين قام القبط المصريون بالدور الأساسي في بناء الأسطول في بداية العصر الأموي، فبالإضافة إلى أولئك الذين عملوا في دار الصناعة بالإسكندرية وجه إلى مصر عبد العزيز بن مروان ثلاثة آلاف من عماله لصناعة السفن إلى تونس لإنشاء دار لهذه الصناعة كما ذهب عدد آخر إلى الشام حسبما نقل أبو سيف يوسف عن بتلر وغيره[1]، وترجم – في الأندلس – القس فنسيو القانون المقدس إلى العربية سنة ١٠٤٩م، وترجم المستعربون الأناجيل الأربعة إليها أيضاً.

---

[1] – أبو سيف يوسف: الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية.

وكان دورهم من العوامل الهامة في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى إسبانيا المسيحية، كما نشط اليهود في هذا النموذج الأندلسي، فعظم شأن جالياتهم التي استغلت بالتجارة، وكان منهم الفلاسفة والعلماء وأشهرهم موسى بن ميمون، وأقبلوا على ترجمة الكتب العربية إلى العبرية[1].

فالمشاركة والتفاعل امتدت إلى كافة قطاعات الحياة ولم تتقلص – كما سنرى – في جانب الحياة العقيدية خشية الإحراج والتجني كما سنرى ذلك مفصلاً.

سياسة اللقاء والتعاون

هذه السياسة هي البوصلة التي تحدد وتحرك الاتجاه العام للجماعة سعة وضيقاً ومرونة فقد امتازت هذه السياسة – بصورة عامة – بمرونتها وتمددها وسعتها في المجالات العامة، وتقلصها في شؤون العقيدة، على ما نرصده ونحدده في البحثين التاليين:

أ- على صعيد العقيدة

الإسلام والمسيحية شريعتان سماويتان إيمانيتان تتضمنان نظاماً واحداً[2]، أويكاد يكون واحداً، في المعايير والقيم الأساسية التي لاتريان

---

[1] – لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩، وانظر د. الدجاني: مسلمون ومسيحيون ص٤٤.

[2] – العلاقة محمد حسين فضل، مقاله السالف الذكر، العلاقات الإسلامية المسيحية ص١٢.

الغيب والإنسان والعالم والحياة وعلاقات البشر إلا من خلالها... إنه نظام ذو مصدر إلهي يؤمن المسلمون والمسيحيون بأنه نظام كامل لايمكن إلا أن يكون الأمثل والأعدل، ودورهم ومسؤوليتهم أن يجسدوه في كل واقع.

فبنيان عقيدتين على هذا الثابت يجعلهما محكـومتين موضـوعياً وذاتياً بالقابلية لابتداع آليات توطيد أواصر التفاعل والتكامل بينهما بمـا هما "المسيحية الخالصة والإسلام الخالص"، بتعبير بعض النصوص، وما دراسة علاقاتهما سوى سبيل لإعادة إحياء وتحريك المشتركات التأسيسية الموجودة في أصل مشروعهما الإلهي، وهي تبدأ من مسـألة الإنسـان ورسالته في هذا العالم[1].

ولا شك أن الكلام على العلاقات الإسلامية – المسيحية، لايصدر عن فراغ فهذه العلاقات موجودة على الأرض، وفي نسـيج مجتمعاتنـا وخلاياها، وهي متغلغلة في تفاصيل الحياة والمعـاملات، ولهـا تـاريخ وتراث عريقان، وتنطلق من نصوص فقه وعقائد ومنظومـات فكريـة وتجارب وفاق وتراضٍ، كما من خيرات تصادم واختلاف... ووراءهـا مرجعيات ومؤسسات دينية تدير رحى حركتها الصراعية أوالوفاقية بكل إمداد فكري أوكلامي أواجتهادي مُتاح[2].

وثمة إيديولوجية كاملة للعلاقات الإسلامية المسيحية مشدودة إلى شبكة فكر مؤسسي دينامي وذاكرة شعبية متأصلة، لكن ملامحها المشهدية مبعثرة أومدفونة تحتاج إلى استخراج وتجميع شـظاياها وإعـادة رسـم

---

[1] – المرجع السابق ص١٢.

[2] – مقال العلامة محمد حسين فضل الله ص١٣.

صورتها وتحديد أبعاد ظلالها ورصد اتجاهاتها ومنظوماتها الفكرية التي حكمت العلاقات الإسلامية المسيحية وتحكمها، ومهمة كهذه لن تتيسر إلا من خلال القيام "بحفريات" بحثية متخصصة في تلك العلاقات والمنظومات والاتجاهات، تقرأ ظاهرها وباطنها وتستجلي ملامحها وتستدرها وتقارن بين دافعها وتصوراتها وفهمها له، ربطاً بأصولها أوتأسيساً لأصول جديدة، فنحن أمام فكر يقابل فكراً، حتى وهو يتقاطع معه في كثير من الهموم، أويشاركه في العديد من التصورات، أويجانسه في الكثير من الأصول والمنطلقات[1].

ومن جهة أخرى فإذا حقّ لنا الكلام على وجود "مشكلة" في العلاقات الإسلامية – المسيحية، فهذه "المشكلة" بما تختزنه من تعقيدات وتراكمات تحتاج إلى تحديد وتوصيف علميين بهدف تشخيصها وطرح الحلول والرؤى الترشيدية الممكنة لها، انطلاقاً من إدراكنا طبيعة الأخطار المترتبة على استمرارها حاضراً ومستقبلاً، واستناداً إلى إيماننا بضرورة تحريك عوامل التقارب وسبل وآليات التكامل بين المسيحيين والمسلمين مادام لدى الطرفين إيمان يقيني مشترك بمشروعهما الإلهي للإنسان والعالم، في وجه مشروع حضاري واحد، وبعدما تأكد الفريقان أن التعايش الوطني والإنساني قدر محتوم لافكاك منه.

والملاحظ أن ما خُصَّت به العلاقة الإسلامية – المسيحية من اهتمام علمي أومتابعة من أيّ نوع، لايزال عند هذا الطرف أوذاك بلا أفق واضح المعالم، إنه أقرب إلى حالة المخاض العسير المشفوع عند

---

[1] – المرجع السابق ص١٣.

هذا الطرف أوذاك "بنوبات طلق" متباعدة تفرضها أوتهيئ لها ظـروف معينة، لكنها سرعان ماتهدأ أوتخمد أوتتجسد بزوال تلك الظروف، وهذا مايفسر جانباً من ظاهرة تدفق الاهتمام بتلك العلاقات في فترة وطيّه في فترة أخرى[1].

وفي ضوء ذلك كان من الضروري أن يبادر المؤمنون الواعون الذين يملكون قوة العقل، ومسؤولية الإيمان، ورسالية الدين، وموضوعية الحجة، وعمق البرهان، إلى إعادة النظر في طريقـة إثـارة الإحسـاس الديني في وجدان المؤمن، وفي تقديم المفردات العقيدية الدينيـة، حتـى يمكن للتربية الحكيمة في الشكل والمضمون، والجّو والأسلوب، أن تمنح الواقع الديني المتعدد نوعاً من التوازن والموضـوعية بحيـث يتحـوّل الحوار بين هذا الفريق وذاك إلى حركة بحث عن الحقيقة وإعادة النظـر في الأفكار العقيدية على أساس الاستماع إلى وجهة نظر الآخر الذي قد يكون له بعض الحق في قناعات فكره، لاسيما أنّ المناهج الأخلاقية فـي روحية الحوار تؤكد الموضوعية العقلانية في أعلى درجاتها في الجـدال بالتي هي أحسن أوقول التي هي أحسن، أوالدفع بـالتي هـي أحسـن، أوالإيحاء للآخر بأنه يقف من الفكرة موقف الشك ليجتذبه إلى شك مماثل يحولّه إلى إنسان منفتح على مناقشة الفكرة بطريقة محايـدة ومتوازنـة أوالحديث عن المحبة التي تجعل الإنسان يبارك أعداءه ويعفو عمّن أساء إليه..

إن مثل هذه المفاهيم التي تحفل بها القيم الإسلامية والمسحية في

---

[1] – مقال العلامة محمد فضل الله ص١٧.

الذهنية الحوارية والأسلوب الحواري، يمكن أن تقوّي هذا المنهج العقلاني الذي يدخل في عمق الشخصية الإسلامية أوالمسيحية بحيث ينطلق الإنسان المحاور بطريقة عفوية في الانفتاح على الآخر واللقاء به.

وقد يكون من الضروري في هذا الاتجاه أن ينشأ في الدائرة الثقافية الإسلامية أوالمسيحية برنامج علمي فكري للدراسات المشتركة التي تمنح كل فريق معرفة أصول فكر الفريق الآخر وفروعه، وذلك من خلال المصادر التي يرتضيها، حتى يحتفظ للفكرة بنقائها وبأصالتها في الجانب الآخر، وقد لايكفي – في ذلك كله – التوقف عند اللاهوت في ما يختلف فيه المسلمون والمسيحيون في وعيهم الإيماني في المسألة العقيدية الفكرية، بل لابد من امتداد ذلك إلى المفاهيم العامة المتصلة بالنظرة القيمية للحياة، والإنسان والسلوك الأخلاقي في واقع الحركة الإنسانية، لأن ذلك يتصل بالمسألة التصورية في الأقوال والأفعال والعلاقات والأوضاع المتنوعة في المجالات الإنسانية كافة، مما يجعل الإنسان المسيحي واعياً للخلفيات المفهومية التي تكمن وراء تصرفات الإنسان المسلم في أوضاعه وعلاقاته العامة والخاصة، كما يجعل الإنسان المسلم منفتحاً على الإنسان المسيحي مدركاً همومه وظروفه وآماله وتطلعاته.

وهناك ناحية أخرى، وهي مسألة لقاء الفكر بالفكر، والدين بالدين، في نقاط الوفاق وإدارة المسألة الحوارية في نقاط الخلاف، على أساس إيجاد الجو الإيجابي الذي يخفف من ضغط الانفعالات القاسية والتوترات اللاهبة، ويوصي بالمزيد من التلاقي والتعاون، أو بالانفتاح الروحي على الآخر على أساس الأرض المشتركة، أوالكلمة السواء.

وهذا هو ما عالجه القرآن الكريم في حديثه مع أهل الكتاب:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾آل عمران٦٤.

فالقضية المطروحة هي اللقاء على الكلمة السواء في العنوان العام للمبدأ من دون الدخول في التفاصيل التي قد تكون مثاراً للخلاف، وهي توحيد الله في العبادة، ورفض الشرك في الله، وتوحيد الإنسان في علاقته بالإنسان من دون استعلاء على طريقة استعلاء الرب على عباده... ليكون التعاون في المسألة الإلهية وفي المسألة الإنسانية شاملاً لكل مجالات الحياة باعتبار أن الوجود في حركته الواعية إله وإنسان، في علاقة الإنسان بالله وفي علاقته بالإنسان الآخر حيث تختصر هاتان النقطتان الحياة كلها....

وهكذا نجد في الآية الكريمة الأخرى عمق المحبة في روحية اللقاء في قوله تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾المائدة٨٢

فإننا نلاحظ أنه اعتبر الأساس في أقربية المودة هو الروحية التي يملكها القسيسون والرهبان، والتواضع المرتكز على أخلاقية المحبة في النصرانية بحيث ينطلقون من خلالها للانفتاح على الآخر في دعوته ورسالته، إذا كانت تلتقي معهم في ميزان القيم الروحية المشتركة، الأمر

الذي يمثل الخط العريض الذي يوحي به القرآن إلى المسلم في اللقاء من موقع المودة مع النصراني[1].

وإذا كان النصراني الذي عاش في عهد النبي محمد (ص) يختلف في بعض مفاهيمه المطروحة، وهي الروحية التي يوحي بها القرآن لأتباعه على أساس القيمة الروحية الأخلاقية في تعاليم النصرانية، وفي السلوك العملي المنفتح على الله للقس والرهبان.

والقرآن الكريم يؤكد الجدال بالتي هي أحسن مع أهل الكتاب، فالمعنى الكامل يوحي بالانفتاح الإسلامي في المسألة المسيحية، لاسيما أن المسلمين يطرحون أنفسهم كمؤمنين بما أنزل الله إلى أهل الكتاب بالإضافة إلى الإيمان بما أنزل عليهم من القرآن، وبوحدانية الله التي تمثل القاسم المشترك، ليختزنوا في داخل وجدانهم الإيمان بالكتاب كله[2].

وهنالك ملاحظة أساسية وهي أن العقيدة وهي ضمير جمعي أووجدان عام تختزن تصورات ورؤى وأحلام وردود فعل ونظرة إلى الكون والحياة، وهذه العقيدة مرشد من خلاله يرى الإنسان تصور الكون، وهذه العقيدة تقوم على مكانة وجدانية روحية إيمانية ولذلك فهي لاتناقش، وقد صور لنا بيير هذا الخيال العام فقال:

إيماناً بهذه الطبيعة والبطانة الروحية للعقيدة، فالرسول لم يناقش المسيحيين بعقيدتهم في حادثة "المباهلة" بل قال نترك الأمر لله تعالى مبتهلين إليه وتيمناً بهذه الآداب الرفيعة للرسول فعلاقتنا (المسلمون) مع

---

[1] – مقال العلامة محمد حسين فضل الله، ص٣٧.

[2] – مقال العلامة محمد حسين فضل الله، المقال السالف الذكر، ص٣٧.

الأخوة المسيحيين محكومة بإحالة أمور العقيدة لله تعالى بنظرتها حسب مشيئته، إلا أننا من جهة أخرى - محكو من جهة أخرى بالمبدأ العام ألا وهو الانفتاح على المسيحي وخاصة في شؤون المعاملات والأخلاق... ومن جماع كل ما تقدم تكون العلاقات الإسلامية المسيحية تصوغ المبادئ القيمية الآتية:

* الإقرار بواقع الاختلاف، والحق بالاختلاف في بعض اللاهوت والعقائد.

* التركيز على إبراز نقاط التلاقي في العقيدة والأخلاق، فما يجمّع أكثر بكثير مما يفرّق، وما يفرّق لايحول دون التكامل والتماسك والتفاعل و"تأييد" العيش المشترك.

* التمسك بخصوصيات التعايش الحضاري وإيجابيات تفاعل الفكر والعيش في إطار من الحرية والمساواة.

* قناعة بدولة الإنسان القائمة على نظام قيام الله، وعلى وحدة الهوية الحضارية والمصير المشترك.

* دفع النقاش باتجاه قيام فكر علائقي متطور وديناميي يتأسس في العلاقات الإسلامية المسيحية تأسيساً جديداً فتخصب وتغني وتبني سلاماً وتفاهماً مستتبين من غير إكراه أوتسلط أوتذويب[1].

وحقيقة الأمر، لقد أغفلنا ذكر الفروقات العقائدية والإمساك بها لسببين:

---

[1] - مقال العلامة فضل الله ص٢٤.

أولاهما: أننا ندعو إلى التأصيل والتلاقي والعيش المشترك.

ثانيهما : أن بحث الفروقات أدخل في اهتمام مؤرخي الأديان.

ولكن الباحث الذي يحرص على تدعيم فكرة التعايش النابعة أيضاً من طبيعة الأديان يتجاوز في بحثه تلك الفروق، إلا عند الضرورة، لأن طبيعة بحثه تقتضي التركيز على نقاط الالتقاء النابعة من جوهر الدين – أي دين – ومن مضامينه الأصلية، لأن الأديان كلها تحضّ على الخير وعلى التعايش بين الناس، والتعايش دون كراهية أوبغضاء جزء من هذا الخير، أما نظرة الإسلام، وبالتالي نظرة المسلمين إلى التعايش، فإنها تنبع من روح القرآن ومن نصوصه، لأن الدين في نظر القرآن هو واحد منذ برأ الله الخليقة فهو يتنزل من عند الله عبر الأنبياء وعبر الكتب والصحف والزبر في تكامل، وأطلق عليه القرآن اسم "الإسلام":

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ. . . . ﴾آل عمران١٩ .

وإذا أخذت كلمة الإسلام بمعناها القرآني فهي لم تدع مجالاً للتساؤل عن العلاقة بين الإسلام وسائر الأديان السماوية، "فالإسلامُ في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص... إنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء"[1]، وهذا المعنى يتكرر في القرآن، هذا ما قاله نوح لقومه:

﴿ . . . . وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يونس٧٢ .

---

[1] – د. عطية: المسلمون والنصارى، ص ٥٣.

وهذا ما وصّى به يعقوب بنيه:

﴿ ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ البقرة١٣٢ .

وهو جواب أبناء يعقوب لأبيهم:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة١٣٣ .

ومثله قول موسى لقومه:

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ يونس٨٤ .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران٥٢ .

ومن هذا المنطق يكون الدين الإسلامي هو الدين الذي يضمن المواصلة بين الأديان في إطار من التكامل المكلل بهالات من التقدير، وبالتالي يفرض على معتنقيه أن يحسنوا التعامل مع أبناء الأديان الأخرى، ليعيشوا جميعاً في أمن وأمان، على الرغم من وجود قضايا خلافية أساسية يحتفظ كل منهم بما يعتقده فيها:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الممتحنة٨ .

وواجب المسلم أن يبر غير المسلم، وأن يكون عادلاً في تعامله معه، ولا يستثنى من ذلك إلا حالة عدوان غير المسلم عليه بالقتال أوبالإخراج من الديار.

إن القضايا الخلافية الأساسية في المعتقدات بين الإسلام والمسيحية محدودة ومعروفة وتوضع في إطارها من خلال احترام أبناء الدينين لبعضهم بعضاً في ما يعتقدون، إلا أن هناك قضايا اعتقادية مشتركة كثيرة جداً، وهي من صميم الدينين، وكشفها وتقديمها يساعدان كثيراً على التقارب وعلى العيش المشترك، ذلك أن الدينين الإسلامي والمسيحي ينبعان من معين واحد مصدره الوحي الإلهي، ويهدفان إلى تحقيق غاية واحدة هي تكريم هذا الإنسان المستخلف في الأرض ليعمرها، ولتمكينه من أداء رسالته في أمان وحرية.

إن جميع المعتقدات التي جاء بها الدينان عطاء من الله سبحانه عن طريق الوحي الإلهي الذي تنزّل على رسل الله وأنبيائه، وبالتالي فإن نظرة الدينين إلى مسيرة التاريخ الإنساني تتم في إطار هذا الوحي، كما أن المستقبل يُفترض أن يُرصد ضمن الإطار كذلك، هذا المستقبل الذي يستمر حتى يوم الحساب، يوم يرث الله الأرض وما عليها، حيث تعاد موازين التاريخ إلى وضعها الطبيعي، بحسب علم الله المحيط، وبحسب

عدله الشامل، وبحسب رحمته التي وسعت كل شيء[1].

إن التركيز على نقاط الالتقاء بين المسيحية والإسلام غرضه إيجاد جو جديد من التفاهم والتآلف، يقوم على التخلص من المفاهيم الخاطئة السائدة، كسوء الفهم وانعدام الثقة والأحكام المسبقة غير المبيّنة علي أساس سليم، وهي أمور كانت في كثير من الأحيان تساعد على تزييف الحقائق وعلى مباعدة أبناء الدينين عن بعضهم بعضاً..

إن جلاء نقاط الالتقاء يساعد على فهم كل من الفئتين فهماً صحيحاً لبعضهما بعيداً عن العقد السابقة، ومن ثم يساعد على التعاون للوقوف في وجه التيارات الجامحة من الإلحاد والفساد وطغيان المادة.

وإذا عدنا إلى روح الدينين وإلى منبعهما الإلهي وإلى ما يبشّران به من قيم، لم نستغرب ضرورة مثل هذا اللقاء وبخاصة في مثل ظروفنا المعاصرة، لأن مبادئ الدينين تقوم على الغفران والرحمة والمحبة والتعاطف والتسامح بين الخلق جميعاً، وفي ذلك كسب كبير للإنسانية التي بدأت تفقد روحها وطبيعتها.

وإذا حرص كل إنسان على الوقوف دائماً عند الجوهر، وعلى أخذه بعين الاعتبار لدى بحثه عن الأسس الاعتقادية المشتركة، سهل عليه رسم حدود هذه الأسس وتوضيح معالمها، هذا مع ضرورة الحرص دائماً على تجنب الخوض في القضايا الخلافية الأساسية التي لامجال للتوفيق بصددها، والتي يجب عل كل طرف أن يحترم الطرف الآخر فيما يعتقده حولها.

---

[1] - د. عطية: المسلمون والنصارى، ص٥٤.

يشترك الإسلام والمسيحية في الاعتقاد بوجود الله – ومع الاحتراز بينهما على حول طبيعته – فهم جميعاً يعتقدون أنه الإله الواحد المنزّه الأزلي خالق الكون، وأن الإنسان خليفته في الأرض والمنفذ لإرادته فيها، وتحقيق الإنسان لهذه الإرادة يتجلى بالالتزام بتنفيذ أوامره ونواهيه، لأن فيها سعادته في الدنيا والآخرة، كما أن العبادات والأعمال مقصدها واحد عند المسلمين والمسيحيين، إذ يحرص كلا الفريقين على عبادة الله مقرين باللسان ومصدقين بالقلب، ومخلصين بالعمل[1].

إن وحدانية الله عند المسلمين بديهية لايتحقق إسلام المرء إلا بها، وقد أثبتتها النصوص الكثيرة في القرآن دونما أي لبس:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ﴿٤﴾ الإخلاص.

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الزمر٤.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ

---

[1] – د. عطية: المسلمون والنصارى، ص٥٥.

كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾ البقرة٢٥٥ .

والمسيحية تعلن أن الله واحد، مع الاحتراز بأن تصور الألوهية ليس واحداً في الإسلام والمسيحية[1]، ولكنه يعني وبشكل حازم بوجود الله وتوحيده مهما تنوعت أشكال التصور حوله، يقول السيد المسيح عندما سأله أحد الكتبة عن الوصايا: "اسمع يا إسرائيل، إن الرب إلهنا رب واحد، فأحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك وكل قدرتك/مرقس/١٢/٣٠، و"لأن الرب واحد، والوسيط بين الله والناس واحد، وهو الإنسان يسوع المسيح/رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموناوس٢/٥".

وكانت وثائق المسيحيين وكتابات كبار مفكريهم حريصة دائماً على التأكد على معنى التوحيد، فقد جاء في توصيات المجمع المسكوني الفاتيكاني الأول النص التالي: "إن الكنيسة تؤمن وتعلم بأن الله واحد، وهو الحق الحي خالق السماء والأرض وربهما على السواء، إنه القدير السرمدي الذي لاحد له، ولايحيط به غيره علماً، وليس أي حد لعقله ومشيئته وكماله، وبما أنه جوهر روحي واحد في طبيعته لايتركب ولايتغير أبداً، يجب على الجميع أن يقولوا إنه يتباين عن مخلوقاته في الواقع وبذاته، إذ إنه رضوانه في ذاته وبذاته لأنه متعال عن كل ما هو

---

[1] - د. عطية: المسلمون والنصارى، ص٥٦.

سواه مما هو موجود في الدنيا وممكن الوجود"[1].

وكتابات المفكرين المسيحيين ورجال الدين لديهم تؤكد معنى وحدانية الله، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء به الكاردينال أنزيكي حين قال: "شهادة عيسى المسيحية تنطلق من الإيمان بوحدة الله – آمنا بالله وحده – وهذا ما نعلنه بكل قوة مع إخواننا المسلمين، وكأتباع المسيح نؤمن بالله الأحد المنزه، خالق السماء والأرض المثيب الرحيم الغفار... وباستطاعتنا تبني كل أسماء الله الحسنى التي يطلقها المسلمون على الله الواحد إله إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى ومحمد والمسلمين"[2]، والإيمان بوحدانية الله تُبنى عليه قضايا إيمانية كثيرة، منها محبة الله، ومحبة الله عند المسلمين جزء من إيمانهم:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آل عمران٣١.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ البقرة١٦٥.

---

[1] – الأسس المشتركة بين الديانتين في المعتقدات ومواطن الالتقاء في ميادين الحياة، بحوث ووثائق ندوة الحوار الإسلامي المسيحي ص٣١٩.

[2] – عيسى ومحمد في المسيحية والإسلام ص٥.

وعند المسيحيين هي كذلك: "أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك، وكل قدرتك/مرقس١٣/٣٠".

ومنها الإيمان باليوم الآخر وبالحساب والعقاب، وبالجنة وبالنار وبالخلود في الآخرة، هذه الأمور من قضايا العقيدة المعتبرة لدى المسلمين:

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ الغاشية.

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ يونس٤.

﴿ ... أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ الأعراف٤٢، هود٢٣.

﴿ ... أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يونس٢٧، الرعد٥.

وهذه القضايا نفسها هي من أمور العقيدة المعتبرة لدى المسيحية أيضاً: "لأنهم في القيامة لايزوجون ولايتزوجون/متى٢٢-٢٩"، و"الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بي فله الحياة الأبدية/يوحنا٦-٤٧"، و"فتخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة/يوحنا٥-٢٩"، و"فخير لك أن تدخل الجنة وأنت أعرج من أن

يكون لك رجلان وتلقى في جهنم/مرقس١٠-١-٤٢"، و"وهذه الشهادة أن الله أعطانا الحياة الأبدية/رسالة القديس يوحنا الأولى٥-١١"[1].

ولقد أكد يوحنا بولس الثاني القيم المشتركة بين الإسلام والمسيحية حين تكلم في جموع من الشباب المسلم في الدار البيضاء بالمغرب يوم ١٩ آب (أغسطس) ١٩٨٥ وقال: "إننا مسيحيين ومسلمين، نشترك في أمور شتى، بكوننا مؤمنين وبشراً، ونعيش في عالم واحد مُتّسم بعلامات عديدة تدعو للرجاء والأمل، ولكنه مُتّسِم أيضاً بعلامات متعددة تدعو إلى القلق، إن سيدنا إبراهيم أسوة واحد لنا في الإيمان بالله، والخضوع لمشيئته والثقة بجوده، وإننا بنفس الإله، الله الأحد، الله الحي، الله خالق العالمين، الذي يسير بكائناته إلى الكمال"[2].

إن استعراض النقاط المشتركة في العقائد بين الإسلام والنصرانية سيكون عاملاً في التقريب والتقارب، وإذا أضيف إلى ذلك من جانب المسلمين أنهم يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل، وبما جاءوا به من دعوة الإيمان، وبالكتب التي أنزلت عليهم، فإن ذلك يعد ميزة تمهد للقاء الإسلام مع الأديان السابقة دون تصادم.

ب- في مجال الأخلاق والسلوك

ذكرنا سابقاً أنه قد يوجد بعض التعارض على مستوى العقيدة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، والأمر على خلافه بالنسبة للسلوك

---

[1] - د. عطية: المسلمون والنصارى ص٥٨.

[2] - وسائل عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، ص١٨٧.

والأخلاق، فكلا الديانتين تحض على قواعد واحدة على مستوى السلوك والقيم الأخلاقية، وعلى ضوء ذلك يمكننا أن ننطلق إلى القيم الروحية والأخلاقية في المسيحية والإسلام لندرسها في طبيعتها المفهومية، وفي حدودها العملية، وفي إيحاءاتها الاجتماعية، لنتفق على نظام أخلاقي مستمد من الدينين معاً في ما جاء به القرآن والإنجيل، الأمر الذي يجعلنا نشترك في التعليم الديني الأخلاقي في نطاق برنامج موحد في ما نتفق عليه في الرأي والاجتهاد وفي المفاهيم الروحية والأخلاقية المشتركة، أما في ما نختلف فيه في الحدود الواقعية، وفي الإيحاءات الروحية، فيمكن أن نتابع الحوار فيه، وفي الاجتهاد في وعي النص كوسيلة مثلى في الوعي العميق للمضمون، انطلاقاً من الفكرة الاجتهادية التي ألمحنا إليها، وهي أن بإمكان العالم المسلم أن يستنطق نص الإنجيل في حركة اجتهاد، كما يمكن للعالم المسيحي أن يستنطق القرآن بالطريقة نفسها، إذا كانا يملكان الثقافة المشتركة قراءة أودراسة[1].

والدخول في التفاصيل الدقيقة في القضايا الأخلاقية قد يمنحنا الفرصة في موقع القمة والقاعدة للوصول إلى قناعة وجدانية بالواقعية الرسالية في السلوك الإسلامي المسيحي، لأن الحديث المتكرر في العناوين العامة يضع المسألة في نطاق العموميات التي لاتصنع وعياً عملياً في الوجدان الواقعي للإنسان من هنا، وللإنسان هناك[2].

يقول السيد المسيح في إنجيل متى: "ليس كل من يقول لي: يارب

---

[1] – العلامة محمد حسين فضل الله: المقال السالف الذكر، ص٣٨.

[2] – المرجع السابق ص٣٨٣.

يارب! يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يعمل إرادة أبـي الـذي فـي السماوات!" (متى ٢١:٧)، ويقول القديس يعقوب في رسالته: "إن الديانة الطاهرة الزكية في نظر الله الأب هي افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقهم، وصيانة النفس من دنس العالم" (٢٧/١)، ويضيف: "إن الإيمان إن خـلا من الأعمال، ميت في ذاته" (٢:٧).

وفي المعنى ذاته يقول القرآن:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ البقرة١٧٧.

فالصلاة والزكاة والصوم أمور مشتركة في المسيحية والإسـلام، وإن اختلفت طرق تطبيقها، ولكن جوهرها واحد، وهـو الاتحـاد بـالله والتجرد عن اللذات الأنانية وعن الطمع، وعن الشهوة المضرة في سبيل مساعدة الفقراء المحتاجين، ويورد إنجيل متى في الفصل السادس أقوالاً أساسية للسيد المسيح في الصلاة والزكاة والصوم، وكذلك نجد في أخلاق الديانتين أموراً كثيرة مشتركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر، ولاتزال وصايا الله العشر التي وردت على لسان موسى النبي في العهد القديم موجز الأخلاق المسيحية والإسلامية فـي علاقـة المـؤمن بـالله

وعلاقته بقريبه، ونجد في تضاعيف القرآن وصايا كثيرة مشابهة للوصايا العشر، وأي مسلم لايقبل بما يقبله المسيحي من تلك الوصايا؟!![1].

١. أنا هو الرب إلهك لايكن لك إله غيري.
٢. لاتحلف باسم الله بالباطل.
٣. احفظ يوم الرب.
٤. أكرم أباك وأمك.
٥. لاتقتل.
٦. لاتزن.
٧. لاتسرق.
٨. لاتشهد بالزور.
٩. لاتشته امرأة قريبك.
١٠. لاتشته مقتنى غيرك.

والسيد المسيح لم يلغ تلك الوصايا، فقد قال: "لاتظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أوالأنبياء، إنني ما جئت لأنقض بل لأكمل"، وكمال الناموس هو المحبة، فكل تلك الوصايا يطلب السيد المسيح أن يتممها المؤمن، لاعن كره بل عن محبة معتبراً الله أباه وجميع الناس إخوته: "فإنكم إن أحببتم من يحبكم فأي أجر لكم؟ أليس العشارون أنفسهم يفعلون ذلك؟ وإن لم تسلموا إلا على إخوانكم فقط، فأي عمل خارق يصنعون؟ أوليس الوثنيون أنفسهم يفعلون ذلك؟ فأنتم إذاً كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل" (متى ٥/٤٦/٤٨).

---

[1] – المطران كيرلس سليم بسترس: العلاقات الإسلامية المسيحية، ج ص٢٣.

خلاصة القول: إن المسيحية والإسلام يجتمعان على أهم الأمور الدينية على صعيدي العقيدة والأخلاق، فإذا كان الإسلام يرى في الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج أركانه الخمسة، فالمسيحية تقبل أركان الإسلام والإيمان: فالشهادة هي الاعتراف بوحدانية الله، والصلاة والزكاة والصوم هي من الأمور المفروضة على المسيحيين، والحج إلى الأماكن المقدسة من التقاليد العربية لديهم، والأركان الخمسة ليست أموراً جديدة بالنسبة إلى جوهر الدين المسيحي، وإذا كان الإسلام يرى أركان الإيمان في ستة: الإيمان بالله والملائكة والكتب المنزلة والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر، فالمسيحية تتضمن هذه الأركان الستة في جوهر تعاليمها، وإذا كان المسلمون هم "خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"، فالمسيحيون هم أيضاً حسب قول بطرس الرسول: "جيل مختار، كهنوت ملوكي، أمة مقدسة، وشعب مقتنى، ليشهدوا بحمد الذي دعاهم في الظلمة إلى نوره العجيب" (إ.بطرس ٩/٢)[١].

وهم أيضاً بشهادة القرآن عينه يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كما ورد في سورة آل عمران:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ

---

[١] - المطران: بسترس المقال السالف الذكر، ص٢٣٧.

الصَّالِحِينَ ﴿ ١١٤ ﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ ١١٥ ﴾آل عمران.

هناك حديث شريف يقول: "ليس كل مؤمن بمسلم، ولاكل مسلم بمؤمن"، فالإيمان الحقيقي يمكن أن يوجد في الإسلام والمسيحية على السواء عند الذين يتقون الله ويعملون الصالحات، وهذا هو الجواب العملي على تساؤل أبي العلاء المعري عن صحة الدين، والله وحده عليم بخفايا القلوب، وهو وحده عليم بالمتقين، فحريّ بالمؤمنين الصالحين في كلتا الديانتين المسيحية والإسلام، أن يتعاونوا على البر وعلى عمل الصلاح لتمجيد اسم الله القدوس وبناء مجتمع يسوده السلام والعدالة في التآخي بين جميع أبناء الله[1].

والخلاصة فالدينان يدعوان إلى حياة تتسم بالفضيلة، وتتجلى بكل أوجه الخير، وإن خطبة الجبل الواردة في إنجيل متى، على سبيل المثال، تمثل نموذجاً رائعاً للتوجه السلوكي الأخلاقي في المسيحية، وتتطابق في معظم ما جاء فيها مع التوجهات السلوكية الأخلاقية في الإسلام[2]، والقيم المشتركة بين الدينين، والتي تتدرج في مظاهر التعامل والسلوك يمكن رصدها في زمرتين هما زمرة قيم الأمر بالمعروف وزمرة قيم النهي عن المنكر.

---

[1] – مقال المطران بسترس، ص٢٣٨.

[2] – د. عطية: المسلمون والنصارى، ص٥٩.

الأمر بالمعروف:

ففي الأمر بالمعروف نجد أن الدينين يدعوان دائماً إلى صفاء النفس ونقاء القلب، إذ كل ما عدا ذلك هباء لايساوي شيئاً عند الله.

ففي الإسلام:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ﴿٨٩﴾ الشعراء.

وفي المسيحية:

"طوبى للأنقياء القلوب، فإنهم يعاينون الله/متى٥-٨"، ونقاء القلب وصفاء النفس على جلاء دائماً، ولايمكن أن يمازجهما أيّ لون من ألوان الرياء أوالنفاق، لأن الرياء والنفاق بعيدان عن الصدق، ويستبطنان الخداع، وهي صفات لايحبها الله ولايتصف بها المؤمنون، فالنصارى يرفضون جميع أنواع النفاق، والسيد المسيح أوصاهم بقوله: "فإذا صنعت صدقة فلا تهتف قدامك بالبوق كما يفعل المراءون في المجامع والأزقة لكي يمجدهم الناس/متى٦-٢"، كما أوصاهم أيضاً: "وإذا صُمتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين فإنهم يُكرّون وجوهم ليظهروا للناس صائمين/متى ٦/١٦".

والمسلمون يتلاقون مع النصارى في شجب الرياء والنفاق، وقد شدّد الإسلام النكير على المرائين والمنافقين لأنهم يفقدون صفاء النيات، وتخالف أعمالهم نياتهم:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ

هُمْ يُرَاؤُونَ ﴿٦﴾ الماعون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة٢٦٤.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ الأنفال٤٧.

وعقيدة الحب هي أروع ما في المسيحية من قيم جميلة كثيرة، وتسمح بأن تنعت المسيحية بأنها دين المحبة، فمن لايعرف المحبة فيها لايعرف الله: "يا أيها الأحباء لِيُحِبّ بعضكم بعضاً فإن المحبة من الله، ومن لايحب فإنه لايعرف الله، لأن الله محبة/رسالة القديس يوحنا الأولى٤/٧/٨".

بل إن الدعوة إلى المحبة في المسيحية تتجاوز المألوف البشري، لأن تبادل المحبة فقط أمر عادي ولايعني شيئاً في عرف المسحية: "فإنكم إن أحببتم من يحبكم فأيُّ أجر لكم/متى٦-٤٦"، ذلك أن المحبة الحقيقية يجب أن يتسع مفهومها ليشمل لا الأعداء والمبغضين فحسب، بل ليقترن بالإحسان إليهم والدعاء لهم: "أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا

إلى من يبغضكم وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم/متى٦-٤٤"[1]، وكما أن المسيحية دين المحبة، فالإسلام كذلك دين الحب، والرسول (ص) جعل الحب مرقاة إلى الجنة: "والذي بنفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولاتؤمنوا حتى تَحابّوا"[2]، وجعل المحبة من تمام الإيمان: "لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[3]، والمحبة في الإسلام يجب أن تشمل لاالمسلمين وحدهم بل الناس جميعاً: "أحِبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً"[4].

أما الرحمة فإنها أمر أساسي في عقيدة المسلمين وفي عقيدة النصارى معاً، ففي الإسلام يسمى الله نفسه بالرحمن وبالرحيم، وقد كتب على نفسه الرحمة:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام١٢.

ومن صفاته التي تذكر دائماً في القرآن أنه تعالى "ذو الرحمة":

---

[1] – د. عطية: المرجع السابق ص٦٠.

[2] – سنن الترمذي: الحديث رقم ٢٦٨٨، ج٥، ص٥٢، وسنن ابن ماجة الحديث رقم ٦٨، ج١، ص٢٦.

[3] – صحيح البخاري (كتاب الإيمان – الباب ٧، ج١، ص١٧)، وسنن ابن ماجة الحديث رقم ٦٦، ج١، ص٢٦.

[4] – سنن الترمذي الحديث رقم ٢٣٠٥، ج١، ص٥٥١.

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ الأنعام١٣٣.

وفي الأحاديث "إنما يرحم الله من عباده الرحماء"[١]، و"لايرحم الله من لايرحم الناس"[٢]، و"ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"[٣].

وللرحمة في المسيحية مساحة واسعة لصلة الرحمة بالحب: "طوبى للرحماء فإنهم يرحمون/متى٥-٧"، و"إن الدينوية بلا رحمة تكون على من لايصنع رحمة، والرحمة تفتخر على الدينوية/رسالة القديس يعقوب/١٣/١٢/٢"، و"الويل لكم أيه الكتبه والفريسيّون المراءون، فإنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون، وتتركون أثقل ما في الناموس وهو العدل والرحمة والإيمان/متى/٢٣/٢٣"[٤].

أما العدل فهو مُلح الأرض، وبدونه لاتستقيم الحياة السلمية في الكون، وقد حضت الشرائع السماوية على العدل والإنصاف، فالعدل في الإسلام مأمور به من الله سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ

---

[١] - صحيح البخاري كتاب الإيمان الباب ٩ (صحيح مسلم كتاب الجنائز الباب ٩+١١).

[٢] - صحيح البخاري كتاب التوحيد باب ٢.

[٣] - سنن الترمذي الحديث رقم ١٩٢٤، ج٤/٣٢٣.

[٤] - د. عطية: المرجع السابق ص٦١.

الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل٩٠.

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ النساء٥٨.

وهو مطلوب في التعامل حتى مع الأعداء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة٨.

ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة "إمام عادل"[1].

وفي النصرانية العدل مطلوب ومُرَغَّب فيه: "ولماذا لاتحكمون بالعدل من تلقاء أنفسكم/لوقا ١٢/٥٧"، و"أحبوا العدل يا قضاة الله واعتقدوا في الرب خيراً والتمسوا بقلب سليم"[2].

ومن إيجابيات السلوك الأخلاقي في الإسلام والمسيحية الأمر ببرّ الوالدين وذوي القربى، ففي المسيحية نجد في الإنجيل: "أكرم أباك وأمك/مرقس ١٠/١٩ ومتى ١٥"، ونجد من بين الوصايا العشر الوصية

---

[1] - انظر الحديث في صحيح البخاري، كتاب المحاربين باب ٤، ج٨/٢٩٢.

[2] - العهد القديم – سفر الحكمة – الفصل ١/١٣٩.

التي تقول: "أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض"[1].

كما نجد في رعاية الأقربين: "فأحبب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وكل ذهنك وكل قدرتك، وهذه هي الدرجة الأولى، والثانية التي تشبهها أحبب قريبك كنفسك/مرقس/١٣-٣٠-٣١".

وفي الإسلام حضّ مستمر على البر بالوالدين وبذوي القربى، ففي بر الوالدين، نجد آيات وأحاديث كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً . . . . ﴾النساء٣٦

ومنها: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾لقمان١٤.

ومنها: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ ﴿٢٤﴾الإسراء.

ونذكر في الموضوع نفسه قوله تعالى:

---

[1] – العهد القديم – سفر الخروج ١٢/٢٠.

﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾النساء٣٦[١] .

النهي عن المنكر:

وإذا كان الأمر بالمعروف، والدعوة إلى عمل الخير من جلائل القيم التي تبشر بها الأديان، فإن النهي عن المنكر ومحاربة الشر يُرصدان في طليعة هذه القيم دفعاً للأذى عن الناس فالدينان الإسلامي والمسيحي على النهي عن مقارفة المنكر، وتكاد تكون وجوه البشر التي يحاربها أي من الدينين هي نفسها في الدين الآخر، فكلاهما يحارب الفساد والإثم والفسوق والفحشاء والزنا والشذوذ واسترجال النساء وتخنث الرجال والسكر والشتم وقول الزور والغش والحنث بالأيمان والسرقة والقتل والبخل والكنز والتكبر والجهل، لافرق في ذلك من حيث الاعتقاد بين ما يدعو إليه الإسلام وما تدعو إليه المسيحية، والنصوص الإسلامية في محاربة هذه المنكرات كثيرة وصريحة، فالفساد من الأمور التي يكرهها الله :

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ

---

[١] – د. عطية: المرجع السابق ص٦٣.

وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ البقرة٢٠٥ .

والمفسدون في الأرض لهم أشد العذاب:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ المائدة٣٣[1] .

والإثم والفواحش محرّمة في شرع الله:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف٣٣ .

و ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل٩٠ .

و ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ

---

[1] - د. عطية: المرجع السابق ص٦٣.

بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الأنعام١٥١.

أما الزنا فهو من أكبر الفواحش عند الله وعند الناس:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ الإسراء٣٢.

ومن صفات عباد الله الأتقياء أنهم بعيدون عن الزنا، ومن قاربه ناله شديد العذاب:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿ ٦٨ ﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ ﴿ ٦٩ ﴾ الفرقان.

وفي حديث رسول الله (ص): "فالعينان تزنيان وزناهما النظر"[1].

أما الشذوذ فهو محرّم ومستنكر:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿ ٥٤ ﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ﴿ ٥٥ ﴾ النمل.

أما محاولة الظهور بصورة غير التي خلق الله الإنسان عليها فهي مستقبحة وأصحابها ملعونون، فقد جاء عن رسول الله (ص) أنه قال:

---

[1] – مسند أحمد بن حنبل ج٢، ص٢٤٣.

"لعن الله المتشبهات بالرجال من النساء والمتشبهين بالنساء من الرجال"[1].

أما السكر والخمر والميسر فهي من الموبقات التي حذر الإسلام منها ونهى عنها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة٩٠.

وأما السب والشتم فهما من المعايب الإنسانية "سباب المؤمن فسوق"[2].

وقد حذر الإسلام من مغبة الاستهزاء بالناس والسخر منهم، وكذلك من الغمز واللمز والتنابز بالألقاب، فقد يكون الملموز والمستهزأ به أفضل عند الله من أولئك الذي نعتوه بتلك الألقاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الحجرات١١

---

[1] - سنن الترمذي الحديث رقم/٢٧٨٤/ كتاب الإيمان الباب ٣٤، ج٥، ص١٠٥، وسنن ابن ماجة الحديث رقم/١٩٠٤/ كتاب النكاح الباب ٢٢، ج١، ص٦١٤.

[2] - صحيح البخاري – كتاب الإيمان الباب ٣٦، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ج٣٣/١، وصحيح مسلم كتاب الإيمان ٥٨/١.

وقد حذر الله تعالى من قول الزور لما يترتب عليه من إفساد وإضرار:

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ الحج ٣٠

وعباد الرحمن المخلصين ينأون عن الزور:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ الفرقان ٧٢

أما من قارف الغش فقد برئت منه ذمة النبي الكريم: "من غش فليس منا"[١]، و"من غش فليس مني"[٢]، ومثله قوله (ص): "ليس منا من غش"[٣].

وللحانثين بأيمانهم وللحانثين بإثمهم في الإسلام عذاب عظيم:

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿ ٤١ ﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿ ٤٢ ﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿ ٤٣ ﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿ ٤٤ ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿ ٤٥ ﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿ ٤٦ ﴾ الواقعة.

---

[١] – سنن الترمذي: الحديث رقم/١٣١٥/ كتاب البيوع باب ٧٢(٥٩٧/٣).

[٢] – صحيح مسلم كتاب الإيمان ٦٩/١.

[٣] – سنن ابن ماجة: الحديث رقم/٢٢٢٤/ كتاب التجارات الباب ٣٦، ج٧٤٩/٢.

والسرقة من الكبائر وعقابها في الدنيا عظيم،

﴿ السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾المائدة٣٨ .

ومن المحرمات التي نهى الإسلام عنها القتل لخطورته على الحياة البشرية:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾المائدة٣٢ .

وهناك نعوت يتصف بها بعض الناس، وهي تجانب الكمال الإنساني الذي فطر الله الناس عليه، والاتصاف بها ينحط بصاحبه عن قيمته الإنسانية وكأنه يحمل معه صفات من المنكر مستمرة استمرار حياته، ومن ذلك الحرص والبخل والكنز:

﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾آل عمران١٨٠ .

وقال رسول الله (ص): "إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح"[1]، والكانزون لأموالهم دونما إنفاق مبشرون بأشد العذاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التوبة٣٤

أما الكبْر والتعالي على الناس فهما من الأمور المستنكرة:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ الأحقاف٢٠

و ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الزمر٧٢.

وقال النبي (ص): "لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[2]، والجهل بمعنييه، جهل العلم والمعرفة، وجهل الطيش منهي عنه أيضاً لأنه بمعنييه، لايؤدي إلى النتائج الطيبة والخيّرة بل إلى الكثير من الشرور والآثام:

---

[1] – سنن ابن داود: كتاب الزكاة، باب في الشح ١٣٧/٢.

[2] – سنن ابن ماجة: الحديث رقم /٣٨٦٦/، المقدمة/٩ (٢٣/١).

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ هود٤٦.

ومن دعاء الرسول (ص) في الموضوع نفسه قوله: "اللهم إنني أعوذ بك أن أضل أوأزل أوأظلم أوأجهل أويجهل علي"[١].

وكل هذا الذي أشرنا إليه من المنكرات المنهي عنها هو قُلٌّ من كلِّ مما جاء به الإسلام، ومما جاءت به المسيحية أيضاً، والمنكرات التي تعرض لها الإسلام بالنهي لها مثيلها في النصرانية، فهي ترفض المنكرات والموبقات وتحاربها، وترى أن الشر والأعمال السيئة إنما تصدر عن خبيئة نفس سيئة: "...لأنها من الداخل، من قلوب الناس تنبعث الأفكار الرديئة، الزناء الفجور، القتل، السرقة، الحرص، الخبث، الغش، العهارة، العين الشريرة، التجديف، الكبرياء، الجهل، جميع هذه الشرور تنبعث من الداخل فتنجس الإنسان/مرقس ٧-٢١ وما بعدها"[٢].

ونلاحظ في تعداد هذه المنكرات تماثلاً مع ما جاء في الإسلام حولها، ولم تكتف المسيحية بشجبها على أنها وسائل شر وإيذاء، وإنما نهت عن مقارفتها: "وإذا برجل دنا إليه وقال: أيها المعلم الصالح: ماذا أعمل من الصلاح لأرث الحياة الأبدية، فقال له: لماذا تسألني عن الصلاح؟ إنما الصالح واحد وهو الله، ولكن إن كنت تريد أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا، فقال له: وما هي؟ قال يسوع: لاتقتل، لاتزن، لاتسرق،

---

[١] – سنن ابن ماجة: الحديث رقم/٣٨٨٤/، كتاب الدعاء/ الباب ١٨، (ج٢/١٢٧٨).

[٢] – د. عطية: المرجع السابق ص٦٦.

لاتشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، أحبب قريبك كنفسك/متى ١٩-١٦ وما بعدها، وانظر مرقس ١٠/١٧ وما بعدها".

ويتكرر ذكر المنكرات المنهي عن مقارفتها تكراراً يلفت النظر في الأناجيل تأكيداً على مدافعتها والمنهي فالزنا المنهي عنه يشمل، كما في الإسلام، حتى زنا النظر: "قد سمعتم أنه قيل للأولين: لاتزن، أما أنا فأقول لكم: إن كل من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنا بها في قلبه/متى ٥-٢٧" وما بعدها.

والحنث باليمين مرفوض في النصرانية كما هو مرفوض في الإسلام: "قد سمعتم أيضاً أنه قيل للأولين، لاتحنث، بل أوفِ للرب بأقسامك/متى ٥-٣٣"، وكنز الأموال مرفوض في المسيحية أيضاً: "لاتكنزوا لكم كنوز الأرض حيث يُفسد السوس والأكلة، وينقبُ السارقون ويسرقون لكم، اكنزوا لكم كنوزاً في السماء، حيث لايُفسد سوس ولاينقب السارقون ولايسرقون/متى/٦-١٩ وما بعدها".

وتستنكر المسيحية أشد الاستنكار الشذوذ الجنسي لدى الرجال ولدى النساء، نسمع ذلك في رسالة القديس بولس إلى أهل روما، متحدثاً عن اليهود: "...الذين أبدلوا حق الله بالباطل واتقوا المخلوق وعبدوه دون الخالق الذي هو مبارك مدى الدهور... آمين، لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الفضيحة، فإن إناثهم غيرّن الاستعمال الطبيعي بالذي على الذكرات الفاحشة ونالوا في أنفسهم الجزاء اللائق بضلالهم/١-٢٥ وما بعدها"[1].

وفي الرسالة نفسها يركز على تعداد المنكرات والموبقات، وينعت

---

[1] – د. عطية: المرجع السابق ص٦٧.

أصحابها بأقبح النعوت ويذكرهم بالعقوبات التي تنتظرهم، ومنها الموت، وذلك بقوله: "وبما أنهم لم يؤثروا أن يستمروا على معرفة الله أسلمهم الله إلى رأي مرذول حتى يعملوا ما لايليق، ممتلئين من كل إثم وشر وزنا وبخل وخبث، مفعمين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكراً وإساءة، نمّامين مغتابين متكبرين مفتخرين، مخترعين شروراً، عاقين للوالدين، لافهم لهم ولانظام ولاود ولاعهد ولارحمة، وهم مع معرفتهم قضاء الله لم يفهموا أن الذين يفعلون مثل هذه يستوجبون الموت... وليس الذين يعملونها فقط، بل أيضاً الذين يرضون عن فاعليها/١-٢٨ وما بعد".

وفي رسالة أخرى للقديس بولس، نفسه هي رسالته إلى أهل كورنتس يضرب فيها على الوتر نفسه من الوعظ، ومن تحذير الناس من ارتكاب المعاصي التي يرتكز على رصدها وتعدادها، وعلى آثارها السيئة على الناس، والتي يحذّر من العقوبات الأخروية التي تنتظر فاعليها: "ألا تعلمون أن الأثمة لايرثون ملكوت الله، لاتضلوا فإنه لاالزناة ولاعبّاد الأوثان ولاالفسّاق ولاالمفسدون ولامضاجعو الذكران، ولاالسارقون ولاالبخلاء ولاالخطفة يرثون ملكوت الله/٦/٩ ومابعدها"[1].

ولكن هل هذا التقارب والتعاون مع الشعوب هو أساسي في الحضارة العربية الإسلامية؟

هذا هو بحثنا الآتي بيانه.

---

[1] - د. عطية: المرجع السابق ص٦٨.

ج- دور العرب المسيحيين في بناء الحضارة العربية الإسلامية:

منذ العهد الذي أعطاه رسول الله (ص) لنصارى نجران، والرابطة مع الأهل المسحيين العرب تضطرد وتنمو وتثمر، جاء في هذا العهد: ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأرضيهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أوكثير، لايغير أسقفاً من أسقفيه، ولاراهباً من رهبانيته ولاكاهناً من كهانته، وليس عليهم دية، ولادم جاهلية، ولايحشرون ولايعشرون، لايطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم جزيته فسهمهم النصف غير ظالمين، ولامظلومين، ولايؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى مافي هذا الكتاب جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله[1].

كيف لايأخذ هذا "الإيجاب"، وتلك المعاملة الحسنة من الرسول بمجامع القلوب وهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا، ومنهم قسيسون ورهبان، وأنهم لايستكبرون وإذا ذكر اسم الله رأيت أعينهم تفيض بالدمع.

أجل لقد عاش المسيحيون مع المسلمين قلباً مع قلب وروحاً مع روح وضميراً مع ضمير وإرادة مع إرادة، وكان قطاف وثمرة هذه الحياة المشتركة الحضارة العربية الإسلامية الممراع، يقول المطران جورج خضر: هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، ونحن ننتمي إليها.

وبالفعل فقد أثبت العرب المسيحيون أنهم بالفعل أهل الأرض،

---

[1] - البلاذري: في فتوح البلدان وابن قيم الجوزية في أحكام أهل الذمة.

ولهذا استمروا في البناء والعطاء، ونحن نقدم كنموذج لهذا العطاء أسماء العلماء ورجال الفكر الذين أسهموا أيما إسهام في بناء الحضارة العربية الإسلامية، وفيما يلي بعض أسماء هؤلاء[1].

- حنين بن بلوغ (نحو ١١٠هـ ٧٢٨م): وهو شاعر وموسيقي، ومن كبار المغنين...
- جورجس بن جبرائيل (بعد ١٥٢هـ ٧٦٩م): وهو طبيب، سرياني الأصل ترجم كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية، وله مؤلفات أيضاً... وكان من المقربين لدى الخليفة العباسي المنصور.
- تيوفل بن توما الزهاوي (١٧٤هـ ٧٨٥م): وهو منجم، نصراني ماروني، كانت له حظوة عند الخليفة العباسي الرشيد.
- أبو سهل الفضل بن نوبخت (كان حياً قبل ١٨٤هـ ٨٠٠م): وهو عالم مجوسي، ترك العديد من المؤلفات في الفلك والنجوم.
- جبريل بن بختيشوع (٢١٣هـ ٨٢٨م): طبيب كان مقرباً للخلفاء العباسيين: الرشيد والأمين، والمأمون... وترك مؤلفات عدة في الطب والمنطق.
- سهل بن سابور (٢١٨هـ ٨٣٣م): طبيب له مؤلفات في الطب.

---

[1] - د. برهان زريق: العروبة والإسلام، دمشق، دار حوارن، ط١، ٢٠١٠، ص٢٨٢.

- سلموية بن بنان (٢٢٥هـ ٨٤٠م): طبيب الخليفة العباسي المعتصم... وصاحب الشهرة في المعارف السياسية وشؤون الدولة....
- أبو زكريا يوحنا ماسويه (٣٤٣هـ ٦٥٧م): من الأطباء العلماء، تولى ترجمة كتب الطب القديمة بتكليف من الرشيد، ورأس جهاز الترجمة، وخدم المأمون، والمتوكل... وآثاره الفكرية تبلغ الأربعين في الطب والمنطق والفلسفة.
- سابور بن سهل (٢٥٥هـ ٨٦٩م): طبيب ومؤلف، ترك آثاراً فكرية في الطب.
- بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع بن جرجس (٢٥٦هـ ٨٧٠م): طبيب سرياني الأصل، خدم الخلفاء العباسيين: الواثق، والمتوكل، والمستعين، والمهتدي، والمعتز... وله مؤلفات.
- أبو زيد حنين أبو إسحاق العبادي (١٩٤هـ ٢٦٠هـ -٨١٠-٨٧٣م): طبيب، ومؤرخ، ومترجم، وشاعر... رأس ديوان الترجمة في مصر المأمون... عاصر تسعة من خلفاء بني العباس.. وآثاره الفكرية، ترجمة وتأليفاً، تزيد على المائة....
- صاعد بن مخلد (٢٧٦هـ ٨٨٩م): وزير بغدادي، من أصل نصراني، أسلم على يد الخليفة العباسي الموفق، ولقب بلقب: "ذي الوزارتين"!.
- أبو الحسن ثابت بن قرة بن زهرون (٢٢١-٢٨٨هـ، ٨٣٦-٩٠١م): طبيب وحاسب وفيلسوف.. من الصابئة... له نحو مائة وخمسين مؤلفاً في الطب والفلك والهندسة والموسيقى والحساب.
- يوحنا – (يحيى)- بن بختيشوع (نحو ٢٩٠هـ، ٩٣٠م):

طبيب ومترجم.. خدم الخليفة العباسي الموفق... وترك آثاراً فكرية في الطب والصيدلة والنجوم..

- قسطا بن لوقا البعلبكي (نحو ٣٠٠هـ،٩١٢م): فيلسوف ورياضي ومترجم ومؤلف... عاصر الخليفة العباسي المقتدر... وله آثار فكرية كثيرة في الزراعة والهندسة والفلك وعلم النفس والاجتماع.
- سيد بن البطريق (٢٦٣-٣٢٨هـ،٨٧٧-٩٤٠م): طبيب مؤرخ نصراني... مصري... تولى منصب البطريرك في الإسكندرية باسم انيتشيوس سنة (٣٢١هـ،٩٢٢م)... وله آثار فكرية.
- بختيشوع بن حنا بن بختيشوع (٣٢٩هـ،٩١٤م): طبيب كان مقرباً من الخلفاء العباسيين، خدم منهم المقتدر بالله، والرضي بالله.
- يوحنا بن يوسف بن الحارث بن البطريق (القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي): مترجم ورياضي... من قساوسة النصارى... اشتغل بتدريس كتب الهندسة، وله مؤلفات فيها.
- أبو الفضل بن جداي: وهو يهودي، أندلسي، برع في اللغة العربية، والشعر العربي، وكذلك في الهندسة والموسيقى والطب.
- متى بن يونس (٦٥٧هـ،٩٤٠م): عالم في المنطق، ومترجم.. من الصابئة.
- أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحراني (٣٣١هـ، ٩٤٣م): طبيب وعالم من الصابئة... رأس الأطباء على عهد المقتدر العباسي، وخدم القاهر بالله والراضي بالله، له آثار فكرية في

الطب والهندسة والدين والتاريخ.

- أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني (٣٦٥هـ،٩٧٦م): طبيب ومؤرخ... من الصابئة... خدم من خلفاء بني العباس: الرافضي بالله، والمتقي بالله، والمستكفي، والمطيع... وله مؤلفات في التاريخ.
- جبرئيل بن عبيد الله بن بختيشوع (٣١١-٣٦٩هـ،٩٢٣-١٠٠٦م): طبيب وعالم اتصل بالدولة البويهية،وقربه عضو الدولة البويهي، والصاحب بن عباد.. وله مؤلفات في الطب والفلسفة الإلهية.
- جورجس بن يوحنا بن سهل بن إبراهيم الجيرودي (٤٢٧هـ،١٠٣٥م): طبيب سرياني الأصل، من نصارى اليعاقبة بدمشق... له آثار فكرية في الطب.
- أبو الفرج عبد الله بن الطيب (٤٣٤هـ،١٠٤٣م): فيلسوف وطبيب وعالم... من نصارى بغداد.. له شروح على آثار أرسطو في الفلسفة، وكتب جالينوس في الطب.
- ابن زرعة، عيسى ابن اسحق بن زرعة بن مرقس (٣٧١-٤٤٨هـ، ٩٨٢-١٠٥٦م): عالم في الفلسفة والمنطق ومترجم... له آثار فكرية في الفلسفة والمنطق والفلك.
- سليمان بن يحيى بن جبرويل: وهو شاعر يهودي بلغ من تشبعه بالحضارة العربية وتأثيرها عليه أن ظهر أثرها في شعره العبري.
- أبو عمران موسى بن ميمون (٥٢٩-٦٠١هـ، ١١٣٥-١٢٠٤م): فيلسوف وطبيب.. يهودي.. من أكبر فلاسفة

اللاهوت اليهودي في القرون الوسطى.. ولد وتعلم بقرطبة، ودرس اللاهوت على أبيه، وعلوم العربية على العلماء المسلمين.. حفظ القرآن، وتفقه بالفقه المالكي.. انتقل مع أسرته حتى استقر في الفسطاط.. عمل طبيباً لصلاح الدين الأيوبي، ثم لابنه من بعده.. تأثر بالرازي، وابن سينا، وابن زهر.. وأنشأ بالإسكندرية أهم مدارس اللاهوت اليهودي في تلك العصور، ورأس الطائفة اليهودية في زمنه.. له العديد من المؤلفات في الطب والفلسفة واللاهوت.. مات بمصر، ودفن بطبرية..

- أبو الفرج صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما (٦٢٠هـ،١٢٢٣م): طبيب، بغدادي، بلغ منزلة الوزراء على عهد الملك الناصر.
- أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الأشبيلي (٦٠٥-٦٤٩هـ،١٢٠٨-١٢٥٢م): كاتب وشاعر... يهودي.. من أصل إشبيلي، سكن سبتة، وله ديوان شعر...
- يعقوب بن رافائيل ضوع (١٢٥٥-١٣٣٠هـ،٨٣٩-١٩١٢م): يهودي، مصري، ولد بالقاهرة، وتعلم في إيطاليا، حفظ القرآن، وعمل بالمسرح سنة ١٨٧٠م، وكتب نحو من ست وثلاثين رواية للمسرح وخيال الظل... واشتغل بالصحافة فأصدر (أبو نظارة) سنة ١٨٧٧م، وبعد نفيه إلى باريس أعاد إصدارها بنفس الاسم، أوباسم (الحاوي) و(الوطن المصري).. وهو من تلاميذ جمال الدين الأفغاني، وأصدقاء الشيخ محمد عبده، ومن أعضاء (الحزب الوطني الحر) الذي أنشأه الأفغاني قبل الثورة العرابية بمصر... له صحيفة، عدة رسائل.

- داود حسني (١٢٨٧-١٣٥٦هـ،١٨٧١-١٩٣٧م): ملحن يهودي، مصري، تتلمذ على يد المغني عبد الحمولي، والملحن محمد عثمان... اشتغل بالغناء، ثم تفرغ للتلحين... وضع ألحاناً لروايات مسرحية، وارتاد تلحين الأوبرا الكاملة... وترك ثروة لحينه زادت على الخمسمائة لحن[1].
- الخ.... الخ.... الخ....

تلك أمثلة من الأعلام العرب، غير المسلمين، الذي أسهموا مع العلماء العرب، الذي تدينوا بالإسلام، في بناء صرح الحضارة الواحدة، حضارة العرب... العرب جميعاً، بأديانهم المختلفة وشرائعهم المتعددة ومذاهبهم المتمايزة.

وبهذه المعالم على طريق هذه الحضارة تتأكد الحقيقة القائلة: إن في مقدمة ما يوحدنا، نحن العرب؛ وحدة الحضارة التي أسهم في بنائها الجميع، ومنحوها جميعاً الحب والوفاء والولاء.

ويروي ابن تيمية لشخصيات بارزة من السلف قولهم: عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن بن علي: من ولد في الإسلام فهو عربي.

فهنا إن صح هذا الحديث فقد علقت العربية فيه بمجرد اللسان، وعلقت في النسب بأن يدرك له أبوان في الدولة الإسلامية العربية[2].

يقول ابن تيمية: فإن نفس اللغة العربية من الدين وفرضها فرض

---

[1] – انظر في هؤلاء الأعلام: (الأعلام) للزركلي، طبعة بيروت، وقدري حافظ طوقان: [تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك] طبعة القاهرة ١٩٦٣م.

[2] – اقتضاء الطريق المستقيم ص١٦٤.

واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولايفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري، وأما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي[1].

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس في أحد أعداد مجلة الشهاب: إن المستعمرين علموا أن لابقاء للإسلام إلا بتعلم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه ولا تعلم له إلا بتعلم لغته: فناصبوا تعليمها العداء وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، قد فهمنا والله ما يراد بنا وإننا نعلن لخصوم الإسلام أنا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا[2].

ويقول ابن باديس ليس تكوين الأمة يتوقف على اتحاد دمها، ولكنه يتوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحاد بمظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال.

ويقول الشيخ البشير الإبراهيمي: ومن أباطيل الاستعمار وتهافته أن المتجنس الفرنسية ليومه وساعته فرنسياً، ويلحقه بنسبه، ويساويه به في حقوقه ومميزاته، ثم ينكر على البربري من أجداده على الاستعراب، لايعرفون إلا العربية لغة، يتكلمون بها ويتأدبون ويتعبدون... ليت شعري: أيهما أقرب إلى الواقع: البربري المستعرب أم السوداني المتفرنس، وأيهما أنفذ حكم الله أم حكم الاستعمار.

---

[1] – اقتصاد الطريق المستقيم مخالفه أصحاب الجحيم ط١ المطبعة الشرقية، ٩٠٧م.

[2] – مجلة الوطن العربي ٩٨٤/٧/١٣ مقال للسيد محمد الميلي.

يقول السيد محمد ميلي: لولا القرآن والإسلام لتمكن الفرنسيين من إحلال اللغة الفرنسية محل العربية في أقطار المغرب العربي وصولاً إلى فرنسة هذه الأقطار، وإبعادها عن الجناح الشرقي للأمة العربية.

ولا تزال هذه الأقطار تعاني من منافسة الفرنسية للعربية وتسعى جاهدة، بل تخوض معركة التعريب والاستقلالية أو بأخرى بتلك المثلثة الأطراف التي تقوم على محاربة الإسلام، واللغة العربية وتشويه التاريخ[1].

---

[1] – د. زريق: العروبة والإسلام ص٢٨٧.

المكانة الخاصة للمسيحيين في الضمير والوجدان الإسلامي والعكس

بعد أن حفرنا عن هذه الأواليات والديناميات المتينــه التــي تشـد وتضم المسلم إلى أخيه المسيحي في الوطن العربي سنتوجه بتلك النتيجـة والقطاف العام لهذه الرابطة، فنتكلم على مكانة العرب المسيحيين في دارنا العربية باعتبارهم عنصراً أساسياً في اللحمة العربية فما هو هذا المقام؟.

أ- مكانة المسيحية في قلب المسلمين

لقد ذكرنا مسبقاً أن أتباع الإمام أبي حنيفة – سيراً مع فلسفة حول معنى الإسلام – مضوا قدماً في هذا السبيل، فقالوا إن أهل الكتاب الذين تحدث القرآن عنهم ليسوا النصارى واليهود فقط، بل "كل من اعتقد ديناً سماوياً، وله كتاب منزل مثل التوراة وصحف إبراهيم وشـيث وزبـور وداود"، هذا على الرغم من أن هناك آية في القرآن تشعر بأن المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى فقط[1].

---

[1] – سورة الأنعام/١٥٦: أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا.

هذا وعلى الرغم من المكانة الخاصة لأهل الكتاب، فهنالك مكانة أخص "خيار من خيار" للمسيحية في الإسلام، "فالقرآن الكريم والسنة والحديث وأئمة المسلمين وأهل الفكر والتقوى والصلاح، عبروا عن هذه المودة بآيات وكلمات وأعمال رائعة عن مودته للمسيحيين"[1].

أجل فالإسلام يحترم جميع الأديان السماوية السابقة له، ويحترم أنبياءها وكتبها، ولكنه أفرد النصارى باعتبارات خاصة أقامت بينهم وبين الإسلام علاقات من الود متميزة لم يحظ بها غيرهم:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ المائدة.

وفي هذه الآيات وصف للنصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، وفسّرت نزعة الخير لديهم، وهي دوافع نابعة من سجايا يتحلون بها، منها تأثير علمائهم من القسيسين والرهبان الذي يعلمون بما يؤمنون به، ومنا تواضع فيهم لاكِبْر معه، ومنها رقة في قلوبهم وعواطفهم.

---

[1] – الأب د. انطوان ضو: المسيحيون في عالمنا العربي والإسلامي، مجلة المنابر العدد السابق ص٢٣٢.

وقد ذكر الله لهم صفات حميدة في مواقع أخرى من القرآن، فنعتهم بالرأفة والرحمة، وهما من ألطف وأنبل النعوت التي يتحلى به الإنسان:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ الحديد ٢٧.

وبانعكاس الأمور وتداعياتها يتحدد على المسلم – منطقياً وطبيعياً – أسلوب التعامل مع النصارى، هذا الأسلوب الذي لايمكن إلا أن يكون كريما، بل إن الإسلام – إمعاناً منه في تكريم الإنسان – يكلف المسلم بحماية المشرك إذا استجاره، ويتحمل مسؤولية سلامته، حتى يبلغه مأمناً، وذلك بصريح قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة٦ .

زد على ذلك فالله سبحانه وتعالى يطلب من المسلم أن يعامل المشركين – وهم أهل أوثان – إذا سالموا ولم يحاربوا في الدين، المعاملة المقرونة بالبر والإحسان:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

﴿الْمُقْسِطِينَ﴾ الممتحنة٨[1].

وإذا كانت هكذا معاملة الشرك فكم تكون أولى بها ينهي المسلم عن بر المشرك – والبر كلمة جامعة لمعاني الخير وللتوسع فيه – كما لاينهاه معاملة أتباع الأديان السماوية – والنصارى في طليعتهم – وأحرى بهذه الرعاية الكريمة التي تجعل أجمل المعاني التي دعا إليها الإسلام:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل٩٠.

أجل فقد كانت علاقة الرسول (ص) بالنصارى منذ طفولته وحتى مطلع بعثه، ثم في إقامته في المدينة وحتى قبيل وفاته، علاقة متميزة قائمة على التقدير المتبادل والاحترام.

وقصة رحلته إلى الشام مع عمه أبي طالب، وهو طفل، ورؤية الراهب بحيرا له ونصحه لعمه بالعودة به خوفاً عليه، وتحذيره له من غدر اليهود، كل ذلك دليل على أول احتكاك إيجابي مع النصارى[2].

لقد وقف مشركو قريش من الرسول (ص) موقف العداء، وتربصوا الدوائر بإخوانه الذين استجابوا لدعوته وجُلّهم من المستضعفين، وأوسعوهم اضطهاداً وأذى، الأمر الذي دفعه إلى الإذن لهم بالهجرة عَبْرَ البحر بمخاطره إلى الحبشة المسيحية دون اليمن القديمة

---

[1] – هذه الآية نزلت في مشركي العرب، وهم ليسوا أهل الكتاب.

[2] – السيرة النبوية: ابن هشام ١٧٩/١.

التي كانت حينذاك خاضعة للساسانيين الزرادشتيين.

وفي هذا التوجيه دلالة على المكانة العالية للنصارى في نفسه (ص)، حيث يتأكد هذا المعنى بما جاء في وصيته إلى أصحابه قبيل السفر، إذ قال لهم: "...لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لايُظلَمُ عنده أحد، وفي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه"[1].

وبالفعل فقد أحسن هذا الملك استقبالهم، وسمح لهم بالإقامة في دياره، وكان الرجل المنصف الذي يرفض الظلم ويصدع بالحق، وفقد استقبل وفداً من مشركي قريش أرسلته لإقناعه برد المسلمين من دياره، واستمع إلى هذا الوفد كما استمع بعد ذلك إلى رأي المسلمين.

ثم ردّ وفد قريش خائباً، واستمر على إكرام المسلمين اللاجئين في بلاده[2]، وقد وصفت أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي (ص)، وكانت من المهاجرين إلى الحبشة، معاملة النجاشي لهم، فقالت: "لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جارٍ: النجاشي، أمِنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لانؤذي ولانسمع شيئاً نكرهه"[3].

والأمر مع المقوقس النصراني، حاكم مصر، كان مشابهاً لما وقع مع النجاشي ملك الحبشة، فقد كان المقوقس من الملوك الذي بعث رسول الله (ص) إليهم برسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام، وحَمَلَ الرسالة إليه

---

[1] – السيرة النبوية: ابن هشام ٣٤٣/١.

[2] – السيرة النبوية: ابن هشام ٣٥٦/١.

[3] – السيرة النبوية: ابن هشام ٣٥٧/١، وانظر د. عبد الرحمن عطية، المسلمون والنصارى بيروت، ط١، بيروت دار الاوزاعي، سنة ٢٠٠٠، ص٢٠.

حاطب بن أبي بلتعة، فلم يأخذ المقوقس استكبار ولااستهتار، بل "قبل الكتاب، وأكرم حاطباً وأحسن نزله، وسرحه إلى النبي (ص)، وأهدى له مع حاطب كسوة وبلغه بسرجها وجاريتين إحداهما أم إبراهيم"[1].

لقد مزق ملك الفرس المجوسي كتاب رسول الله (ص)، في حين استأن ملك الروم المسيحي، ثم سأل عمن في بلاده من العرب، وكان هناك أبو سفيان ومعه رهط من قريش، فاستدعاه واستوثق في حديثه معه بجميع الاحتياطات التي لاتدع له فرصة للكذب، ثم أخذ يسأله عن الرسول وصفاته ودعوته وأتباعه، وأبو سفيان يجيبه صادقاً من اهتزاز صورته أمام جماعته، حتى إذا أنهى ملك الروم مساءلته التفت إليه وإلى من حوله، وزجرهم، وأشار إلى أن ما ذكروه من صفات سألهم عنها هي من صفات الأنبياء[2].

ولايغيب عن البال موقف الإسلام من صراع الروم – وهم من أهل الكتاب – مع الفرس وهم من عبدة النار، وذلك حين أشار القرآن إلى انتصار الفرس على الروم، ثم أشار بعد ذلك إشارة من علم الغيب تؤكد أن الروم سينتصرون وفي بضع سنين، وقرر أن انتصارهم، وهم من أهل الكتاب، سيكون مثار فرح لدى المؤمنين، وقد تحقق ذلك في الأجل الذي تحدد، وسميت السورة التي اشتملت في مطلعها على هذه الآيات باسم (سورة الروم):

---

[1] – البداية والنهاية: ابن كثير ٢٧٢/٤.

[2] – البداية والنهاية ٢٦٤/٤ وانظر في ذلك د. عبد الرحمن عطية: المسلمون والنصارى ص٢١.

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿ ٢ ﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿ ٣ ﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ ٤ ﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٥ ﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ٦ ﴾ الروم.

وتجدر الإشارة إلى أن الزيارة التي قام بها وفد يمني من نصارى نجران إلى الرسول (ص) في المدينة، وكان الوفد مكوناً من ستين راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وقد أحسن الرسول (ص) استقبالهم وأحاطهم بالتكريم والتقدير، وحين حرصوا على أداء صلاتهم طلب منهم أن يصلوها في مسجده، فصلّوها إلى المشرق، وجرت بينه وبينهم حوارات ومناقشات انتهت بعقد معاهدة تعزز علاقات الود بينهم وبين الملسمين[1].

هذه النماذج الحيّة التي تمثل نظرة الإسلام إلى المسيحية عبر نماذج من الآيات القرآنية ونماذج من المواقف الإسلامية والمسيحية في حياة الرسول (ص) تكملها وتعززها نماذج تالية من أراء علماء المسلمين في الموضوع نفسه، فالعالم والمفسر ابن جُزَيّ الكلبي[2]، يؤكد أن علاقة قرب المودة المقررة في آيات سابقة ليست علاقة عابرة، بل هي علاقة

---

[1] – البداية والنهاية ٥/٥٩.

[2] – ابن جزيّ: محمد بن أحمد بن جُزَيّ الكلبي الأندلسي، عالم له تفسير وعدة مؤلفات – توفي سنة ٧٤١هـ، ١٣٤٠م.

خالدة على الدهر، وكلام الله سبحانه عنها في تلك الآيات فيه: "إخبار أن النصارى أقرب إلى مودة المسلمين، وهذا الأمر باق إلى آخر الدهر"[1].

كما أن الزمخشري[2]، في تفسيره وفي تعليقه على هذه الآيات يشيد بأمر المسيحيين وبالأوصاف التي نعتتهم بها القرآن، فيقول: "...وعلل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين بأن منهم قسيسين ورهباناً أي علماء وعُبّاداً، وأنهم قوم فيهم تواضع واستكانة ولاكبر فيهم... ووصفهم القرآن برقة القلوب"[3]، والمفسر الأندلسي ابن عطية[4] يذكر النصارى، وينعتهم بنعوت فيها الكثير من الإنصاف والإكبار والتقدير، وذلك حين يقول: "والنصارى أهل الكتاب... ويعظّمُون من أهل الإسلام من استشعروا منهم صحة دين، ويستهينون من فهموا منه الفسق، وهم إذا حاربوا، فإنما حربهم أنفة وكسب، لاإن شرعهم يأخذهم بذلك، وإذا سالموا فسلمهم صافٍ، ويعين على هذا، أنهم أمة شريعة الخلق، ولهم الوفاء والخلال الأربع التي ذكرها عَمروُ بن العاص في صحيح مسلم"[5].

---

[1] – تفسير "التسهيل لعلوم التنزيل": ابن جزي ص ١٦١.

[2] – الزمخشري: محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي، عالم إسلامي كبير ومفسّر له مؤلفات عديدة توفي عام ٥٣٨هـ، ١١٤٤م.

[3] – تفسير (الكشاف): الزمخشري ٣٥٩/١ وانظر د. عطية: المسلمون والنصارى ص٢٢.

[4] – ابن عطية: عبد الحق بن غالب المحاربي الأندلسي مفسر وفقيه توفي عام ٥٤٢هـ،١١٤٨م.

[5] – تفسير "المحرر الوجيز": ابن عطية ٣/٥.

أما عمرو بن العاص وهو الصحابي الذي أشار ابن عطية إلى الخلال التي سجلها للنصارى فإنه بحكم أسفاره وتجاراته قبل الإسلام وبعده في مصر والشام، ثم بحكم عمله الرسمي في مصر بعد ذلك، كان على احتكاك بالنصارى في هذه البلاد، وكان بالتالي على معرفة تامة بأخلاقهم وسجاياهم، الأمر الذي يسمح له باستشفاف الوصف الصادق لهم، وهذه الصفات الأربع التي ذكرها ابن عطية في تفسيره ووردت في صحيح مسلم كالتالي: "قال المستورد عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله (ص) يقول: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس"، فقال له عمرو: "أبصرْ ما تقول!" قال: "أقول ما سمعت من رسول الله (ص) قال: "لئن قلت ذلك: إن فيهم خصالاً أربعاً: إنهم لأحكَمُ الناس عند فتنة، وأسرعُهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكُهم كرّةً بعد فرة، وخيرُهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك"[1].

وقد يعتريهم الظلم، لاباعتبارها نابعة من حقيقة دينهم، وما أدق وما أجمل ما كتبه المفكر الإسلامي المعاصر محمد حميد الله[2] عن النصارى فقال: "لاشعار في المسيحية بفضل الشعار الوارد في إنجيل القديس لوقا (الفصل السادس/٢٧) الذي يقول: "أحبوا أعداءكم" وإذا كان هذا الشعار يأمر بمحبة العدو، فكيف يكون الحال إذا تعلق بصديق طيب

---

[1] – صحيح مسلم (الجامع الصحيح): كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب تقدم الساعة والروم أكثر الناس ١٧٦/٨، وانظر د. عطية: المسلمون والنصارى، ص٢٣.

[2] – محمد حميد الله: كاتب إسلامي كبير من الهند يعيش في باريس، وله دراسات إسلامية جادة وله أيضاً كتابات منصفة في مقارنة الأديان.

وحليف صادق؟ إن المسيحي الصحيحي الحق لايمكن أن يكون شريراً أوعاقاً أوناكراً للجميل، كما لايمكن أن يكون ظالماً أوجائراً، حتى ولو اندفع في بعض الأحيان، وبصورة عرضية إلى تصرفات جائرة يمكن أن تصدر عن أي إنسان نتيجة انفعالات محتدمة في ظروف خاصة، أونتيجة جهل بحقيقة ظلت خافية عليه لفترة مؤقتة، ولكن حين يزول سوء الفهم، فالمسيحي المؤمن الممارس لشعائر دينه لايستطيع إلا أن يعترف بخطأ الماضي والحاجة إلى المحبة في المستقبل، ومن نفل القول أن الأمناء على مثل هذه المثل العليا لايمكنهم أن يسمحوا لأنفسهم أبداً بوزنين ومقاسين حيال أعدائهم المحبوبين، كما لابد من تذكير المسيحيين بأن الإسلام اعترف بأن الإنجيل والمسيحية يستندان على الوحي الإلهي، وأن يسوع المسيح نبي مرسل من الله، وكلمة الله وروح الله، وإن الإسلام ليس غريباً عنهم أبداً، وبعيد جداً أن يكون عدواً لهم[١].

إن علماء المسلمين القدماء منهم والمحدثين، كانوا ينظرون إلى المسيحية والمسيحيين نظرة إنصاف، ويستشعرون الروح الإنسانية الداعية إلى الخيرات والمبرّات في التعاليم المنزلة عليهم، لإنقاذ المجتمعات الإنسانية من بيئات الفساد التي كانت تسودها والتي كان تستشري بتصرفات اليهود والرومان الحاكمين في آن واحد..

يقول الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي واصفاً حالة المجتمعات آنذاك: "أُرسل المسيح عليه السلام في بيئة مادية جشعة، هي بيئة اليهود

---

[١] – (نقاط سوء فهم حيال نبي الإسلام لدى المسيحيين) لمحمد حميد الله من أدبيات المؤتمر الإسلامي المسيحي العالمي المنعقد في قرطبة (آذار ١٩٧٧).

الذين تركوا شرائع الله التي أوصاهم بها أنبياؤهم، فقد بلغوا في عهد المسيح منتهى الحرص على جمع المال والافتنان في اكتنازه، وكان أغنياؤهم على أكبر جانب من القسوة وموت الضمير، ورجال دينهم لايألون جهداً في تحريف أحكام الشريعة، والولاة الرومان جعلوا من المجتمع طبقتين متميزتين: طبقة (الأغنياء والأشراف) الذين استأثروا بالطيبات والأموال ورغد العيش وطبقة (الفقراء) الذين حرموا من الكرامة وأبسط حقوق الإنسانية، وأصبحوا يئنون من وطأة المرابين المستغلين، وكان جمهورهم معرضين عن الحق يرتكبون كل المنكرات الخلقية والجنسية"[1].

وفي رسالة القديس بولس إلى أهل رومية وصف لما كان عليه مجتمع اليهود حينذاك من تنكرٍ لتعاليم الله، ومن ضياع للقيم ومن استشراء للفساد: "إنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه، ولم يشكروه كإله، بل سفهوا في أفكارهم، وأظلمت قلوبهم الغبية، وقد زعموا أنهم حكماء فصاروا حمقى، واستبدلوا مجد الله الذي لايدركه الفساد بشبه صورة إنسان ذي فساد، وطيور وذوات أربع وزحافات، فلذلك أسلمهم الله في شهوات قلوبهم إلى النجاسة لفضيحة أجسادهم في ذواتهم الذين أبدلوا حق الله بالباطل، واتقوا المخلوق وعبدوه دون الخالق الذي هو مبارك مدى الدهور فإن إناثهم غيَّرْنَ الاستعمال الطبيعي بالذي على خلاف الطبيعة، وكذلك الذكران أيضاً، تركوا استعمال الأنثى الطبيعي والتهبوا بعشق

---

[1] - اشتراكية الإسلام: د. مصطفى السباعي ص٣٩، وانظر د. عطية: المسلمون والنصارى ص٢٥.

بعضهم بعضاً ففعل الذكران بالذكران الفاحشة، ونالوا في نفوسهم الجزاء اللائق بضلالهم، وبما أنهم لم يؤثروا أن يستمروا على معرفة الله أسلمهم الله إلى رأى مرذول حتى يعملوا ما لايليق، ممتلئين من كل إثم وشر وزناً وبخل وخبث، مفعمين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكراً وإساءة، نمامين مغتابين، محتقرِين من الله، شتامين متكبرين، مفتخرين مخترعين شروراً، عاقين للوالدين، لافهم لديهم ولانظام ولاعهد ولارحمة"[1].

وما أجمل ماورد في إنجيل متى حول الخطاب المُوَجّه لليهود: "ياأولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار، وإنما يتكلم الفم من فضل مافي القلب، الرجل الصالح من كنزه – يخرج الصالحات، والرجل الشرير من كنزه يخرج الشرور"[2].

ومن جهة أخرى تمتلئ بالإشادة بالفضائل والحض على القيم السامية، تقول هذه الأناجيل: "حياة الإنسان بالإيمان وبالفضائل لابالطعام والشراب فحسب"[3]، و"طوبى للرحماء، فإنهم يرحمون"[4]، و"خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا"[5]، و"لاتقتل، ولاتسرق، لاتشهد بالزور، لاتخن، أكرم أباك وأمك"[6]، و"لكن أقول لكم أيها السامعون أحبوا أعداءكم

---

[1] – رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ١/٢١-٣١.

[2] – إنجيل متى ١/٣٢-٣٥.

[3] – إنجيل متى ٢٥/٢٤ وما بعد.

[4] – إنجيل متى ٥/٦.

[5] – إنجيل متى ٦/١١.

[6] – إنجيل مرقس ١٠/١٩.

وأحسنوا إلى من يبغضكم"[1]، و"فإنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كلـه وخسر نفسه"[2].

وناهيك بخطبة الجبل وما فيها من قيم تحضّ على الخير وشمائل ترفق قلوب المؤمنين، ناهيك بها نموذجاً رفيعاً لتوجيـه الإنسـان إلـى الخيرات والمبرات، والتوجه إلى الله في كل عمل.

وفي جو المصارحة التي يدعو إليها كل منصف، وكـل طالـب للحق يكون من الواجب إنارة جميع الزوايا التـي يحتمـل أن يكتنفهـا غموض أوفهم مغلوط، أوجهل بمناسبتها أودلالتها، الأمر الذي يقتضـي وضع النقاط على الحروف في مثل هـذه القضـايا لإجـلاء المعـاني المقصودة منها، دفعاً لأيّ التباس قد يترتب على ذلك، ومن هذه الأمـور قضية يثيرها بعض جهلة المسلمين، يزعمون فيها أن النصارى اليوم في عقائدهم هم غير النصارى الذي ورد ذكرهم في القرآن، والـذي أشـاد بسجايا كريمة لديهم، إن هذا التصور من بعض المسلمين مبنـيٌ علـى الجهل، يقوم على غير أساس، لأن نصارى اليـوم فـي عقائـدهم هـم النصارى أنفسهم أيام الرسول (ص)، ومقولتهم في السيد المسيح هي هي، والتي أشار إليه القرآن الكريم بصراحة في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي

[1] – إنجيل لوقا ٢٧/٦ ومابعد.

[2] – إنجيل مرقس ٣٦/٦.

بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ المائدة١١٦ .

وبالتالي، فإن الزعم بتغير النصارى اليوم عن نصارى الأمس أيام الرسول (ص) هو أمر مردود على قائليه، وليس له سند من الواقع أو التاريخ، ويجب أن يستمر التعامل معهم على أحسن صورة، وكما ورد في النصوص التي سلف ورودها[1].

ومن هذه القضايا التي يكتنفها اللبس أيضاً جزء من آية مقطوع عن سياقه، وهو "لاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم"، حيث يظن بعض المسلمين جهلاً أن الخطاب في هذا الجزء موجه إليهم، وحقيقة الأمر أنه قول لبعض اليهود وجهوه لبعض آخر منهم، وقد ورد هذا الجزء في آية يوضح سياق معانيها وأسباب نزولها على ذلك، والآية بتمامها هي:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ ٧٣ ﴾ آل عمران .

---

[1] – د. عطية: المسلمون والنصارى ص٢٨.

أما سبب نزول هذه الآية فقد ورد في المصادر على الشكل التالي: "تواطأ اثنا عشر حَبْراً من أحبار خيبر، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورونا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم، وقالوا: إنهم أهل الكتاب، وهم أعلم به منا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله هذه الآية وأخبر به نبيه محمداً(ص) والمؤمنين"[1].

ويتوضح من سرد هذا الجزء من سياق الآية نفسها، ومن معرفة سبب نزولها أن المقولة كانت لليهود، ولاعلاقة لها بالمسلمين[2].

وهناك آيات يوحي ظاهرها بمواقف مضادة لأهل الكتاب، وبأبسط جهد من التمحيص، ومن متابعة أسباب نزولها، يدرك الإنسان أنها قيلت في مناسبات خاصة، ووجهت إلى فئات محددة وكانت لها مواقف سلبية مع المسلمين، فهي محكومة بظروفها وبالناس الذين قيلت فيهم، من ذلك ما جاء في الآية التالية:

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾آل عمران١٨٦ .

---

[1] – أسباب نزول القرآن ص١٠٤.

[2] – د. عطية: المسلمون والنصارى ص٢٩.

وقصة ورودها كما جاءت في المصادر أن الرسـول (ص) مـرّ على مجلس في المدينة فيه أخلاط من المسلمين والمشـركين واليهـود، وفيهم عبد الله بن أبيّ وكاد المسلمون يقتتلون مع المشـركين واليهـود فهدأهم الرسول (ص)، ونزلت الآية في صدد هذه الحادثة.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في الآية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة٥١

والمدقق في معنى الموالاة والتولّي بعامة، ومن خلال سياق الآية بخاصة، يدرك أنها تقتضي التبعية التي تسلخ المرء عن جماعته، وهـو أمر مرفوض في جميع الأعراف والمعاملات وأنماط التعـايش وتجعلـه منقطعاً انقطاعاً كاملاً في نصرة المُتّبَع[1].

ويحسن أن نستمع إلى رأي عالم إسلامي كبير، وهـو الـدكتور يوسف القرضاوي في تعليقه على هذا الآية وأمثالها حين يقول: "ولعـل سؤالاً يجول في بعض الخواطر، أويتردد على بعض الألسنة، وهو: كيف يتحقق البر والمودة وحسن المعاشرة مع غير المسلمين، والقرآن نفسـه ينهي عن موادة الكفار واتخاذهم أولياء وحلفاء في مثل قوله: "يـا أيهـا الذي آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء...".

---

[1] – انظر "الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية" ١/١٣.

إن هذه الآيات ليست علـــى إطلاقهـــا ولاتشـــمل كـــل يهـــودي أونصراني أوكافر، ولوفهمت هكذا لنا قضت الآيات والنصوص الأخرى التي شرعت موادّة أهل الخير والمعروف من أي ديـــن كـــانوا، والتـــي أباحت مصاهرة أهل الكتاب واتخاذ زوجة كتابية، مع قوله تعـــالى فـــي الزوجية وآثارها:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الروم٢١ .

وقال تعالى في النصارى:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ المائدة٨٢ .

إنما جاءت تلك الآيات في قـــوم معـــادين للإســـلام محـــاربين للمسلمين، فلا يحل للمسلم حينذاك مناصرتهم ومظاهرتهم، وهو معنـــى الموالاة، واتخاذهم بطانة يفضي إليهم بالأسرار وحلفاء يتقرب إليهم على حساب جماعته وملته، وقد وضحت ذلك آيات أخرى كقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا

خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١١٩﴾آل عمران[1].

والقضايا التي تثير شيئاً من الجدل لدى بعض المسلمين ولدى بعض النصارى سؤال يتردد على الألسنة مفاده: كيف نصف من لم يؤمن بديننا. وهل هو كافر؟ وقد يتحرج كثيرون من أبناء الدينين من بعضهم من إعطاء جواب صريح، والجواب الصريح والصحيح، والذي لاحرج معه هو أن من لايؤمن بدين ما يعتبر كافراً بالنسبة لذلك الدين، فالكفر في اللغة وفي الاصطلاح هو نقيض الإيمان، ومن كان مؤمناً بدين ما وغير مؤمن بدين آخر، فهو كافر بالنسبة للدين الآخر، وعليه فالمسلم بالنسبة للنصراني واليهودي كافر، والأمر نفسه للنصراني بالنسبة للمسلم واليهودي، ومثله يكون اليهودي بالنسبة للمسلم والنصراني، وبالتالي فإنه لاحرج من وصف المسلمين لدى النصارى بالكفار، وكذلك لاحرج أيضاً من وصف النصارى لدى المسلمين بالكفار، لأن ما يقدره الدين ويلتزم به أنصاره يدفع عنهم أي حرج تجاه الآخرين.

وكان الداعية الدكتور يوسف القرضاوي صادقاً وصريحاً حين قال: "إن كل دين له مقوماته الجوهرية، وخصائصه الذاتية، فلا يجوز إغفال هذه المقومات والخصائص من أجل مجاملات سطحية، وكسب

---

[1] - الحلال والحرام في الإسلام ص٣٢٩، وانظر "غير المسلمين في المجتمع الإسلامي" ص٦٥ وما بعد وانظر د. عطية: المسلمون والنصارى ص٣٠٠.

معارك وهمية"[1].

من جماع ما تقدم يتبين بشكل جازم لامجال فيه لأي لبس أوتردد أن المسلمين مأمورون دينياً بالتعامل الحسن مع الناس بعامة ومع النصارى منهم بشكل خاص، وهذا التعامل الحسن لايصدر عن المسلمين من باب التسامح أوالمصالح أوجرّ المنافع، بل هو حقّ وواجب الاحترام والتنفيذ، والحق في منطق الإسلام، لايجري معه تسامح، بلا لا بدّ من الصدْع به وتنفيذه.

لكن لماذا هذه المكانة الخاصة للمسيحيين ولاسيما العرب؟؟؟

أ- لأنهم تعاملوا مع الرسول منذ أول لقاء بين المسيحية والإسلام "زيارة أهل نجران وحديث المباهلة".

ب- اندماجهم في الحضارة العربية الإسلامية ومساهمتهم الفعالة في بناء صرحها.

ج- المكانة الخاصة التي انفرد بها السيد المسيح وأمه في الوعي والوجدان الإسلامي، وهو موضوع تعريجنا عليه فما هي تلك المكانة.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عمران٥٩ .

ويقول:

---

[1] - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص٨١.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ النساء١٧١.

هاتان الآيتان تدفعان الإنسان كيما يتفكر ويتدبر، في خلق عيسى عليه السلام وولادته من امرأة بكر لم تمسها يد بشر.

فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يدعم النصارى ويؤكد معهم باعتقاد جازم ويقول لهم: الحق معكم، وإن سيدنا المسيح لم يكن له أب، وإنّ وصف القرآن له بأنه "كلمة الله" تأكيداً على أنه خلق بتقدير من الله بكلمة "كن" مثله في ذلك مثل سيدنا آدم، وهذا الموقف الجليل للإسلام من عيسى عليه السلام ووالدته كان مصدر إعجاب واغتباط من الرجال والمفكرين المسيحيين، يقول الكاردينال أتريكي ترانكون: "يسعدني كذلك أن أبرز الثناء الحار الذي يُخصّ به المسيح في بعض الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، ولاريب أن هذا يسرنا نحن المسيحيين سروراً عميقاً، ويزيد التقارب بيننا وبين محمد وإخواننا المسلمين... وعلينا نحن المسيحيين أن نعترف بالانشراح الذي نشعر به إزاء المكانة التي يحتلها في الإسلام عيسى ومريم والدين المسيحي، فالإسلام يُجِلّ عيسى كثيراً،

بالإجماع وبدون تحفظ، وإنه لمن العدل أن نعترف بذلك، فالإسلام هو – بلا ريب – الدين غير المسيحي الذي يعظم المسيح تعظيماً كبيراً"[1].

ومثال آخر جاء على لسان الأب موريس بورمانز في بحث قدمه إلى المؤتمر العالمي الإسلامي المسيحي الثاني بمدريد[2]، قال فيه: "ليس في مقدور المسيحي إلا أن يفرح فرحاً عظيماً إذا ما تثبت بالمكانة الفائقة التي خُصّ بها المسيح في مجمل القرآن: خمس عشرة سورة واثنتان وخمسون آية... ويُذكر المسيح بعدة أوصاف، فها هو يسمى نبيّاً/مريم/٣/، ورسول الله/ النساء/١٥٧/، والمائدة/٧/، ومن الصالحين/آل عمران/٤٦/، والأنعام/٨٥/، وأنعم الله عليه/المائدة/١١٠/، فجاء وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين/آل عمران/١٤٥/، وزكياً/مريم/١٩/".

كما يشيد الأب بومانز نفسه بتأكيد الإسلام طهر السيدة مريم وبراءتها من افتراءات اليهود حولها، فيقول[3]: "فبُشرت مريم مرتين بالحمل وبميلاده في عبارات أشد ما تكون قريبة من عبارات الإنجيل نفسه/مريم/١٦-٤٥/، وقد تحقق ذلك بعمل خارق للعادة، قام به الرحمن

---

[1] – عيسى ومحمد في المسيحية والإسلام: بحث من أدبيات مؤتمر قرطبة الثاني ص٥.

[2] – مواقف المسيحيين تجاه التصور الإسلامي ليسوع المسيح: ص٣ بحث من أدبيات مؤتمر قرطبة الثاني.

[3] – مواقف المسيحيين تجاه التصور الإسلامي ليسوع المسيح: ص٣، وانظر د. عطية: المرجع السابق ص٣٤.

الخالق، أليس عيسى بكلمة منه/آل عمران/٤٥/، إنه كلمته التي ألقاها إلى مريم/ النساء/١٧١/، إذ يردد القرآن: فنفخنا فيه من روحنا/الأنبياء/٩١، والتحريم/١٢/.

فما أبعدنا هاهنا – كما قال ميشال حايك[1] – عن الأقاصيص المجحفة التي مازال اليهود منذ ألفي سنة يتداولونها في كتابهم (توليدات يشوع)، فيهينون بها ذكر الابن، ويتهمون أمه بالشيء الفريّ، قائلين إنها بغيّ، فاحتج محمد أولاً والمسلمون من بعده، وأكثروا من الاحتجاجات ضد هذا البهتان العظيم.

إن الحديث عن السيدة مريم لم تُفِض فيه المصادر المسيحية كما أفاضت فيه المصادر الإسلامية قرآناً وسنة، وقصة حملها وولادتها في القرآن تضم تفصيلاً لجميع المراحل الزمنية والواقعية لهذا الحدث العظيم، ورواية المسلمين لها تثير في نفوسهم كل مشاعر البهجة والاغتباط[2].

لقد بدأت قصة مريم في القرآن من قبل أن تخلق مريم نفسها، وذلك عبر الحديث عن أمها حنّة زوجة عمران، وكانت من العابدات الصالحات، وكانت قد أسنّت واشتهت الولد، ونذرت لله إن حملت لتجعلّن ولدها محرراً – أي حبيساً – في خدمة بيت المقدس[3].

---

[1] – المسيح في الإسلام: ميشال حايك وردت في الصفحة ٢٨٤ من بحث الأب بورمانز.

[2] – د. عطية: المرجع السابق ص٣٥.

[3] – انظر البداية والنهاية: ٢/٥٦.

وجاءت رواية هذا النذر في القرآن:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾آل عمران٣٥.

وتساوقت الآيات في عدد من المواضع في القرآن الكريم تتـابع الحدث خطوة خطوة، لقد وضعت أم مريم، ولكن المولود جاء على غير ما نذرت، لم يكن الولد ذكراً كما كانت تتمنى، بل كان أنثـى، وسـلمت المرأة الصالحة أمرها إلى الله، وسمتها مريم وحصّنتها بإعاذتها بالله من الشيطان الرجيم:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾آل عمران٣٦

وأحسن الرب الكريم قبولها وأحسن إنشـاءها، وكفلّهـا زكريـا ليرعاها، وخصها بكرمات لم تكن مألوفة عند الناس:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾آل عمران٣٧.

وزادها الله سبحانه كرامة، وأغدق عليها صفات الطهر والتعبـد،

وفضلها على نساء العالمين، وأبلغها بذلك عن طريق الملائكة تهيئة لنفسها للحدث العظيم المرتقب:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿ ٤٢ ﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ﴿ ٤٣ ﴾ آل عمران.

واستجابت مريم لأمر ربها، وابتعدت عن الناس وخلَتْ بنفسها للعبادة:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴿ ١٦ ﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ مريم.

ولكن هذه الخلوة التي اختلتها للتعبد اهتزت حين فوجئت بمن يقتحمها عليها، وكان هذا المقتحم هو الروح الأمين جبريل عليه السلام، الذي تمثل أمامها بصورة البشر:

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ مريم١٧.

ولنتصورْ نحن الآن حالة الروع النفسية التي اعترت مريم حين

رأت – وهي منفردة عن الناس في مكان قصي – بشراً ينتصب أمامها، ولكنها تجلدت، وتجرأت ودار بينهما الحوار الطريف[1] التالي:

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴿ ١٨ ﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً ﴿ ١٩ ﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴿ ٢٠ ﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ مريم.

وجاءتها الملائكة بعد جبريل لتحدثها بتفصيل عن هذا الولد وصفاته وعمّا سيكون له من شأن:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ ٤٥ ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ ٤٦ ﴾ آل عمران.

وناجت مريم ربها ضارعة إليه، مكررة عذريتها، مستغربة ما تُبَشّر به من الولد:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ . ﴾ آل عمران٤٧ .

---

[1] - د. عطية: المرجع السابق ص٣٦.

وجاءها الجواب الحاسم:

﴿ . . . . .قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾آل عمران٤٧ .

لقد نال مريم من الذعر ما ينال كل بكر طاهرة بتول حين ينسب إليها حمل ووضع، ولكنها صبرت لأمر الله، ثم أحست بالحمل وشعرت بالحرج وازدادت بعداً عن الناس:

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾مريم٢٢ .

وبعد الحمل مخاض، لجأت معه إلى جذع نخلة تستند إليها، وتناجي نفسها متمنية الموت على الفضيحة المحتملة:

﴿ فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾مريم٢٣ .

ولكن رحمة ربها لم تتركها في هذا القلق، وجاءها صوت يطمئنها، صوت جبريل أوصوت الوليد – على اختلاف لدى المفسرين – يطلب منها أن تدع الحزن جانباً، وأن أمرَ معاشها مؤمّن من خلال جدول ماء بقربها ورطب جنيّ تساقطه عليها النخلةَ التي لجأت إليها:

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴿ ٢٤ ﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴿ ٢٥ ﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً . . . . ﴾ ﴿ ٢٦ ﴾مريم.

وجاءها التوجيه بالاستعداد للرد على هجوم الناس إذا رأوها

وطفلها، وذلك بأن تمتنع عن الكلام معهم[1]:

﴿ . . . . فإمَّا ترَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فقولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً ﴾ مريم٢٦.

- وحدثتْ المواجهة، وابتداء الهجوم، وروّعت بأقسى اتهام: "فأتــت به قومها تحمله، قالوا:

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴿ ٢٧ ﴾ يَـا أُخْـتَ هَـارُونَ مَـا كَـانَ أَبـوكِ امْـرَأَ سَـوْءٍ وَمَـا كَانَـتْ أُمُّـكِ بَغِيّاً ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ مريم.

وكان جوابها الإشارةُ إلى الطفل المعجزة النبي كلمة الله ورسوله، الذي ابتدر جوابهم عن أمه، فقال يعرفهم بنفسه:

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴿ ٣٠ ﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴿ ٣١ ﴾ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴿ ٣٢ ﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴿ ٣٣ ﴾ مريم.

إنه عيسى:

---

[1] - د. عطية: المرجع السابق ص٢٧.

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ مريم٣٤.

وكفى بمريم فخراً لدى المسلمين ولدى النصارى – على السواء – وعدا أنها أم لنبي عظيم، ذلك الإجلال الذي كرمها الله ورسوله به، فحيثما ذكرت في القرآن ذكرت موصوفة بالطهر والعفاف:

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ التحريم١٢.

وهي صدّيقة:

﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ المائدة٧٥.

وقد كذّب الله اليهود أبلغ تكذيب حين افتروا عليها وعلى عفتها بالبهت والكذب:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ النساء١٥٦

وسجل لها رسول الله (ص) مكانة لاتُدانى حين نعتها بأنها من خير نساء الدنيا: "خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة"[1]، وحين قال عنها: "لم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة

---

[1] – صحيح البخاري ٤/٣١٨ (كتاب الأنبياء).

فرعون"[1]، وحين قال أيضاً: "ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان غير مريم وابنها"[2].

ويتلو أبو هريرة راوي هذا الحديث الآية الكريمة على لسان أم مريم:

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾آل عمران٣٦[3].

ولعلّ من طريف العادات عند مسلمي مدينة حلب بالذات، أن يقدموا لكل نُفَساء صبيحة ولادتها هدية تتمثل في سفرة عامرة بالطعام – وبالحلوى منها بشكل خاص – ويسمونها "سفرة مريم"، وتعليلها لديهم أن السيدة مريم حين وضعت طفلها كانت وحيدة، وحزينة ولم يفرح لها أحد بالمولود، فهم يعوّضونها وبعد آلاف السنين عما فقدته من البر وكأنهم يشاركونها فرحتها بمولودها العظيم[4]، أما عيسى عليه السلام – نبي الله ورسوله – فقد أشاد الإسلام بذكره وبسيرته، قال تعالى:

---

[1] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[2] – صحيح البخاري ٣١٧/٤ (كتاب الأنبياء)، وصحيح مسلم – كتاب الفضائل ٩٦/٧.

[3] – المصدران نفسهما والصفحتان نفسهما، وانظر د. عطية: المرجع السابق ص٣٨.

[4] – د. عطية: المرجع السابق ص٣٩.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد٢٧.

ومنها: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ النساء١٧١.

ومنها: ﴿. . .وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ. . .﴾ البقرة٨٧و٢٥٣.

ومنها: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ مريم٣٤.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأنعام٨٥.

وقال الرسول الكريم: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك

له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدُ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"[1].

وقال في موضع آخر: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاّت[2]، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد"[3]، كما يقول في موضع آخر: "أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علاّت، ليس بيني وبينه نبي"[4]، بل لقد بشر بأن عيسى عليه السلام سيعود إلى الدنيا في آخر الزمان مهدياً وحكيماً مقسطاً[5].

وفيما يلي المعتقدات المشتركة بين الإسلام والمسيحية حول السيد المسيح:

١- ولادته عليه السلام بدون أب

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ

---

[1] – صحيح البخاري – كتاب الأنبياء – باب يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ٣١٩/٤.

[2] – العلاّت، بنو أمهات شتى من رجل وحد (القاموس المحيط، مادة علل).

[3] – صحيح البخاري – كتاب الأنبياء – ٣٢٣/٤.

[4] – صحيح البخاري – كتاب الأنبياء ٣٢٢/٤ وصحيح مسلم – كتاب الفضائل ١٤٣/٧، وسنن أبي داود الحديث رقم ٤٦٧٥.

[5] – انظر مسند أحمد بن حنبل ٤١١/٢ وسنن الترمذي الحديث ٢٣٣ وسنن ابن ماجة الحديث/٤٠٧٧.

قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران٥٩.

وقال: ﴿ ... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ... ﴾ النساء١٧١.

والمسيحية تؤكد هذه الحقيقة: "ها إن العذراء تحمل وتلد طفلاً/متى ١/٢٣"، و"فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا، وأنا لاأعرف رجلاً، فأجاب الملاك وقال لها: إن الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي العظيم تظلك/لوقا/٢٥".

٢ـ أم سيدنا عيسى هي مريم البتول:

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ مريم٣٤

و ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ.... ﴾ الحديد٢٧

والمسيحيون يؤكدون ذلك: "أليست أمه تسمى مريم/متى/٢٣/٥٥"، و"فقال الملاك: لاتخافي يا مريم فإنك قد نلت نعمة الله، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً يسمى يسوع/لوقا/١-٢٠-٢٢".

٣ـ عيسى عليه السلام "كلمة الله":

إن لقب "كلمة الله" للسيد المسيح عليه السلام، هو لقب مشترك عند المسلمين وعند النصارى، ولكن مفسري القرآن من علماء المسلمين وقفوا عند المعنى اللغوي للكلمة أي "الأمر"، وذلك بأن كلّم الله بكلمة

"كن"، فكان هذا الحادث غير العادي، وهو ولادة طفل من أم بدون اشتراك أب في التوليد:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾آل عمران٤٥.

و﴿ . . .إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ. . . ﴾النساء١٧١.

أما في المسيحية، فإن الكلمة تعني السيد المسيح "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله/يوحنا١/١"[1].

هذا وسنوسع هذه "الكلمة" إضاءة في المستقبل.

٤ـ عيسى عليه السلام اسمه المسيح:

هذه التسمية وردت كثيراً في القرآن:

﴿ . . . وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ. . . ﴾المائدة٧٢

و﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

---

[1] – د. عطية: المرجع السابق ص ٤٢.

الرُّسُلُ . . . ﴾المائدة٧٥.

وفي النصرانية وردت هذه التسمية أيضاً: "لأن الناموس أُعطى لموسى، وأما النعمة والحق فيسوع المسيح /يوحنا ١٧/١" و"إنه هو المسيح ملك إسرائيل/لوقا ٣٢/١٥".

٥ـ وهو رسول الله

عيسى بن مريم في معتقد المسلمين رسول أرسل إلى بني إسرائيل:

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . ﴾ ﴿٤٩﴾ آل عمران.

و﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . . ﴾المائدة٧٥.

أما في المسيحية فإن عيسى عليه السلام رسول، وقد ورد ذلك على لسانه في الأناجيل: "إن روح الرب عليّ، ولأجل ذلك مسحني وأرسلني لأبشر المساكين/لوقا ١٨/١٤"، و"مَنْ قَبِلَكُمْ فقد قبلني، ومن قبلني فقد قبل الذي أرسلني/متى/١٠/٤٠"، و"قال لهم: لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل/متى/١٥/٢٤".

٦ـ وهو نبي

عيسى نبي مرسل بصريح القرآن الكريم:

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾مريم٣٠.

و ﴿ . . . .وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ . . . . ﴾ آل عمران٨٤.

وهو لدى النصارى نبي صراحة: "ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلين من هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصره الجليل/متى/٢١/١١"، كما يصف نفسه بأنه نبيّ إشارة أوكناية: "وقال لهم: الحقّ أقول لكم ليس نبياً مقبولاً في وطنه/لوقا/٤/٢٤"، و"وكانوا يشكّون فيه، فقال لهم يسوع: لايكون نبياً بلا كرامة إلا في وطنه وبيته/متى/١٣/٢٥".

٧ـ وصاحب معجزات

نسب الإسلام إلى عيسى عليه السلام معجزات تصدر عنه بإذن ربه، وتعزز نبوته، منها قدرته على تحويل هيئة طير من الطين ينفخ فيه فيصبح طيراً، ومنها إبراؤه الأكمة[1] والأبرص، ومنها إحياؤه الموتى بإذن الله، ومنها كذلك إخبار الناس بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم:

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا

[1] – الكمَة: العمى منذ الولادة وانظر د. عطية: المرجع السابق ص٤٣.

تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران٤٩.

و﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ المائدة١١٠.

وترد في النصرانية نفس المعجزات له عليه السلام، ما عدا خلق الطير من الطين: فقد شفى الأبرص: "فجاء إليه أبرص وسأله ساجداً له قائلاً: إن شئت فأنت قادر أن تطهرني فتحنن له يسوع وقال له: قد شئت فاطهر، وفيما هو بكلمة للوقت ذهب عنه البرص/مرقس/١-٤١-٤٢وانظر متى ٨/٢-٣"، كما شفى الأعمى الأكمه:

"وفيما يسوع مجتاز رأى رجلاً أعمى منذ مولده فسأله تلاميذه قائلين: يارب: من أخطأ؟ هذا أم أبوه؟ أجاب يسوع لاهذا أخطأ ولاأبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه.. قال هذا وتفل على التراب وصنع من تفلته طيناً، وطلى بالطين عيني الأعمى، وقال له اذهب واغتسل في بركة سِلْوامَ الذي تفسيره المرسل، فمضى واغتسل وعاد بصيراً/يوحنا/٩/١-

٧" وانظر شفاء أعميين آخرين (متى/٩/٢٧).

وقد أحيا الموتى كذلك: "فلما قرب من باب المدينة إذا ميّت محمول وهو ابن وحيد لأمه، كانت أرملة وكان معها جمع كثير من المدينة، فلما رآها الرب تحنّن عليها وقال لها لاتبكي، ودنا ومس النعش، فوقف الحاملون فقال: أيها الشاب: لك أقول: قم، فاستوى الميت وبدأ يتكلم فسلمه إلى أمه/لوقا/٧/١٢-١٥".

ونختتم بحثنا في الكلمة الرائعة العامرة التي رددها الدكتور صبحي الصالح: "هذه هي الصورة المشرقة الحيّة التي رسمها القرآن للسيد المسيح، وإن المسلم ليرى هذه الصورة كل ساعة من ليل أونهار وكل لحظة من ساعة أوزمان، ولدى كل رعشة من قلب يَوْجل وكل خلجة من نفس تخفق، كلما ذكرنا نبينا ذكرناه، وكلما عظمنا نبينا عظمناه، وإذا تلونا كتاب الله رأينا "كلمته" عيسى بن مريم يطلع علينا وضاح الجبين متلألئاً بالنور في الحرف الذي نخرجه شافياً واللفظ الذي نرتله صافياً، والمقطع الذي نتدبره هادياً، فسلام عليه في الخالدين وسلام على إخوانه المسيحيين"[1].

ب- موقع المسلمين في قلب المسيحيين

إن الإنجيل هو دعوة إلى المحبة والوحدة والغفران والسلام: لن نستعرض الآيات الكثيرة في هذا الموضوع، إنما سننتقل فوراً إلى تعليم

---

[1] – الأسس المشتركة بين الديانتين في ميادين المعتقدات: بحث من أدبيات ذروة الحوار الإسلامي المسيحي بطرابلس ١٩٧٦ وانظر د. عطية: المرجع السابق ص٤٤.

الكنيسة الرسمي ابتداءً من المجمع الفاتيكاني الثاني سنة ١٩٦٥ في الحوار بين الأديان والعلاقات مع المسلمين.

١ـ الوثيقة المجمعية في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية

تبدأ بالقول: "في هذا العصر الذي يتزايد فيه يوماً بعد يوم، توثق اتحاد الجنسين البشري، وتزداد فيه علاقات الشعوب بعضها ببعض، تنظر الكنيسة بتبصّر في ما تكون عليه علاقاتها بالأديان غير المسيحية، فإنها في مهمتها الرامية إلى تعزيز الوحدة بين الناس، فتظهر ههنا في ما هو مشترك بين الناس ويحدوهم على أن يحيوا مصيرهم المشترك"[١].

إن مهمّة الكنيسة هي تعزيز الوحدة بين الناس والشعوب، فمحبة الله تفترض محبة القريب.

يتابع النص قائلاً: "ذلك بأن جميع الشعوب يؤلفون أسرة واحدة، فهم جميعاً من أصل واحد، إذ أسكن الله الجنس البشري كله على وجه الأرض، ولهم جميعاً غاية قصوى واحدة، وهي الله يبسط على الجميع كنف عنايته وآيات لطفه ومقاصده الخلاصية، إلى أن يجتمع مختاروه في المدينة المقدّسة التي يضيئها مجد الله، وفي نوره تسلك الشعوب جميعاً"[٢].

على الأديان أن تؤدي أجوبة عن تساؤلات الناس، يقول نص

---

[١] – البيان المجمعي، علاقة الكنيسة بالأديان، غير المسيحية، ١٩٦٥، الفقرة/١/ وانظر انطوان ضو مقال موسوم بعنوان للمسيحيون في عالمنا العربي والإسلامي منشور في مجلة المنابر، بيروت "السنة" العدد ٨١ سنة ٩٩٧ص ٣٧.

[٢] – المرجع ذاته، الفقرة /١/.

المجمع الفاتيكاني الثاني: "وينظر الناس من الأديان المختلفة جواباً على الألغاز الخفيّة لواقع الإنسان التي ما فتئت في الأمس ولم تفتأ اليوم أيضاً تدخل القلق البالغ على قلب الإنسان: فما الإنسان؟ وما معنى الحياة وغايتها؟ ما الخير والخطيئة؟ وما أصل العذاب وغايته؟ ما الطريق إلى السعادة الحقّة؟ ما الموت والدينونة؟ وما الثواب بعد الممات؟ وأخيراً ما السرّ القصيّ الذي يكتنف وجودها ويسمو على الإدراك، وهو المبدأ وإليه المعاد؟"[1].

الكنيسة تحترم جميع الأديان: "والكنيسة الكاثوليكية لاتنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حق ومقدّس، وتولي تقديرها باحترام صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم التي وإن اختلفت في أمور كثيرة مما تقول به وتعلّمه، تحمل غير مره قبساً من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس، من أجل ذلك تحرّض أبناءها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها وإنمائها، وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم بمقتضى الفطنة والمحبّة، مع الشهادة للإيمان والحياة المسيحية"[2].

٢ـ العلاقة مع المسلمين

يصرّح المجمع عن الديانات الإسلامية قائلاً: "إن الكنيسة تنظر

---

[1] – المرجع ذاته، الفقرة /١/ وانظر د. انطوان ضو: المسيحيون، المرجع السابق ص٣٨.

[2] – المرجع السابق ذاته.

بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الأوحد، الحيّ القيّوم، الرحيم القدير، خالق السماء والأرض، الذي وجّه كلامه إلى البشر، وإنهم يسعون في الخضوع بكل نفوسهم لأحكامه الخفيّة كما خضع إبراهيم لله، الذي ينتمي إليه الإيمان الإسلامي بطيبة خاطر.

وإنهم يجلّون يسوع كنبي، وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرّمون مريم أمه العذراء كما أنهم يدعونها أحياناً بتقوى.

وعلى ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدين الذي فيه سوف يبعث الله الناس وسيجازيهم، ولذلك يشدّدون على السلوك الأخلاقي، ويعبدون الله خصوصاً بالصلاة والصدقة والصوم.

وإذا كانت قد نشأت على مرّ القرون منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدّس يحضّ الجميع على أن يتناسوا الماضي، ويسعوا في تحقيق تفاهم صادق بينهم، ويعملوا معاً على صيانة ودعم العدل في المجتمع والقيم الأخلاقية، وأيضاً السلام والحرية لجميع البشر"[1].

المسيحيون العرب في فكر بطاركة المشرق الكاثوليك:

إن مجلس بطاركة المشرق الكاثوليك أصدر عدة رسائل إلى المسيحيين في العالم العربي، حدّد فيها موقفه الواضح من مواضع العلاقات المسيحية الإسلامية في العالم العربي والعيش المشترك والقضايا الوطنية المشتركة، نذكر منها:

---

[1] - علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية: الفقرة /١/.

١ـ عرب أصليون

"إن بناء الكنيسة في كل زمان ومكان متأصلون في مجتمعاتهم وهم جزء منها لاينفصل عنها، فإنهم يشاركون جميع إخوتهم المواطنين في السرّاء والضرّاء، في وحدة الوطن والتاريخ والمصير"[١].

٢ـ منذ نشأة المسيحية

"يعود الحضور المسيحي في معظم البلدان العربية إلى نشأة المسيحية، ويشهد التاريخ على وجود جماعات مسيحية عربية في مختلف مناطق الشرق، وبمجيء الإسلام في القرن السابع بدأ تاريخ مشترك جمع بين المسيحيين والمسلمين في الشرق العربي، وحضارة مشتركة ورثت جميع الحضارات السابقة في هذه البلاد.

ولقد أدت خبرة الماضي بالمسلمين والمسيحيين إلى الانصهار في بوتقة واحدة هي الحضارة العربية، مع احتفاظ كلٍّ منها بأصالته الدينية وخصوصيات تقاليده، ويشكّل هذا التراث الحضاري المشترك ضماناً لاستمرارية التفاعل الذي يواجه اليوم مستجدّات لابد من استيعابها، وبإمكانات لابد من بلورتها، وتحديات لابد من مواجهتها، وهذا كله يفتح الأبواب واسعة أمام مستقبل هذه الخبرة بكل حيويتها وأصالتها"[٢].

---

[١] – مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، معاً أمام الله، في سبيل الإنسان والمجتمع، العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي، بكركي ١٩٤٤، الفقرة/٩.

[٢] – المرجع ذاته الفقرة/١٠/، إن مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك قد أصدر رسائل عدة في ٢٤ آب ١٩٩١، وعيد الفصح ١٩٩٢، وعيد الميلاد ١٩٩٤، وعيد الميلاد ١٩٩٦، سرّ (الكنيسة).

٢- تلاقي على المستوى الثقافي

إن التلاقي المسيحي الإسلامي ظهر على المستويين الثقافي والشعبي، "أما على المستوى الثقافي فقد تعاون رجال العلم المسلمون والمسيحيون وعملوا جنباً إلى جنب لإرساء أركان حضارة مشتركة، تحولت فيما بعد إلى منارة للإنسانية طيلة عصور كثيرة متعاقبة، واستمر هذا التعاون مدى الأجيال وظهر بنوع خاص في العصور الحديثة، وهذا إرث نفتخر ونعتز به لأنه مرجع من مراجع تأصلنا وأصالتنا وغنى عيشنا المشترك.

عندما وجدت اللغة العربية طريقها إلى الجماعات المسيحية في منطقتنا، على اختلاف انتماءاتها الكنسية، أصبحت في الغالب وبسرعة أداة تعبيرها اللاهوتي والكنسي والطقسي واليومي، وهذا ما أسهم في بناء جسور التواصل بينها وبين هذا العالم الجديد الذي نشأ كما أسهم في الوقت عينه في إعادة التواصل الثقافي بين مختلف كنائسها، بعد عهد من القطيعة والغربة.

إن التراث العربي المسيحي هو الوجه المشرق لهذا الغنى الثقافي في الكنائس المسيحية المختلفة في ظل الحضارة العربية، ولابد من القول إن جزءاً كبيراً من هذا الفكر نما وترعرع في علاقة بالإسلام، وهذا يعطيه طابعه الخاص والمميّز ضمن التراث المسيحي العام، ولقد أتاح التسامح الديني السائد في الحضارة العربية والإسلامية قيام حوارات دينية جادّة بين مسلمين ومسيحيين تجدر الإشارة إليها، بالرغم من روح الجدل العقيم الذي اتسّم بها بعضها أحياناً"[1].

---

[1] – المرجع ذاته/ الفقرة/١١.

٤- على المستوى الشعبي

وأما على المستوى الشعبي، فقد اندمج المسيحيون والمسلمون في مجتمع واحد يتقاسمون فيه "العيش والملح" ويقف منهم إلى جانب الآخر في السرّاء والضرّاء، في ظل قيم مشتركة، وأنماط خاصة تجمعهم وتوحدهم، وتكونت عادات وتقاليد لاتزال حتى اليوم تميز مجتمعنا وتدمغه بطابعها الخاص، لافرق في ذلك بين مسلمين ومسيحيين، وطوّر الطرفان حكمة شعبية خاصة بهم، تتّسم بالرزانة والتعقّل والصبر، استمدها من حضارتهما المشتركة، يواجهان فيها صروف الدهر والخلافات التي يمكن أن تطرأ عليها، واليوم بينما نواجه قضايا الحاضر ونتحسّس سبل المستقبل، يجدر بنا أن نستلهم هذه الحكمة الشعبية الأصلية التي صقلتها أجيال من التلاحم وأورثتاها إياها وبها نواجه المشاكل اليومية التي لايخلو منها أي مجتمع من المجتمعات، إن ذاكرتنا الجماعية المشتركة ضمان لديمومة عيشنا المشترك[1].

٥- سلبيات وظلال

مع كل هذا لانود أن نغض النظر عن السلبيات التي علقت بهذه الخبرة وقد يكون ذلك من صلب كل خبرة تاريخية، إن الظاهرة التي ذكرناها هي واقع تاريخي حيّ لايمكن أن تخلو جوانبه المضيئة من ظلال، فقد عشنا معاً فترات صعبة من التصلب والقسوة والتعدي.

ولقد لعبت دوراً مهماً في هذه الفترات الصعبة حسابات سياسية

---

[1] - المرجع ذاته، الفقرة /١٢/.

وظروف نفسية واجتماعية واقتصادية ونزعات تعصب ديني وأمزجة حكام متقلّبين ونزعات طائفية وحروب دينية، وغيرها من العوامل ومن الطبيعي أن تخلّف وراءها لدى الطرفين رواسب نفسية واجتماعيـــة، لابـــد مـــن أن نأخذها بعين الاعتبار، لنعمل على تشخيصها ومداواتها، بينما نقف الآن على عتبة حقبة جديدة من علاقاتنا المتبادلة، فمن لايتصالح مـــع ماضـــيه بكـــل جوانبه يظل عاجزاً عن مواجهة حاضره ومستقبله مواجهة سريّة"[١].

٦- العلاقات الوطنية

يواجه العالم العربي مشاكل كبرى من بينها علاقته مع المواطنين على اختلاف معتقداتهم، ولاسيما مع المسيحيين الذين شـــاركوه "العـــيش والملح" منذ فجر الإسلام، "فالمسلمون يتحمّلون مسؤولية كبرى في هـــذا المجال لأنهم يكوّنون العدد الأكبر في المنطقة، فهم مدعوون إلى طمأنـــة المؤمنين المسيحيين الذي يعيشون معهم في الوطن الواحد، فإذا مـــا أراد المسلمون في الشرق العربي أن يطوّروا أي مشروع لنظـــام اجتمـــاعي وسياسي، فلا بدّ من أن يأخذوا بالحسبان الجماعة المسيحية بشكل يعطيها الثقة، ولايكفي المحافظة على حقوقها الدينية فقط، وإنما الذي يبعث على الاطمئنان هو اعتباره جزءاً لاينفصل عن حياة المجتمع، وأنهـــا كاملـــة العضوية في الجماعة الوطنية بكل مالهذه الجماعة من حقوق وواجبـــات والمسيحيون من جانبهم يتحمّلون مسؤولية تدعوهم إلى الـــتخلّص مـــن بعض المواقف الاجتماعية والنفسية السلبية التي خلّفها لهم التاريخ، وأن إيمانهم قادر على أن يحررهم من كل ما يحول دون قبولهم لذواتهم ودون

---

[١] - المرجع ذاته، الفقرة /١٣/، وانظر د. حنو: المرجع السابق ص٤١.

تلاقيهم مع الآخر، فيتحول حضورهم إلى التزام إيجابي وصادق وحــازم في حياة مجتمعاتهم"[1].

٢- المشاركة في الحياة العامة:

إن المشاركة في الحياة العامة حق لكل مواطن وواجــب عليــه، وهذا ما يتطلب من المجتمع نفسه أن يوفّر الشروط المؤاتية الضــرورية التي تكفل ممارسة هذا الحق والقيام بهذا الواجب.

فمن حق كل فئة وطنية أن تُسهم في بناء المجتمع بجميع مجالات الحياة الوطنية فيه (أجهزة الدولة والمؤسسات العامة والخاصة والوظائف والمصالح الاقتصادية وغيرها)، وهذا يعني ألا يُهَمَّش أحد لسبب انتمائه الديني أو لأيّ سبب من الأسباب، بل تُتاح الفرص لكل مواطن، أياً كان، مهما كانت عقيدته، لكي يجد موقعه في الحياة العامة بعيداً عن الحــدود والحساسيات الطائفية.

ومن ناحية أخرى، فمن واجب كلّ فئة وطنية مهما كان انتماؤها الديني أن تولي الشأن العام وخدمة المجتمع جُلّ اهتمامها، فتقوم بواجبها بكل تفانٍ وصدق وأمانة بعيداً عن النزعات الانعزالية التي تحرم المجتمع عطاء جميع أبنائه.

لايزال الطريق أمامنا طويلاً قبل أن نصل إلى مجتمع تتكافأ فيــه الفرص للجميع، بعيداً عن أي تمييز، ومع ذلك لابدّ من مواصلة الجهــد في هذا الاتجاه"[2].

---

[1] - المرجع ذاته، الفقرة /١٥/.

[2] - المرجع ذاته، الفقرة /١٧/.

٨ـ الأوهام والأحكام المسبقة:

"إن ظاهرة الأوهام والأحكام المسبقة معروفة في علاقات الفئات الاجتماعية المختلفة، لابل وفي علاقات الأفراد أنفسهم، وإنها تشكلً عقبة كأداء في وجه التعامل السوي والمثمر بين الأفراد والجماعات الإنسانية، ومن المعروف أيضاً أن هذه الأوهام والأحكام المسبقة التي بها تصنَف الآخرين، تنشأ في القلب البشري وتتحكمّ به وتوجه تصرفاته وردود فعله، بعيداً عن أية عقلانية أوموضوعية، مسببة الخلل والتمزق في نسيج الحياة الاجتماعية وهذا مايحصل في مجال العلاقات المسيحية الإسلامية في بلادنا، حيث يتوارث الطرفان أوهاماً وصوراً خلّفتها الأجيال من غير تمحيص وحولتها إلى أحكام مسبقة سلبية بالنسبة إلى الطرف الآخر، ولذلك كثيراً ما نرى عند كل من الطرفين خوفاً متبادلاً لاأساس له، وتأويلات طائفية لامبرر لها، إثر صدامات فردية أوحوادث أخرى مادية ليس لها أية صلة بالدين.

وقد يفتقر مجتمعنا الشرقي في كثير من الأحيان إلى التصرف العقلاني مما يجعله ضحية سهلة للإشاعات والأقاويل وللتأويلات والانفعالات المتسرّعة وعندما يكون الدين موضوع هذه المشاعر، فمن السهل أن نفهم آلية الدمار والفتنة التي تنجم عنها، في مجالات الحياة الفردية والعامة، وهذا يفرض على المسئولين من كلا الطرفين الحيطة والحذر والسهر، والعمل على تحديد هذه الظاهرة وتحليلها ووضع حدّ لها عن طريق حوار منتظم وضماناً لاستقرار المجتمع والوطن[١].

---

[١] – المرجع ذاته، الفقرة /١٣/.

٩ـ خبرة أساسية:

"إن العيش المشترك بيننا على مدى قرون طويلة يشكل خبرة أساسية لاعودة فيها وجزءاً من مشيئة الله علينا وعليهم"[١].

١٠ـ المواطنة:

تقوم المواطنية بالتأصل في الأرض والشعب وبالولاء الحقيقي للوطن والالتزام بخدمة الخير العام، وتفترض المساواة الكاملة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، بعيداً عن أي تمييز ينشأ بسبب المعتقد الديني أوالسياسي، أواللون والعرق والجنس، حيث إن لاأحد أفضل من غيره إلاّ بولائه لوطنه وخدمته له ولهذا يجب أن يتمكن الجميع من المشاركة في المشروع الوطني، وعلى المجتمع والمسئولين فيه أن يضمنوا تكافؤ الفرص للجميع بعيداً عن أية اعتبارات لاتخدم مصلحة الوطن[٢].

وللإيمان والقيم الدينية والروحية دور هام في السمو بالإنسان إلى مستوى رفيع من المواطنية، فالقيم التي تنادي بها الأديان بمعناها الصحيح، بالإضافة إلى المجد الذي ترفعه إلى الباري تعالى، تدخل في نسيج الحياة السياسية والاجتماعية لتبعث في الإنسان مفهوم مواطنيه منزّهة عن كل هوى وأنانية وانتهازية وفساد، بل تولّد انتماءً حقيقياً يسعى إلى الخير العام والمصلحة الوطنية الحقيقية.

---

[١] – الحضور المسيحي في الشرق ص٤٤.

[٢] – د. انطوان ضو: المرجع السابق ص٤٣.

إن مفاهيم التأصل والولاء والإخلاص والمساواة والمشاركة التي تتأسس عليها المواطنية الحقة تجد في الممارسة الإيمانية الحياتية حافزاً لها وضماناً وعلاوة على ذلك، يمكن أن يكون المؤمنون بالله، إذا ما أخلصوا الولاء لقيمهم الدينية، ضمير الأمة، يرفعون صوتهم عالياً للتنديد بمظاهر الفساد السياسي والاجتماعي بتعزيز القيم التي يتأسّس عليها كل مجتمع سليم[1].

١١ـ المشاركة الحرة والمسئولة:

لايمكن أن تكون الحياة العامة حكراً على فرد أوفئة أوحزب أوعشيرة أوطبقة، بل يجب أن يفسح المجال لفئات المجتمع كافة للمشاركة بشكل من الأشكال في اتخاذ القرار الذي يتصل بحياة الأمة، وهذا يتطلب من أي نظام سياسي أواجتماعي أن يكفل هذا الحق لكل مواطن، فيمارسه بحرية ومسؤولية أمام الله وضميره والمجتمع، وهذا كله يرتبط بنوعية العلاقات القائمة في المجتمع، والتي يجب أن تتسم باحترام الرأي الآخر وإعطائه مجال التعبير الحرّ عن نفسه وإمكانية تطوير حياته الفردية والجماعية، بعيداً عن الضغوط من أي نوع كانت، ضمن إطار قانون عادل وواضح وفي هذا المجال لايهمّ العدد الأكثر والأقل، فالحقوق والواجبات لاتتسع ولاتتقلّص مع نسبة العدد، بل هي مؤسسة على الطبيعة الإنسانية نفسها وعلى الكرامة التي منحها الله لكل إنسان، ولذلك من واجب القانون أن يساوي بين الجميع وأن يحمي الجميع على السواء، مهما كانت ديانتهم، ومهما كان عددهم.

---

[1] – المرجع ذاته، الفقرة /٣٢/.

ومما لاشك فيه أن هذا النهج من المشاركة الحـــرة والمســؤولة يشوبه الكثير من الاضطراب في مجتمعاتنا العربية، التي غالباً ما تتحكّم فيه الروح العشائرية والقبلية والفئوية والحزبية المتسلطة، ناهيك بالفساد بكل أشكاله الذي تفرزه مثل هذه الأوضاع، وهذا يتطلب إصلاحاً سريعاً قبل أن تتفاقم الأمور وتصل بنا إلى ما لاتحمـــد عقبـــاه، وكـــذلك فـــإن المواطنية بمعناها الحقيقي بحاجة إلى جهد تربوي واضح ومكثّف يبـــدأ بالبيت ليصل إل المراجع التربوية كافة، بغية تنشئة مواطن حرّ ومسؤول وواع، قادر على المشاركة في الحياة العامة مشاركة سويّة، وقادر علـــى تقديم المصلحة العامة على مصالحه الفردية أوالفئوية، ولاشك أننا مازلنا بعيدين عن الهدف، والعمل الكثير الكثير في هذا الاتجاه لايزال ينتظـــر مجتمعاتنا العربية[١].

١٢ـ من أجل الإنسان والمجتمع:

إن المسيحي والمسيحي العربي بشكل خـــاص، لايبحـــث عـــن امتيازات يجد فيها أمناً نفسياً مزيّفاً، كل ما يريده هو امتيـــاز الخدمـــة، خدمة كل إنسان وكل المجتمع، لقد نوّهنا في رسالتنا السابقة إلى الإنسان المتألم في شرقنا، هذا هو الإنسان الذي نريد أن نتضامن معه ونخدمـــه، فتكون دوماً في المواقع المتقدمة للدفاع عنه، عندما يجوع ويمرض ويُنبَذ ويتعرض لجميع أصناف القهر والقمع والظلم والمعاناة، وفي هذا العمـــل لسنا وحدنا ولانقوم به وحدنا، فهنالك الكثيرون في مجتمعنـــا مـــن كـــل الاتجاهات يضعون الإنسان على رأس قائمة اهتمامتهم، إننا نضع أيـــدينا

---

[١] – المرجع السابق /الفقرة/٣٣.

في أيديهم لملاقاة جميع المتألمين، فالإنسان المتألم يجمع بين البشر أكثر مما تجمعهم الأفكار المجردة ونحن نعرف تمام المعرفة أن كل ما نصنعه لأحد إخوتنا المتألمين إنما للمسيح نفعله: "لقد جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني، وكنت غريباً فآويتموني، وعرياناً فكسوتموني، ومريضاً فعدتموني، وسجيناً فجئتم إليّ.... الحقّ أقول لكم: كلما صنعتم شيئاً من ذلك لواحد من أخوتي هؤلاء الصغار فلي قد صنعتموه" (متى٢٥/٣٥-٣٦-٤٠)[١].

١٣ـ الإرشاد الرسولي:

الإرشاد الرسولي "رجاء جديد للبنان" هو تعليم البابا يوحنا بولس الثاني الرسمي بعد السينودوس من أجل لبنان (١٩٩١-١٩٩٥)، وقد وقعه في بيروت في العاشر من أيار ١٩٩٧ أثناء زيارته إلى لبنان.

هذا النص الكنسي الرسمي الغني بالأفكار والتوجهات هو دعوة إلى التجدد والإصلاح والالتزام بحياة الكنيسة والإنسان والوطن، في الفصلين الأخيرين وهما بعنوان "الكنيسة الكاثوليكية في لبنان والتزامها الحوار بين الأديان" و"الكنيسة في خدمة المجتمع"، اخترنا منها النصوص التالية[٢]:

١٣-١- الحوار المسيحي الإسلامي:

عاش المسلمون والمسيحيون في لبنان جنباً إلى جنب، طوال قرون عديدة، حيناً في سلم وتعاون، وحيناً في صراع ونزاع، فعليهم أن

---

[١] – المرجع ذاته، الفقرة/٤٧.

[٢] – د. انطوان حنو: المرجع السابق ص٤٥.

يجدوا في حوار يراعي مشاعر الأفراد والجماعات المختلفة سبيلاً لابدَّ منه للعيش المشترك، وبناء المجتمع عل اللبنانيين ألاّ ينسوا تلك الخبرة الطويلة في العلاقات التي هم مدعوون إلى استعادتها، بلا كلل، من أجل مصلحة الأشخاص والأمة برمتها، ولايعقل في نظر أصحاب الإرادات الطيبة أن يعيش أبناء مجمتع بشري واحد، على أرض واحدة، ويفضي بهم الأمر إلى عدم الثقة بعضهم ببعض والتخاصم والتنابذ باسم الدين إنني إنما أشكر للمندوبين الأخوة، المسلمين والدروز حضورهم اجتماعات المجمع ومشاركتهم الناشطة في الحوار.

هذا الحوار يجب أن يتواصل على عدة مستويات، أولاً يتعلَّم الأشخاص والعائلات أن يقدّر بعضهم بعضاً، في الحياة اليومية، وفي العمل وفي الحياة الوطنية العملية، إن الخبرات العملية في ممارسة التضامن، هي ثروة لجميع الشعب وخطوة واسعة وهامة على طريق مصالحة الأفكار والقلوب، بدونها لايمكن القيام بعمل مشترك طويل الأمد، إن الحكمة الطبيعية تقود الأفرقاء إذن.. إلى تواصل بشريّ غنيّ، وإلى تعاضد يُمتّن النسيج الاجتماعي.

أما الحوار الديني فلا يمكن إهماله، ويجب أن يساعد كل أحد على النظر بتقدير إلى ما في أبحاث إخوانه الروحية من عظمة ويميّزها ويعترف بها، أبحاث تقود إلى السير في طريق المشيئة الإلهية، وتفسح في المجال لإعلاء شأن القيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية – الثقافية لدى الأفراد وفي الحياة الجماعية!.

١٣-٢- العيش المشترك:

لابد خاصة من تكثيف التعاون بين المسيحيين والمسلمين في كل

المجالات الممكنة، بروح التجرد، أي من أجل الصالح العام، وليس من أجل مصلحة أشخاص معينين، أومن أجل مصلحة طائفة خاصة، أوأملاً بالحصول على مزيد من النفوذ والسلطة في المجتمع، إن اعتبارهم المشترك للحياة الأخلاقية، وتوقهم إلى مستقبل أفضل، يجعلانهم مسؤولين معاً عن بناء المجتمع الحاضر، وعالم الغد، وذلك بحفاظهم على القيم الأخلاقية، والعدالة الاجتماعية، والسلام والحرية، ودفاعهم عن الحياة والعيلة، والعمل على رفع شأنها ومن شأن هذا العمل المشترك أن يُعيد إلى جميع اللبنانيين الثقة بإخوانهم وبالمستقبل، لأنه يحملهم على الانفتاح على أفضل ما في الحداثة.

ليس الحوار الإسلامي المسيحي حواراً بين مثقفين فقط، فهو يهدف أولاً إلى تشجيع العيش معاً بين مسيحيين ومسلمين، في روح الانفتاح والتعاون لابدّ منه، ليتمكّن كل منهم من الشعور بالرضى باعتماده في حرية الخيارات التي يُمليها عليه ضميره القويم، ومتى تعلم اللبنانيون أن يتعارفوا جيداً ويرضوا رضى كاملاً بالتعددية، وفرّوا لنفوسهم الشروط الضرورية لإقامة الحوار الحقيقي واحترام الأشخاص والعيال والجماعات الروحية.

وللمدارس والمؤسسات التربوية المختلفة بالرضى باعتماده في حرية الخيارات التي يمليها عليه ضميره القويم، ومتى تعلّم اللبنانيون أن يتعارفوا جيداً ويرضوا رضى كاملاً بالتعددية، وفرّوا لنفوسهم الشروط الضرورية لإقامة الحوار الحقيقي واحترام الأشخاص والعيال والجماعات الروحية وللمدارس والمؤسسات التربوية المختلفة دور أساسي في هذا المضمار، لأن التمرس في الحياة الجماعية منذ الصغر يحمل الأولاد على الانتباه بعضهم إلى بعض، ويدعوهم إلى أن يعالجوا سلمياً ما قد

يحدث من نزاعات[1].

١٣-٣- التضامن مع العالم العربي:

إن الكنيسة الكاثوليكية منفتحة على الحوار والتعاون مع المسلمين في لبنان وتريد أن تكون منفتحة على الحوار والتعاون مع مسلمي سائر البلدان العربية، ولبنان جزء لايتجزّأ منها، وفي الواقع إن مصيراً واحداً يربط المسيحيين والمسلمين في لبنان وسائر بلدان المنطقة، وكل ثقافة خاصة لاتزال تحمل طابع ما رفدتها به على الصعيد الديني وغير الديني الحضارات المختلفة التي تعاقبت على أرضهم ومسيحيو لبنان وكامل العالم العربي، وهم فخورون بتراثهم، يُسهمون إسهاماً ناشطاً في التطور الثقافي.

إن المسيحيين في جميع البلدان، ومن جميع الثقافات كافة، حيث انتشروا، لايتمايزون عن سائر الناس، لافي البلد ولافي اللغة ولافي العادات، بل يتكيفون مع العادات المحلية في ما يتعلق بالكساء والغذاء وباقي مقتضيات الحياة، فيما يُظهرون في نمط عيشهم قواعد خارقة ومستغربة حقاً.

بودّي أن أشدد بالنسبة إلى مسيحيي لبنان، على ضرورة المحافظة على علاقاتهم التضامنية مع العالم العربي وتوطيدها، وأدعوهم إلى اعتبار انضوائهم على الثقافة العربية، التي أسهموا فيها إسهاماً كبيراً، موقعاً مميزاً لكي يقيموا، هم وسائر مسيحيي البلدان العربية، حواراً صادقاً وعميقاً مع المسلمين، إن مسيحيي الشرق الأوسط ومسلميه، وهم

---

[1] - الإرشاد الرسولي، الفقرة /٩٣/، ص ١٤٩-١٥١.

يعيشون في بؤس، مدعوون إلى أن يبنوا معاً مستقبل عيش مشترك وتعاون يهدف إلى تطوير شعوبهم تطويراً إنسانياً وأخلاقياً، وعلاوة على ذلك قد يساعد الحوار والتعاون من مسيحيي لبنان ومسلميه على تحقيق الخطوة ذاتها في بلدان أخرى[١].

١٤- التقريب بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي:

وفي مجال التلاقي الإسلامي المسيحي على الصعيد العالمي، يحدد المسيحيون موقفهم بكل وضوح، فهم مع العرب المسلمين أبناء أوفياء لأوطانهم وأبناء حضارة عربية واحدة بجميع مقوماتها فيما يحقق خير الإنسانية جمعاء، وهم في الوقت نفسه مسيحيون، ومع جميع المسيحيون في العالم، مؤمنون بالسيد المسيح، كلمة الله الأزلي، ومن هذا المنطلق، يرون أن دوراً في تقريب المواقف بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي، وفي تحويل الصراع إلى تعاون إيجابي مبني على الاحترام المتبادل.

وهم يقولون للعالم الغربي إن الإسلام ليس العدو، بل هو أحد أطراف الحوار الذي لايمكن الاستغناء عنه في بناء الحضارة الإنسانية الجديدة ويقولون القول نفسه للشرق المسلم: إن المسيحية في الغرب ليست عدواً بل هي طرف أساسي في حوار لابد منه لبناء عالم جديد.

إن المسيحيين في العالم العربي يتطلعون إلى أن يكونوا جسور حوار وتفاهم بين هذين العالمين المتقابلين، القرابة الحضارية التي تجمعهم بالمسلمين في الشرق، والشركة الإيمانية التي تجمعهم بالمسيحية

---

[١] - الإرشاد الرسولي، الفقرة /٩٣/، ص١٤٩-١٥١.

في كل مكان، تؤهلهم أحسن تأهيل ليقوموا بهذا الدور الحضاري[1].

١٥ـ المحبة طريق الوحدة:

في ختام مداخلتي في هذا المؤتمر الكريم أودّ أن أتلو على مسامعكم كلاماً للقديس بولس يقول فيه:

"لوكنت أنطق بألسنة الناس والملائكة، ولم تكن فيّ المحبة، فإنما أنا نُحاسٌ يطنّ، أوصنجٌ يرنّ، ولوكانت لي النبوة وكنت أعلم جميع الأسرار والعلم كله، ولو كان لي الإيمان كله لأنقل الجبال ولم تكن فيّ المحبة، فلستُ بشيء، ولو بذلت جميع أموالي إحساناً، ولو أسلمت جسدي لأُحْرَقَ، ولم تكن فيّ المحبة، فلا أنتفع شيئاً".

"المحبة تتأنى وترفق، المحبة لاتجسد، المحبة لاتتباهى، ولاتنتفخ، لاتأتي قباحة، ولاتطلب مالاً لنفسها، لاتحتَدُّ، ولاتظنُّ السوء، لاتفرحُ بالظلم بل تفرح بالحق، تتغاضى عن كل شيء، وتصدِّق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شيء، المحبة لاتسقط أبداً"[2].

الأهمية التاريخية لعقد الذمة كإطار مجمع: مكانته، ضماناته، طبيعته

ولابد أن نشير أولاً إلى أن آخر تجل وصيغة لعقد الذمة كان في "نظام الملل" العثماني، وقد أبقي هذا النظام ليحل محله نظام المواطنة

---

[1] – معاً لله نشهد/ الفقرة/٤٠/.

[2] – رسالة القسيس بولس إلى الكورنثيين ١٣،١–٨، وارجع د. ضو: المرجع السابق ص٤٩.

كأجلى ارتقاء للمسلمين في علاقاتهم الأممية والدولية.

والأمر الثاني هو أن الإسلام ظهر في بيئات شعبية وثقافية كانت المسيحية شديدة الحضور فيها، كما قابلها أوواجهها في أكثر المناطق والنواحي التي انتشر فيها أوسيطر عليها، في مجالات سيطرته تلك طوال ما يزيد على الثمانية عشر قرناً، عرف الإسلام وعرف المسلمون خلالها كل "أنواع" المسيحية: السريانية والأرثوذكسية وفرقهما وفروعها، وعرف أخيراً المسيحيتين المسيطرتين اليوم: الكاثوليكية والبروتستانتية، لكن الفرق بين الأوليين والحاضرين بالنسبة إليه، أنه عرف الأوليين وهو في مكانة المسيطر والمتحكم على الشارع بالمعاني كلها، وعرف الحاضرين وهو في أطوار الصراع والاستضعاف، ولكلا الطورين التاريخيين قوانينهما ومقتضياتهما.

ففي الطور الأول امتزجت في مواقفه عناصر الدولة السطوة والثقافة المسيطرة المطمئنة، وفي الطور الثاني تقاطعت في مواقفه عناصر الاكتفاء والتردد والضيق واليأس والغربة.

يتوضح مما ذكرناه أن عقد الذمة نشأ من داخل السلطة الإسلامية لا من داخل الجماعة الإسلامية، والفقهاء وجدوا أمامهم سلوكاً تاريخياً للسلطة والجماعة الإسلامية فيما يتصل بأهل الذمة، فكانت منظومة كل منهم موقفاً من المسلك التاريخي المذكور في هذه القضايا، وهذا الإدراك إن أعطانا فكره عن محدودية تأثير الفقهاء في البداية، فإنه لاينبغي أن يدفعنا إلى التطرف في تتبع مجريات الواقع باعتباره الحكم الأول والأخير،

ذلك أن المسلك الهام للجماعة الإسلامية في النهاية غير تصرفات الأفراد[1].

والأمر الجدير بالإشارة هو أن عقد الذمة هو نتيجة وترجمة طبيعية للمكانة الخاصة لليهود والنصارى في القرآن الكريم، ذلك لأن بينهم وبين المسلمين وشائج وصلات تتمثل في صور وأشكال متعددة، منها أصول الدين الواحد، ومنها اعتراف الإسلام بنبوة أنبيائهم وإحاطتهم بالتجلّة والاحترام، ومنها الاعتراف بما أنزل الله على هؤلاء الأنبياء من كتب وصحف، ومنها ورود نصوص من هذه الكتب في القرآن الكريم في لون من التوثيق المقدّس لدى المسلمين، والأمثلة على ذلك عديدة، منها قوله تعالى:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾ النجم.

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ

---

[1] – د. رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام ص١١٦.

﴿ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ﴿١٩﴾ الأعلى.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ الأنبياء١٠٥.

وقوله تعالى بعد الحديث عن التوراة وما فيها من هدى ونور: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ المائدة٤٥.

ومن مجموع هذه العلاقات والوشائج مع أتباع الأديان السماوية، أفرده الإسلام بلون خاص من الرعاية والتكريم، وأسماهم "أهل الكتاب" تمييزاً لهم عن الآخرين، فكان نداء القرآن لهم دائماً بصيغة "يا أهل الكتاب"، أوبصيغة "يا أيها الذين أوتوا الكتاب".

وتحديداً لمضمون هذا المصطلح، فإن إرساله على إطلاقه يشمل كل نصراني وكل يهودي في أي زمان في الدنيا، وفي أي مكان من ديار العالم، وبالتالي فالتعامل معهم جميعاً ينطبق عليه ما فرضه الإسلام على المسلمين من ضرورة البر بهم والعدل معهم، لايستثنى من ذلك إلاّ أولئك الذين أشارت إليهم الآية ممن يقاتلون المسلمين في دينهم، أويخرجونهم من ديارهم، أما أهل الكتاب الذين يعيشون في البلد الإسلامية ويعايشون المسلمين في جميع شؤون الحياة، فهم مواطنون أجمع المسلمون منذ

عصر النزول إلى هذا اليوم على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، إلاّ ما كان من شؤون الدين والعقيدة، فإن كلاً منهم يمارسها بحسب معتقدات دينه وبكل حرية.

وحرصاً من الرسول (ص) على استمرار رعايتهم، ودفعاً لتأويلات جاهلة في التعامل معهم مستقبلاً، وتثبيتاً لجميع حقوق المواطنة التي أقرّها الإسلام لهم، وضماناً لكل ذلك، فتح (ص) لهم صدره وأعلن -- في خصوصية متميزة – أنهم في حمايته، وفي ذمته إلى آخر الدهر، يؤذيه مايؤذيهم، ويسوؤه ما يسوؤهم، وسماهم أهل الذمة: "ذمة الله" و"ذمة رسوله"[1].

كما ألحق بأهل الذمة "المعاهد"، وهو الكتابيّ من غير أهل البلاد، إذا دخل بلاد المسلمين بصورة مشروعة "عقيماً أوسفيراً أوتاجراً أوزائراً أوسائحاً.."، فإن حكمه هو حكم الذميّ، يعامل معاملته، ويتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها المواطن، وهنا نجد ضرورة لوقفة قصيرة عند مصطلح "أهل الذمة" لجلاء بعض الالتباس لدى بعض إخواننا من النصارى، ذلك أن "هذا البعض" يتحسب من هذه التسمية، وفي ظنهم أن بها مساساً بهم وبمشاعرهم، ومن يتحرّى معناها ويتتبع ما جاء في صددها من أحاديث وأقوال لابد أن يتغير إليها ويعتبرها تسمية إعزاز وتقدير، نسوق هذا الكلام لا إلى بعض الإخوة من النصارى فحسب بل إلى بعض الإخوة من المسلمين الذين جهلوا دواعي هذه التسمية ودلالاتها، ولعل مثلاً بسيطاً يعرف الجميع إمكانية حدوثه يزيد جلاء

---

[1] – د. عطية: المسلمون والنصارى ص٤٦.

المعنى الذي أراده الرسول (ص) من هذه التسمية، فالبدوي البسيط في خيمته المتنائية، إذا استجار به مستجير، ودخل في ذمته، فإنه يقوم بحمايته ولو عرض نفسه وأهله للقتل دفاعاً عن ذمته، وحماية لها أن تخفر، وإذا كان هذا الحال مع ذمة البدوي، فكيف يكون من دخل في ذمة رسول الله (ص)، وهو نبيّ المسلمين وقائدهم وقدوتهم، وهذا يعني أن كل مسلم مستعد للتضحية بنفسه وبأهله للدفاع عن أي ذميّ يتعرض ظلماً للأذى، وذلك من باب التزام المسلم بالدفاع عن ذمة رسوله، "فالذمة هي العهد"، وهي كلمة توحي بأن صاحبها عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا مع المسلمين آمنين مطمئنين"[1].

والأحاديث التي وردت في رعاية أهل الذمة وفي رعاية المعاهدين كثيرة جداً، ونكتفي بالإشارة إلى بعضها، فقد روي عن رسول الله (ص) أنه قال: "من آذى ذمياً فقد آذى الله"[2]، وأنه قال: "من ظلم معاهداً أوانتقصه حقاً أوكلّفه فوق طاقته أوأخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"[3]، وأنه قال: "من قتل معاهداً له ذ مة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله، فلا يُرَح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من

---

[1] – الحلال والحرام في الإسلام ص٣٢٨، وانظر د. عبد الرحمن عطية: المسلمون والنصارى ببيروت، دار الأوزاعي، ط١، ٢٠٠٠، ص٤٧.

[2] – المعجم الوسيط: الطبراني – الترجمة ٤٦٧.

[3] – سنن أبي داود: الحديث ٤٦٩ وسنن ابن ماجة كتاب الديات الحديث رقم ٢٦٨٧.

مسيرة سبعين ضريفاً"[1].

وناهيك بمثل هذه الأحاديث في التشدد في الوصاية برعاية أهل الذمة، الأمر الذي يفترض أن لايسمح بأي تحسس تجاه هذه التسمية.

أما المواقف والأقوال والوصايا التي صدرت عن الخلفاء والصحابة والفقهاء بشأن أهل الذمة فإنها تصب كلها في الحقل نفسه من الحماية والبر والإحسان.

وقد كان هاجس الخليفة عمر بن الخطاب التأكيد الدائم على إكرامهم ورعايتهم فقد روي عنه أنه قال: أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله (ص): أن يُوفَي إليهم بعهدهم، وأن يُقاتل من ورائهم، وأن لايُكلّفوا فوق طاقتهم"[2]، وتأكيد عمر على وجوب قتال المسلمين دفاعاً عنهم يؤكد أهمية حماية أهل الذمة من قبل إخوانهم المسلمين، وهناك وصيته حين طعن وأشرف على الموت وسأله من حوله من الصحابة أن يوصيهم، يروي جويرية بن قدامة هذه التوصية ويقول: "فلما دخلنا عليه، وقد عصب بطنه بعمامة سوداء، والدم يسيل، فقلنا: أوْصنا فقال: أوصيكم بكتاب الله فإنكم لن تضلوا ما اتبعتموه، فقلنا: أوصنا: فقال: أوصيكم بالمهاجرين خيراً فإن الناس سيكثرون، وأوصيكم بالأنصار فإنهم شِعْب

---

[1] – الجامع الصحيح (صحيح البخاري): باب من قتل معاهداً بغير جرم ٢١١/٤ ومسند أحمد بن حنبل ١٨٦/١ وسنن الترمذي الحديث رقم ١٤٠٣.

[2] – الجامع الصحيح – صحيح البخاري – كتاب الجهاد باب يُقاتل عن أهل الذمة ولايُسْرَقون والخراج لأبي يوسف ص١٢٥، والخراج ليحيى بن آدم القرشي ص٧١.

الإسلام الذي لُجِئَ إليه، وأوصيكم بالأعراب فإنهم أصلكم ومادتكم، وأوصيكم بأهل ذمتكم فإنهم عهد نبيكم ورزق عيالكم[1].

ونلاحظ أن عمر في هذه الوصية، وهو مشرف على الموت أوصى بأربع فئات من الناس وخصّها بالذكر والرعاية، منها المهاجرون والأنصار وهم دعاة وحماة الدعوة الإسلامية والمضحّون من أجلها، والأعراب وهم مادة العرب الصافية لإقامتهم النائية في البوادي، كما أوصى بأهل الذمة، وكفى رعاية وتقديراً وحماية لأهل الذمة من قَرْن وصية عمر بوصيته بالمهاجرين والأنصار، وهم ما هم في الإسلام ولدى المسلمين.

وهنالك قول للصحابي الجليل سلمان الفارسي[2] رضي الله عنه، حين سأله رجل: ما يحق لنا من أهل الذمة يا أبا عبد الله، فقال: ثلاث: إذا صحبت الصاحب منهم تأكل من طعامه ويأكل من طعامك، ويركب دابتك وتركب دابته، وأن لا تصرفه عن وجه يريده"[3]، وهل هناك مساواة أرق وأحلى من هذه المساواة حتى في أدق الخصوصيات.

أما أقوال علماء المسلمين في وجوب رعاية أهل الذمة فهي من الوفرة بمكان، وقد مرت بنا شهادة الزمخشري وابن عطية وابن جُـزَيّ في النصارى بالذات وفي وصف سجاياهم، ولكن علماء آخرين تحدثوا عن خصوصية أهمية رعاية أهل الذمة من قبل المسلمين، فكان من

---

[1] – مسند أحمد بن حنبل ١/١٥ والسنن الكبرى: ١٤/٥٣.

[2] – سلمان الفارسي من كبار رجال الصحابة أصله فارسي من مجوس أصبهان، وكان صاحب رأي وحكمة توفيّ ٣٦هـ/٦٠٦م.

[3] – الخراج: أبو يوسف ص/١٢٦.

وصية الفقيه أبي يوسف[1] صاحب أبي حنيفة إلى الخليفة هارون الرشيد أن قال له: "...وقد ينبغي يا أمير المؤمنين – أيدك الله – أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (ص) حتى لايُظلموا ولايُؤذَوا ولايُكلّفوا فوق طاقتهم، ولايؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم، فقد روي عن رسول الله (ص) أنه قال: "من ظلم معاهداً أوكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه"[2]، ونحا الفقيه المالكي شهاب الدين القرافي[3] المنحى نفسه في حديثه عن أهل الذمة حين قال: "إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسول الله (ص)، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أوغيبة في عرض أحدهم، أوأي نوع من أنواع الأذى، أوأعان على ذلك، فقد ضيّع ذمة الله، وذمة رسوله (ص) وذمة دين الإسلام"[4].

أما الفقيه ابن حزم فقد أبعد في الحديث عن حماية أهل الذمة، إلى حد خوض الحرب من أجل ذمي حاول أهل الحرب إيذاءه، مهما كلفت هذه الحرب من تضحيات صوناً لذمة الله وذمة رسوله: "إن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج

---

[1] – أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري أحد أئمة المذهب الحنفي – تولى القضاء أيام المهدي والهادي والرشيد ولقب بقاضي القضاة، توفي عام ١٨٢هـ،١٩٦٢م.

[2] – الخراج: أبو يوسف ص١٢٥.

[3] – أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصهاجي القرافي فقيه من علماء المالكية له عدة مؤلفات ولد ومات في مصر وكانت وفاته ٦٨٤هـ،١٢٨٥م.

[4] – الفروق: أنواء البروق في أنوار الفروق: ٣/١٤ (الفرق١١٩).

لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمـــة الله تعالى وذمة رسوله (ص)، فإن تسليمه إهمال لعقد أهل الذمة"[1].

وكل هذه النصوص، عدا تأكيدها المكانة الرفيعة للنصارى لـــدى المسلمين من خلال تعاليم إسلامهم، تؤكد في الوقت ذاته المعنى الحقيقـــي لمفهوم "الذمة" في نفوس المسلمين، وأن ذمة نبيهم وعهده مصونان لديهم، وأن من واجب كل مسلم الحفاظ عليهما والدفاع عنهما، وبالتالي فإن مـــن واجب كل مسلم أن يسارع إلى الدفاع عن أي من أهل الذمة إذا تعـــرض لأي لون من الأذى، بدءاً من احتمال تعرضه لكلمة سوء إلى مافوقها مـــن أنواع الأذى المحتملة، وهذا الدفاع يتدرج في أساليبه بحسب درجات الأذى التي يتعرض لها الذمي حتى يصل الأمر إلى حد القتال وما يتبعـــه مـــن أنواع المخاطر للذود عنه بل وإلى حد التعرض للقتل في سبيل حمايته...

وأتصور أن أي نصراني يدرك المعاني التي يشتمل عليها مفهوم "أهل الذمة"، وبالصورة التي تحدثت عنها النصوص الإسلامية، يحق له أن يتيه دلالاً حتى على المسلمين أنفسهم، لأنه محمّي من قـــبلهم، لامِنـــاً منهم ولاتطوعاً، بل ندبٌ مأمورون به من خلال احترامهم لذمة نبـــيهم، التي يفترض في كل مسلم صادق أن يرعاها وأن يصونها مهما كلّفه ذلك من ثمن، ومن ثم فإن التحسس من مصطلح "أهل الذمة" لدى أي نصراني يصبح، في تصورنا غير ذي موضوع.

بعد هذه الصورة المقتضبة، يبقى لنا أن نتساءل عن الجانب الغني

---

[1] – مراتب الإجماع في العبادات والمعـــاملات والانتقـــادات ص١١٢، وانظـــر د. عطية: المسلمون والنصارى ص٥٠.

في عقد الذمة، أي ما هي مقوماته وشروطه وضماناته؟؟

ومع ذلك فالإجابة عن هذه الأسئلة لابد لهـا أن تحـيط بإطـار تاريخي سريع لنشأة هذا العقد.

وحقيقة الأمر فالمسيحية لم تكن غريبة عن العرب فلـم يكونـوا يعرفونها عن طريق بلاد الشام والملكانيين والسريان فيها فحسـب، بـل كانت هناك مسيحية مونوفيزية في اليمن، ومسيحية في قبائـل عربيـة بدوية بالبحرين واليمامة، ومسيحية مدينيـة ومهنيـة بمكـة والطـائف والهجْر[1]، ومع ذلك فالمسيحية في الداخل العربي لم تكن قـوة سياسـية

---

[1] – - Coulson: A History of Islamie low (Edinburg 1964).16-31.
- G.R yckmans: Religions A rabes Preislamiques (1951).
- J.H enninger: la Religion B edouine Preislamique; in: Ancient B edouin society (1651).
- M.Hoeliner: Cristen in Arabien; in: Die Religionen (1970).

وآخر الدراسات حول الموضوع وأهمها الآن دراسة سبنسر ترمنغهـام: "المسـيحية بين العرب قبل الإسلام" (١٩٧٩).

Theological Reniew, 1980. PP. 45. 49. في J.M. fiey.

وانظر دراسة أدمون ربّاط (بالفرنسية/ من منشورات الجامعـة اللبنانيـة/١٩٨٠). بعنوان: المسيحيون في العهد الأول للإسلام – الشرق المسيحي قبل الإسلام.

يحسب حسابها[1]، ولهذا لم يتصارع النبي معها بعكس ما حدث مع اليهودية، بل لم يعرفها الإسلام كمجموعة بشرية في عالمه المتكون إلاّ في أواخر حياة النبي عندما اتصل به المسيحيون النجرانيون[2]، وعاهدته بعض المستقرات المسيحية على أطراف الجزيرة من ناحية الشام[3]، لهذا كان موقف القرآن بشكل عام إيجابياً من المسيحية من الناحيتين: السياسية والسلوكية[4]، وكل ذلك مقارناً باليهود.

ولابد أن يدرك أنّ الموقف تغيّر عندما اقتحم العرب المسلمون السواد والشام ومصر وشمال أفريقية – وكلها مناطق مسيحية – هنا تحوّلت المسيحية إلى خصم سياسي وعسكري خصوصاً تلك المرتبطة بالبيزنطيين المقاتلين، لكنّ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) يشهد تطورات جديدة، فقد تآلف العرب المسلمون ومواليهم من المستقرين

---

[1] – حاول مكّي اسمه عثمان بن الحويرث – كان من معتنقي المسيحية الملكانية – أن يسيطر على مكة، لكن قريشاً قتلته في أواخر القرن السادس الميلادي، قارن بالأصنام لابن الكلبي ص٩، وسيرة ابن هشام ٧٦/١، والأوائل للعسكري ٧٥/١-٧٦، وما ذهبت إليه هنا هو ما رآه Trimingham (ص٣٠٨) في دراسته السالفة الذكر...

[2] – هناك دراسات لماسينيون وشتروتمان وشموكر عن مسألة المباهلة مع النجرانيين المسيحيين وتبدو المسألة أسطورية، وإن لم يكن التشكيك في العلاقة ذاتها ممكناً، قارن بطبقات ابن سعد ١٣٨/٨-١٤٠، وسيرة ابن هشام ٩٧/٤-٩٨.

[3] – مغازي الواقدي ١١٨/٣-١١٢١-١٣١٦.

[4] – في سورة الروم: "غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون" وفي سورة المائدة/٨٢: "ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون".

بالمدن مع الملكانيين الذين كانوا يشكلون أكثرية السكان، في الوقت الذي كانت فيه العلاقة مع الفلاحين السريان والقبط جيدة منذ البداية.

وبانتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد[1]، خفّت حدّة الصراع مع البيزنطيين فخفت بالتالي حدّة الحذر من المسيحيين العرب وغيرهم من المقيمين على أرض الإسلام[2]، لذا فإنه يمكن القول إنّ المنظومات الفقهية الثماني الرئيسية الباقة في الإسلام (المذاهب السنية الأربعة، والمذهب الجعفري، والمذهب الزيدي، والمذهب الإسماعيلي، والمذهب الإباضي)، بما يتضمنه كلّ منها من أحكام خاصة بأهل الذمة نشأت وتطورت في ظروف كانت فيها المتغيرات السياسية الاجتماعية قد هيأت مناخاً ملائماً لعلاقة مستمرة ومستقرة نسبياً.

وبصورة عامة لم يكن العرب الفاتحين يملكون سياسةً واضحة وواحدة للعلاقة بأهل الذمة المفتوحة من مختلف الأديان، يُدلّ على ذلك الخلاف العميق بين الفقهاء حول وضع المجوس والصابئة[3]، وهل هم من

---

[1] – قارن عن الوضع مع المسيحيين بداية: "أهل الذمة في الإسلام لترتقون (ترجمة حسن حبشي" ص١٩، ص٣٠، وبعد انتقال الخلافة إلى العباسيين.
J.M. fley. Chretlens Syriaques sous les Abbassides Surtout a Bagdad. S upsida, Tomus 59. 1980.

[2] – F.Rosenthal: Das fortleben der A ntike in I slam; P. 8-11
والخراج لأبي يوسف ص٧٤، وأحكام القران للجصاص ٣٢٧/٢، والمغني لابن قدامة ٤٩٦/٨–٤٩٨، وأهل الذمة لترتقون، ص١٠٣ وما بعدها.

[3] – الخراج لأبي يوسف ص٧٤، وأحكام القرآن للجصاص٣٢٧/٢، والمغني لابن قدامة ٤٩٦/٨–٩٦٨، وأهل الذمة لترتقون، ص١٠٣ وما بعدها.

أهل الكتاب، وبالتالي من أهل الذمة أم لا؟!.. وكانت العادة أن يُبْرم الفاتح أو المصالح عقداً مع وجهاء المدينة المفتوحة، من مثل عقد بيت المقدس[1] الذي جاء فيه: "أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لاتُسكن ولاتُهدم ولاينتقص منها ولامن حيزّها، ولامن شيء من أموالهم، ولايُكرهون على دينهم، ولايُضَارُّ أحدٌ منهم ولايسكن إيلياء معهم أحد من اليهود..."، وترد في العقود المماثلة أحياناً عبادة[2]: "فإن أدّوا الجزية فلهم ما لنا وعليهم ما علينا..."، وقد جرى تشكيك كثير في تاريخية هذه العقود، ولكن المشككين لم يستطيعوا عرض بدائل في المسألة[3].

وترتب على حالة الحرب هذه تقسيم العالم من جانب الفقهاء فيما بعد إلى دار إسلام ودار حرب، الأولى هي التي يسيطر عليها المسلمون وتطبق فيها أحكام الإسلام، والثانية هي التي تقع خارج نطاق سيطرة الإسلام ولاتطبق فيها شعائره وأحكام شيرْعته[4].

وكما لم تكن هناك سياسةٌ واحدةٌ وثابتةٌ إزاء الفئات الاجتماعية

---

[1] - تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٤٠٥/١.

[2] - قارن بأحكام الذميين والمستأمنين لعبد الكريم زيدان ص١٤٧ و١٤٩.

[3] - من الذين هاجموا تاريخية هذا العهود والصيغ M. NOTH (١٩٧١)، في دراسة له عن "الأخبار والقصص عند المؤرخين العرب الأوائل" وانظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ٩٨٤، ط١، ص١١٩.

[4] - قارن بمجيد خدوري: الحرب والسلام في شريعة الإسلام ص٢١٥-٢٥٣، ووهبة الزحيلي آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص١٦٩-١٨١.

والدينية في الأقطار المفتوحة لم تكن هناك سياسة واحدة بالنسبة للمسيحية بالذات، فقد جرى التمييز بعد تجارب سلبية بين مسيحيةٍ عربيةٍ (بدوية)، ومسيحيات أخرى، والمثل الأوقع على ذلك مسألة نصارى بني تغلب الذين عاملهم عمر معاملة خاصة صارت سابقة تاريخية[1].

وإضافة إلى ذلك فأتباع الإمام أبي حنيفة – سيراً مع فلسفة إمامهم حول معنى الإسلام – مضوا قدماً في هذا السبيل فقالوا إنّ أهل الكتاب الذين تحدث عنهم القرآن ليسوا النصارى واليهود فقط بل[2]: "كُلّ من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزّل مثل التوراة وصحف إبراهيم وشيث وزَبور داود..."، هذا على الرغم من أن هناك آيةً في القرآن تُشعر بأن المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى فقط[3].

أهل الكتاب – على اختلاف الفقهاء في مدى امتداد المصطلح هذا – هم الذين يمكن للمسلمين أن يقيموا معهم عقداً أوعهداً للذمة، والذمة هي[4] "عقدٌ بمقتضاه يُعبرُ غير المسلم في ذمة المسلمين أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد..."، ويسند هذا تاريخياً إلى الآية القرآنية التي

---

[1] – قارن بمقالات الإسلاميين للأشعري ص٤٦٣، والمبسوط للسرخسي ١٠/١٨، وشرح السير ٤/٨–١٠.

[2] – الدر المختار ٣/٣٧٠، وتبيين الحقائق ٢/١١٠، وفي منتهى الإرادات لابن النجار الحنبلي ١/٣٢٩: "ولاتُعقَدُ إلاّ لأهل الكتاب اليهود والنصارى، ومن يدين بالتوراة كالسامرة أوالإنجيل، كالفرنج والصابئين، أومن له شبهة كتاب كالمجوس".

[3] – سورة الأنعام/١٥٦: "أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا".

[4] – كشاف القناع ١/٧٠٤.

نزلت في العام التاسع للهجرة[1]: "قاتلوا الذي لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذي أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية...".

ومن الواضح أن الجزء الأول من الآية لاينطبق على أهل الكتاب إذ هم يؤمنون بالله وباليوم الآخر، كما أن عقد الذمة ليس مذكوراً في الآية إنما المذكور فقط الجزية، ويبدو أن الوضع التاريخي القائم على عهود وعقود الأمان مع المدن المفتوحة هو الذي أوصل إلى التشكيل التاريخي لمنظومة أهل الذمة لاهذه الآية بحدّ ذاتها، وأرى في فشل التعاون بين النبي واليهود في الأعوام الأولى للهجرة ممهداً لذلك، فقد كان هناك عهد بين النبيّ ويهود للتناصر والدفاع عن المدينة بشكلٍ مشتركٍ، فلما نقضوه وقاتلهم النبي بدأ التفكير في صيغة بديلة تؤمن مزيداً من الضغط الذي لايصل إلى حدّ الإكراه الذي حرّمه القرآن في الأساس، فكانت مسألة الجزية، ثم كانت المنظومة كلها، منظومة أهل الذمة[2].

وهذا مايقوله الفقهاء في مجال بحث حكمة مشروعة عقد الذمة، يقولون[3]: "حكمته أن يترك الحربي القتال مع احتمال دخوله في الإسلام

---

[1] – أحكام القرآن للجصّاص ١٤٢/١، وتفسير ابن كثير ٢٤٧/٣.

[2] – قارن بدراستي: "من الشعوب والقبائل إلى الأمة، دراسة في تكون مفهوم الأمة في الإسلام" في كتاب: الأمة والجماعة والسلطة تأليف رضوان السيد، ص٥٣، ص٥٥.

[3] – في المبسوط ٧٧/١٠، وبدائع الصنائع ١١/٧، وانظر: رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام ص١٢٣.

عن طريق مخالطته للمسلمين واطلاعه على شرائع الإسلام، وليس المقصود من عقد الذمة المال..."، لهذا يرى فقهاء الحنفية والحنابلة والزيدية وبعض الشافعية[1]، أنّ غير المسلم إذا طلب عقد الذمة فيجب على الإمام إجابته للحكمة الكامنة وراء ذلك والمتجلية في إمكان إسلامه، ويضيف فقهاء آخرون أنّ معنى الصّغار في الآية السالفة الذكر[2]: "جريان أحكام الإسلام عليه..." مما يستحثّهُ على الاقتراب من الإسلام أكثر...

فإذا جرى عقد الذمة بين المسلمين والكتابيين فإن هذا العقد مؤبد[3] لايستطيع المسلمون أن ينقضوه أويعلنوا حلّة لمخالفة ذلك للتوحيد الذي دعا إليه القرآن، وللدعوة التي ترى في العالم كله "أمة واحدة" يمكن أن تصبح "أمة إجابة"[4].

والذميّ هو الذي يملك نقض العقد وحده إما بصراحة أوبقرينة من مثال قتال المسلمين مع محاربيهم[5].

وبين الفقهاء خلافات حول ما ينقض عهد الذمة بقرينة[6]، لكن الرأي الذي ساد هو رأي الفقهاء الأحناف الذي ذكرناه، فإذا انعقد عقد

---

[1] – شرح السير الكبير ٣/٢٤٩-٢٥٠، والمهذب ٢/٢٧٠، والبحر الزخار ٥/٤٥٧.

[2] – أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية (تحقيق الشيخ صبحي الصالح/ دمشق ١٩٦١) ١/٢٤.

[3] – بدائع الصنائع ٧/١١١، ومغني المحتاج ٤/٢٤٣، والبحر الزخّار ٥/٤٥٨.

[4] – رضوان السيد: مفاهيم الجماعات ص١٢٤.

[5] – بدائع الصنائع ٧/١١٢، وفتح القدير ٤/٣٨٢.

[6] – قارن بأحكام الذميين لعبد الكريم زيدان، ص٤١-٤٣.

الذمة فإن المقيم على أرض الإسلام من السكان الأصليين يعتبر حكماً جزءاً من الأمة، فهو جزء "من أهل دار الإسلام"، أما إن كان طارئاً فإن عقد الذمة يعتبر بمثابة جنسيةٍ له تحولّه إلى عضو في الجماعة السياسية الإسلامية الموجودة.

وعندما يتحول الكتابي إلى ذمي ينطبق عليه منطوق الحديث النبوي المعروف: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"، مع استثناآت تمس المسائل الدينية، وما يتصل بها، يقول السرخسي الفقيه الحنفي في تعليل ذلك[1]: "لأنهم قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم..."، ولأن الذمي – كما يقول الكاساني: "من أهل دار الإسلام"[2]، فمن حقِّ الذمي أن يتولى مناصب عامة في دار الإسلام كالمسلم ما دام مؤهلاً إلاّ ما اتصل بالإسلام نفسه من مثل الخلافة أي الإمامة أو الإمارة على الجهاد، ذلك لأن الإمام، كما يُعَرِّفُهُ الماوردي[3]: "خليفة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا"، ولايُتَصَوَّرُ في غير المسلم أن يحرس الإسلام[4].

والجهاد دعوةٌ إلى الإسلام بمختلف الوسائل فلا يُتصَور أن يترأس غير مسلم دعوة للإسلام[5]، حتى إذا انتفى الأمران للذمّيّ كل منصب

---

[1] – شرح السير الكبير ١٥٠/٣.

[2] – بدائع الصنائع ١١٢/٧.

[3] – الأحكام السلطانية ص٦.

[4] – الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص٣.

[5] – الأحكام السلطانية لأبي يعيى ص ١-٤.

آخر، من مثل الوزارة، أوقيادة الجند في قتال البغاة[1].

ومنْ حقّ الذمي على المسلمين أن يحمي المجتمع حريتَه الشخصية في السكن وحسن السمعة والعمل والتنقل، ومن حقه أن لايظلم ولايؤذى إذ ينتفي بذلك معنى ترغيبه بالإسلام، وقد قال أبو يوسف في كتاب الخراج ناصحاً هارون الرشيد في مسألة أهل الذمة[2]: "لايظلمون ولايؤْذَوْنَ ولايكلّفون فوق طاقتهم....".

وعندما ثارت فئة في جبل لبنان على الوالي العباسي صالح بن علي حاول اعتبار ذلك نقضاً للعهد من جانب جميع الذميين، لكن الإمام الأوزاعي قال له[3]: "وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصةٍ حتى يُخْرَجُوا من ديارهم، وحكم الله تعالى ألاَّ تزرَ وازرة وزرَ أُخْرى.. فإنهم ليسوا بعبيدٍ ولكنهم أحرار أهلُ الذمة...".

وبديهي ما داموا في المجتمع أن يكون لهم التمتع بخيراته، شأنهم في ذلك شأن الفئات الاجتماعية الأخرى إذ "....الناس شركاء في ثلاث[4]:

---

[1] - الأحكام السلطانية للماوردي ص١٢٦، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص١٢٤، وانظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات، ص١٢٥.

[2] - الخراج لأبي يوسف ص١٢٤-١٢٥، وقارن بفتوح البلدان للبلاذري ص٧٩-٨١.

[3] - فتوح البلدان للبلاذري ص٢٢٢، والأموال لأبي عبيد ص١٧٠-١٧١، والأوزاعي لصبحي المحمصاني (دار العلم للملايين/١٩٧٨) ص٥٤ و٥٧.

[4] - الأموال لأبي عبيد ص٢٩٥.

"الماء والكلأ والنار"، أما مسألة تمتعهم بحق المساعدة والرعاية من جانب بيت مال المسلمين في حال العجز أوالشيخوخة فهي خلافية، ويحتجُّ المؤيدون لذلك بعهد خالد مع أهل الحيرة النصارى[1] إذ جاء فيه: "وجعلت لهم أيّ شيخ ضعف عن العمل أوأصابته آفة من الآفات أوكان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طُرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام...".

وترى قِلّة[2] من الفقهاء دخول أهل الذمة في هذه الحالة في مصارف الزكاة التسعة التي يُنفَق منها على فئات اجتماعية محتاجة.

يقول السرخسي في سبب وجوب الجزية على أهل الذمة[3]: "إنّ الجزية في حقّ المسلمين خَلَف عن النُصرة"، فقد وجبت عليهم بدلاً عن نُصرَتهم لدار الإسلام، لأنّ الذميين لما صاروا من أهل دار الإسلام بقبولهم عقد الذمة.

ولهذه الدار دارٌ معاديةٌ وجب عليهم القيامُ بنُصرتها لأنّ مَنْ هو من أهل دار الإسلام يلزمه القيام بنصرة هذه الدار، ولما كانت أبدانهم لاتصلح لهذه النصرة – تاريخياً – لأن الظاهر أنهم يميلون إلى أهل الدار المعادية لاتحادهم في الاعتقاد أوجب الشرع عليهم الجزية لتؤخذ منهم،

---

[1] – عن الخراج لأبي يوسف ص١٤٤.

[2] – قارن المبسوط ٢/٢٠٢-٢٠٣.

[3] – المبسوط ٧٨/٨٠، وانظر مقال طارق متري: الموسوم بعنوان المسيحيون الشرقيون والإسلام، منشور العلاقات الإسلامية المسيحية، المرجع السابق ص١٦٨.

وتُصرف على المقاتلة من المسلمين فتكون خلفاً عن النصرة[1].

وهذا تعليل مختلف عن التعليل السابق الذي يعتبر الجزية عنصر ضغط من أجل الإسلام، والواقع أن هذا التعليل الثاني هو الـذي يفسـر استمرارها فقط، لكن الفقهاء الذين قيدهم الوضـع التـاريخي للمسـألة اعتبروا التعليل الأول فاضطر كثيرون منهم بالتالي للقول بإمكانية سقوط الجزية إذا تحققت النصرة، ويذكر الفقهاء في هذا الصدد عهوداً "تاريخية" بين بعض قادة جيوش المسلمين وأهل الذمّة تقول إن على أهـل الذمـة الجزية و"على المسلمين المنعة[2]"، أي أنها تضع المنعة في مقابل الجزية.

هذه المقدمة توصل كما قلنا إلى إمكان سقوط الجزية مع أنها لـم تَسقُطْ تاريخياً، إذ يذكر أكثر الفقهاء بين مُسْـقِطات الجزيـة[3]: الإسـلام والموت ومُضي المدة، وحصول بعض الأعذار، وعجز الدولة عن حماية الذمي، واشتراك الذمي في الدفاع عن دار الإسلام.

ولاحاجة لإيضاح الأسباب الأولى، أما السببان الأخيران فيحـتج الفقهاء لأولهما بكتاب أبي عبيدة إلى نصارى الشام إذ ردَّ إليهم جـزيتهم عندما قام البيزنطيون بهجوم مُضاد على المسلمين وعجز المسلمين عن حمايتهم، جاء في الكتاب[4]: "إنما رددْنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنـا مـا جُمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لانقدر علـى

---

[1] – عن بدائع الصنائع للكاساني ١١١/٧.

[2] – تاريخ الطبري ٢٠١٦/١.

[3] – عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين ص١٤٩.

[4] – تاريخ الطبري ٣٠٤٤/١.

ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم..."، ويحتجون لثانيهما بكتاب القائد عقبة بن فرقد إلى بعض ذميي أذربيجان الذي يقول فيه[1]: "ومن حُشِرَ منهم في سنة أضع عنه جزاء تلك السنة...".

ويحتلُ نصارى بني تغلب حيزاً مهماً في كتب الفقهاء المسلمين فقد كانوا كثيرين بالشام بين المسيحيين المتبدّين العرب فأبوا دفع الجزية لما فيها من معنى الخضوع وبدأوا بالالتحاق بالروم، فأشار النعمان بن زُرْعة على عمر أن تأخذ الجزية باسم الصدقة أي الزكاة، وقد سوّى أكثر الفقهاء جزية بني تغلب بالزكاة في أحكامها فيما بعد.

وقد رأى فقهاء الحنابلة والشافعية أن الأمر فيما يتصل بالجزية يعود إلى تقدير الإمام نفسه[2]: "فإذا كان قوم غير مسلمين لهم قوة وشوكة وامتنعوا عن أداء الجزية إلاّ إذا صولحوا على ما صولح عليه بنون تغلب، وخيف الضرر بترك أجابتهم إلى طلبهم، ورأى الإمام إجابتهم دفعاً للضرر جاز ذلك إذا كان المأخوذ منهم بقدر ما يجب عليهم من الجزية وزيادة قياساً على ما فعله عمر مع نصارى بني تغلب..."

---

[1] - فتوح البلدان للبلاذري ص٢٨٤، يقول ابن رشد في المقدمات ٢٨٢/١: "إنما تؤخذ منهم الجزية سنة بسنة جزاء على تأمينهم وإقرارهم على دينهم ينصرفون في جوار المسلمين وذمتهم آمنين"، انظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات ص١٢٨.

[2] - من الأموال لأبي عبيد ص٢٩، والمغنى لابن قدامة ٥١٣/٨، وشرح الأزهار ٥٧٨/١، وفي منتهى الإرادات لابن النجار ٣٣٠/١: "ونصارى العرب يهودهم ومجوسهم – من بني تغلب وغيرهم – لاجزية عليهم ولو بذلوها، ويؤخذ عوضها زكاتان من أموالهم...".

وللفقهاء بعد هذا تفاصيل كثيرة في مقادير الـرأس والخـراج[1]، ولاشك أنها في تفاصيلها نتيجة تطورات تاريخية متأخرة حتى عن نشأة بعض المذاهب الفقهية، لكنّ الفقهاء يذكرون على الذميين واجبات أخرى غير الجزية، وهي في غالبها اجتماعية، إنهم يحرّمون علـيهم التظـاهر بتحدّي الإسلام ومخالفته من مثل شتم النبي والخلفاء الأوائل، ومن مثـل المبالغة في ضرب النواقيس وإظهار الصُلبان، ومن مثل المبالغـة فـي التظاهر بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير[2].

وأهل الذمة لهم ما لبقية أفراد المجتمع من حقوق وعليهم ما على أفراد المجتمع الآخرين من واجبات، من ذلك الجنايات والجرائم المُخِلَـة بأمن الدولة، فقد ذهبت مجموعة من الفقهاء[3]، إلى أن اشتراك ذمي فـي تمرد داخلي يُنْهي عقد الذمة بينه وبين المسلمين ويجعله من أهـل "دار الحرب". أما فقهاء الأحناف فيرون أن عقد الذمة ينقضه فقط الخروج إلى العدو والقتال معه[4]، أما التمرد الذي هو "البغي"[1]، وهو التمرد لأسـباب

---

[1] – قارن بالمغني ١٣/٨، على سبيل المثال، والإسلام والجزيـة لـدانييل دبنيـت/ ترجمة فوزي فهيم جاد الله، ومراجعة إحسـان عبـاس/ دار مكتبـة الحيـاة (١٩٦٠) ص٤٥ ومابعدها.

[2] – قارن بأحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية ١١/٢ وما بعدها، وعبد الكريم زيدان: أحكام الذميين ص١٥٠ وما بعدها، وانظر رضوان السيد: مفـاهيم الجماعـات ص١٣٠.

[3] – المحلـى لابـن حـزم ٣١/١١، والأم للشـافعي ١٤٠/٤، وجـواهر الكـلام (ط/١٢٧٢هـ) ص٢٨٦، وشرح الخرشي ٦١/٨، والبحر الزخار ٤١٩/٥.

[4] – المبسوط ١٢٨/١٠، وفتح القدير ٤١٥/٤.

ومسوّغات سياسية داخلية، فيعتبر نزاعاً اجتماعياً داخلياً ولايمكن حسبانه عملاً خارجياً عدوانياً "ضد جماعة المسلمين"، فإذا قطع ذمّـيّ الطريـق أوقتل فرداً من أفراد المجتمع فهناك إجماع على وجوب عقوبتـه كمـا يعاقب المسلم[2]، لكن هناك من الفقهاء المسلمين من لايريد قتـل المسـلم بالذمّيّ[3]، إلاّ أن الرأي الذي تبنته السلطة الإسلامية عبر العصور – وهو رأي الأحناف[4] والحنابلة – يسوّي بين المسلم وغيره فـي هـذه الحالـة أيضاً، ولايعرض الخلاف مرةً أخرى إلاّ في حالة الخيانة، فمن المعروف أن التجسّس لصالح العدو من جانب مسلم جريمة لكنْ لا حَـدّ لهـا فـي القرآن، لذا يُتْرَكُ أمْرُ العقوبة للإمام[5].

وقد قتل النبي "عيناً" كما ورد في الحديث[6]، ولكن هناك فرقاً بين أن يُعتبر الخائن ذمياً – إن كان غير مسلم – أو حربياً، أي محارباً ناقضاً للذمة، إذ في الحالة الثانية فإنّ قتله مؤكدّ.

والواقع أنّ الفقهاء المسلمين الذين يذهبون إلى أن الخيانة تـنقض

---

[1] – في الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص٣٨: "البغي هو خروج جماعـة ذات قـوة على الإمام بتأويل سائغ" وانظر كتابي: "البغي والخروج، دراسة في مفهـومي المعارضة والثورة في الفقه الإسلامي".

[2] – بدائع الصنائع ٢٣٧/٧، والهداية ٢٥٥/٩.

[3] – الخراج لأبي يوسف ص١٨٩-١٩٠، وشرح السيد الكبير ٢٢٥/٤.

[4] – نيل الأوطار للشوكاني ٧/٨، وانظر بدران بدران: العلاقات الاجتماعيـة بـين المسلمين وغير المسلمين (بيروت ١٩٨٠) ص٢٥٣ وما بعدها.

[5] – اختلاف الفقهاء للطبري ص٥٨ و٥٩.

[6] – اختلاف الفقهاء للطبري ص٥٨ و٥٩.

عقد الذمة يقولون بالنسبة للمسلم الخائن إنه فارق الإسلام بالخيانة، هكذا يكون منطقياً أن ينتقض عقد الذمّة بالنسبة للذمي الخائن في الوضع نفسه[1]، وتبقى مسألة أخيرة تتصل بشرائع الذميين في مواجهة الشريعة الإسلامية، فمن المعروف أن هناك خلافاً كبيراً بين الفقهاء فيما يتصل بعلاقة الشريعة الإسلامية بالشرائع الكتابية الأخرى خصوصاً اليهود والنصارى، فهناك من الفقهاء من يعتبر الشريعة الإسلامية ناسخة للشرائع السماوية السابقة، وهكذا يرى هذا الفريق تطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها على أهل الذمة[2]، وهناك من يرى أنّ الشريعة الإسلامية حُجّةٌ فقط على المسلم وله وهكذا يعطي للذميين حق الحكم بشرائعهم هم في كل شيء لايمس أمن الأمة[3]، أمن أرض الإسلام،ولكن هذين الرأيين كليهما يمثلان توجهات قلة من الفقهاء أما فقهاء أكثر المذاهب[4] فيرون أن الشريعة الإسلامية استمرارٌ للشرائع السابقة من حيث الجذر الأخلاقي التوحيدي إذ الدين واحد، وهي ناسخة فقط في مسائل محددة مذكورة في القرآن والحديث وإجماع المسلمين، وهكذا يجري التعامل مع الذميين على هذا الأساس فتطبق عليهم الشريعة

---

[1] – شرح السير الكبير/١٣٨، وانظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات ص١٣١.

[2] – اختلاف الفقهاء للطماوي (ط، الهند) ص ٢١٦.

[3] – اختلاف الفقهاء للطماوي ص ٢١٦.

[4] – أصول السرخسي ١١٨/٢-١٢١.

الإسلامية في المسائل المشتركة[1]– وهي الأغلب، ويستثنون منها في المسائل المنسوخة عند المسلمين من مثل الأنكحة وبعض صيغ التعامل التجاري، وشرب الخمر وما شابه، والرأي الأخير هو الذي جرت عليه السلطة الإسلامية منذ أواسط العصر العباسي وحتى نهايات الدولة العثمانية، لكنّ هناك من الدلائل ما يُشيرُ إلى أنّ المسيحيين بالذات من بين أهل الذمة كانوا قليلاً ما يلجأون إلى القضاء الإسلامي فيما يجري بينهم، فقد وصلتنا كتب فقهية مسيحية كثير منها يدل على أنها كانت مستعلمة مطبقة في الأحوال الشخصية عندهم على الأقلّ[2]، وقد كان بوسع المسيحي طبعاً اللجوء إلى القضاء الإسلامي، وتدل بعض الفصول في

---

[1] – أحكام الذميين لعبد الكريم زيدان ص٣٨-٣٩، وفي نصاب الاحتساب لعمر بن محمد بن عوض السنامي الحنفي ص١٢٣: "... والحاصل أنه فيما سوى الخمر والخنزير ونكاح المحارم وعبادة غير الله تعالى، حال أهل الذمة كحال المسلمين، ما يمنع منه المسلم يُمنَعُ منه أهل الذمة".

[2] – Sachau: Syrische Rechtsbercher 11.57

"الأحكام الكبرى"[1] للإشبيلي على هذا بيد أنّ الزعيم الديني للطائفة لم يكن يقابل ذلك بالترحاب على مايبدو[2]، وفي عهد توليـة وتثبيـت لجـاثليق النساطرة ببغداد مطالع القرن السادس الهجري من جانب الخليفة العباسي

---

[1] - انظر: وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس مستخرجة مـن مخطـوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبع عيسى بن سهل، دراسة وتحقيق على عبد الوهاب خلاف/القاهرة ١٩٨٠/ وقارن حالات لجأ فيهـا مسـيحيون للقضـاء الإسلامي، آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجـري، ترجمـة محمد عبد الهادي أبو ريدة/القاهرة١٩٤٠/(١/٧٢-٧٤)، وفي منتهى الإرادات لابن النجّار ٣٣٥/١: "وإن تحاكموا إلينا - أومستأمنان باتفاقهما - أواسـتعدى ذميّ على آخر فلنا الحكم والترك.."، ويفهم المالكية المسألة فهماً مختلفاً، ففـي البيان والتحصيل (تحقيق أحمد الشرقاوي إقبال/دار الغرب الإسلامي ببيـروت ١٩٨٤) لابن رشد ١٨٦/٤: "قلتُ: هل لقاضي المسلمين أن يقضي بين أهـل الذمة فيما يتظالمون فيه من الأموال أومن البيوع والرهون والغصب؟ فقـال: نعم! ذلك الذي يحقّ عليه، قلت: ففي أي شيء يترك الحكم بينهم؟ قـال: فـي حدودهم وتمتعهم وطلاقهم وبيع الربا التي يتبايعون بها من الدرهم بالـدرهمين ونحو هذا ونكاحهم... وأما القتل والجراح والغصب والأموال التي يتظـالمون بها فإن على حكم المسلمين أن ينظر بينهم، قال محمد بن رشد: قول ابن القاسم هذا موافق لما في المدونة وغيرها لمالك وأصحابه لااختلاف بينهم في أن على حكم المسلمين أن يحكم بينهم فيما يتظالمون فيه، وأنه تخيّر فيما سوى ذلك من حدودهم ونكاحهم وطلاقهم وبيوع الربا... لقول الله تعالى: فإن جاءوك فـاحكم بينهم أوأعرض عنهم...".

[2] - انظر: آدم متز: المرجع السابق ص٧٣/١.

يرد أنه يكل إليه بعد موافقة أهل دينه[1]: "مراعاة شؤونهم وتدبير وقوفهم والتسوية في عدل الوساطة بين قويهم وضعيفهم.."، ولاشك أنّ هذا يتضمن أموراً قضائية تتجاوز قضايا الزواج والطلاق والإرث والأوقاف.

هذه هي بشكل موجز جوامع آراء الفقهاء المسلمين التاريخيين (حتى القرن الثامن الهجري) فيما يتصل بأهل الذمة، وهي تنطلق كما اتضح من مبدأين: المبدأ الأول: اعتبار الإسلام دين دعوة يهمه أن ينتشر ويجمع ويستوعب ويوحد، واعتباره نفسه – كدين – استمراراً للدين التوحيدي التاريخي، وإن اختلف من ناحية الشريع، هكذا يمكنه أن يتعايش مع الشرائع الأخرى دون أن يخلّ ذلك بمبدئياته الأصلية.

ولاشك أن النظرة المتكاملة للموضوع تتطلب مراقبة من أربعة جوانب: جانب البداية التاريخية، وجانب الفقه الإسلامي، وجانب التعامل السلطوي، وجانب التعامل الشعبي، ويكون علينا في نظرة متكاملة كهذه أن نقدم لها مدخلاً حول التمييز بين المسيحي العربي والمسيحي غير العربي رغم شمولية الإسلام، فلا شك أن المسيحيين العرب والسريان تمتعوا بمعاملة ممتازة حتى بالمقارنة مع بعض الفئات العربية الإسلامية المهضومة من مثل البدو والموالي، فقد كان رجل كأبجر بن جابر زعيماً لبكر بالكوفة التي أسلمت وبقي هو مسيحياً ولم يرَ أحد في ذلك

---

[1] – L.I.Conrad. ANestorian Diploma; Studisa A rabico et Islamico (Festschrift for Ihsan'Abbas, ed. W.D, 1981): pp.83-121.، وانظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات ص١٣٤.

غضاضة[1]، ومثل نصارى بني تغلب ليس الوحيد ولكنه الأظهر، ثم إن ضرورات التعامل والتعايش أرغمت الفاتحين على مسالمة الملكانيين الأرثوذكس إذ كانوا الأكثرية في المدن، هذا رغم التوتر المستمر مع البيزنطيين في قرن الإسلام الأول.

والنظرة الفاحصة للحوارية بين المستويات الأربعة التي ذكرناها تظهر بوضوح ما قلناه في البداية من أنه لم تكن هناك خطة عامة للتعامل مع غير المسلمين منذ البدء إذ من المعلوم أن المجتمعات الإسلامية الوسيطة لم تكن مجتمعات اندمجاية بل كانت مجتمعات عصبيات، وكانت لكل عصبية استقلاليتها الداخلية كما كان تناغمها مع المنظومة بشكل شامل[2]، وقد عرف المسلمون منذ القرن الأول أن المسيحيين لم يكونوا عصبية واحدة كما ظنوا في البداية، ولم يكن سبب الاختلاف دينياً فقط بل كانت هناك تركيبة اجتماعية فلاحية في الريف الشامي والعراقي تختلف عنها في المدن ذات التنظيم المهني والتجاري.

ونملك أمثلة متعددة على محاولات السلطة الإسلامية استغلال الخلافات بين الطوائف المسيحية من أجل إحكام الرقابة على عصاباتها تماماً كما كانت تلك مع القبائل العربية المسلمة في الأمصار[3]، ولكن الضغط لم يكن يأتي على المسيحيين من جانب السلطة فقط، بل كان هناك ضغط شبه مستمر من جانب الفئات الاجتماعية المختلفة لايمكن أن

---

[1] - كتاب الأغاني ٨/٨٣-٨٤.

[2] - ثورة ابن الأشعث والقراءة (فرايبورلج/١٩٧٧) ص٢٥ و٢٦.

[3] - انظر آدم متز، مرجع سابق، ص٧٧ وما بعدها.

ننكر أنه كان أحد أحياناً من درجات الصراع بين العصبيات عادة، ولقد كان المسيحيون العرب والسريان مسيطرين في الإدارة كما هو معروف، وكانوا هم الذين بدأوا بجلب التراث إلى بغداد وهكذا كان اتصالهم المباشر بهم فلما وصل هؤلاء إلى السلطة ضغطوا على المسيحيين في مسألة الزي ومسائل أخرى لبضعة شهور[١].

وينوه الكُتّاب عادةً بالتعامل السمح للأمويين مع المسيحيين[٢] – تبعاً لهنري لامنس[٣] – بخلاف العباسيين لكن الموضوعيين فهم لاينكرون أنّ الاضطهاد إن كان قد رفع، فإنه لم يكن سياسة مطردة حتى في حقبة معينة[٤]، والقول بأنّ الإسلام سلك تجاه المسيحيين سياسة "التسامح الديني والعزل الاجتماعي"[٥]، يفتقر إلى الدليل، فلم يتولّ المسيحيون مناصب عامة كثيرة فقط، بل سيطروا اجتماعياً على بعض المهن، وشاركوا في تنظيمات المهن الإسلامية (الأصناف)[٦]، وعلينا أن لاننسى أن المسيحيين

---

[١] – هناك تراث طويل في مسألة الزي، قارن عنه وعن هذه الواقعة بالذات: أهل الذمة في الإسلام لترتون ص١٢٢-١٢٧.

[٢] – انظر مثلاً، أسد رستم: الروم ١/٦٧-٦٨، وجواد بولس: التحولات الكبرى في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، ص١٠٧، ووليم الخازن: مظاهر الحضارة اللبنانية زمن الدولة العباسية (بيروت ١٩٨٤) ص٢٣ و٢٦.

[٣] – H. Lammens, Syrie 1.7FF

[٤] – J.M.Fiey: Chretiens Syriaques,P.275.

[٥] – E.Strauss, The Social Isolation of Ahl oc. Dimma; in: P. Hirschler Memorial Book. Budapest 1949, P. 73 FF.

[٦] – Clande CAHEN, L'Islam et les minorities confessionlles au cours de l' histoire; in la table ronde,n 126, Juin 1958; P.61 FF

بالشام ومصر ظلوا من الناحية العددية أكثرية خصوصاً في الريف – حتى القرن الخامس الهجري، وطبيعي أن تحدث حساسيات ومخاوف لدى بعض فئات المسلمين في الريف وعلى الثغور والتخوم، خصوصاً أن القرنين الرابع والخامس الهجريين شهدا صعوداً في القوة البيزنطية من جهة ثم كان مجيء الصليبيين فالتتار وهناك عهد مشهور منسوب إلى أبي عُبيدة عند فتح بعض المدن نشره لأول مره ابن عساكر[1] (٥٧١هـ) في منتصف القرن السادس الهجري، يبدو شديد التعصب والحقد على المسيحيين، ولاشك أنه مصنوع في القرن الخامس على صورة العهود القديمة من حيث الصيغة، كما أنه يمكن القول إنّ بعض فقراته تاريخية لكنها منتزعة من سياقها[2]، وما من شك في أنّ إحساس المسلمين بالحصار والضيق آنذاك وشكهم في تعاون بعض المسيحيين مع العدو كان وراء ظهور مثل هذا العهد الذي انتشر وشاع فذكره صاحب صبح الأعشى[3]، وصاحب المستطرف[4]، كما اشتهر في العقود الأخيرة عن طريق نشرة الشيخ صبحي الصالح لكتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية، وكتاب ابن القيم نفسه غاصّ بتفاصيل أكثرها غير تاريخي بل يمكن تتبع ظهورها بين القرنين الخامس والسابع الهجريين.

---

[1] – تاريخ دمشق الكبير ١/١٤٩-١٥١، وانظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات ص١٣٨.

[2] – انظر نقد ترتون له ص٩-١٧، وص٢٥٧ و٢٥٨.

[3] – صبح الأعشى ١٣/٢٥٣-٢٥٥.

[4] – المستطرف ١/١٢٤

ومع أن مصر المملوكية شهدت أحياناً ضغطاً شعبياً على المسيحيين الأقباط فقد كانت البيئة التي تأسس فيها نظام الملل، ذلك النظام الذي بدأ بتعيين أربعة قضاة للمذاهب السنية الأربعة مع إيثار المذهب الحنفي[1]، ثم امتد ذلك للمذاهب الإسلامية الأخرى فالطوائف المسيحية، وما لبثت معالم هذا النظام أن اتضحت أيام العثمانيين، وهو نظام يعتمد مبدئيات الإمام أبي حنيفة التي ذكرناها فيما يتصل بالتفرقة بين الدين الواحد والشرائع المختلفة ليعطي العصبيات والأعراف والطوائف استقلالية داخلية أكبر[2].

وبعد فليس بالوسع الزعم بأن المنظومة الفقهية الإسلامية فيما يتصل بأهل الذمة مثالية، والإسلام لم يُنْشئ الجماعة المسيحية أوجماعة أهل الذمة، إنما شرع قوانين ونظماً للتعامل مع الواقع الذي وجده قائماً عندما ظهر بالجزيرة وامتدّ إلى خارجها، وليس بالوسع الزعم من جهة ثانية أنّ الوضع كان رائعاً تماماً لكن ما بوسعنا تأكيده هو أنّ هذه الاستمرارية الاجتماعية الرائعة للجميع مردُّها الجذر الحضاري الواحد (أوما سمّاه أبو حنيفة: الدين الواحد)، والمنظومة الاجتماعية والسياسية الواحدة على الأرض الواحدة، ولم تكن هناك بدائل إلاّ العمل من الداخل وفي الداخل، فمن المعروف أن كثيراً من المسيحيين استقبلوا الإسلام

---

[1] - السلوك للمقريزي ٢١٧/٢/٣-٢١٨.

[2] - قارن عن تفاصيل منظومة الملل مقالة وجيه كوثراني: "المسيحيون: من نظام الملل إلى الدولة الحديثة"، في "المسيحيون العرب" (١٩٨١) ص ٥٦-٧٤.

بترحاب ملحوظٍ كقوة سياسية بديلة للقوتين[1]: الساسانية والبيزنطية، ثم نشأ جدل عقدي طويل غصّ بمئات الاتهامات والردود بين لاهوتيي المسيحية البيزنطية والسريانية من جهة، ومتكلمي المسلمين من جهة ثانية، ولم يحتج المسيحيون رغم ردودهم على المسلمين والإسلام، ووقوفهم أحياناً إلى جانب السلطة الإسلامية الباغية، إلى من يحميهم أويسوّغ لهم وجودهم على الأرض التي صارت أرض الإسلام، قبل مجيء الصليبيين والمغول.

هذه هي طبيعة هذا العقد وضماناته والحقوق التي يرعاها والكرامة التي يوفرها لأهل الذمة، الأمر الذي حدا الأستاذ آدمون رباط لأن يصفه بأنه "ابتكار عبقري"، وذلك لأنه للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة دينية في مبدئها وفي سبب وجودها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، ألا وهو الإسلام إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن يحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطرز حياتها وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الذي يرتديه هذا الدين، كما كان عليه الحال في المملكتين العظيمتين اللتين كان يتألف منها العالم القديم[2].

لقد أرسى هذا الأساس النظري الإسلامي أساس التعايش بين

---

[1] - رضوان السيد: مفاهيم الجماعات ص١٣٩.

[2] - أدمون رباط: بحث المسيحيين في الشرق قبل الإسلام، من كتاب المسيحيين العرب، نشر مؤسسات الأبحاث العربية.

المسلمين وجميع أتباع الديانات الأخرى الذين عاشوا فـــي ظـــل الحكـــم الإسلامي، ولكنه تضمن الوقت نفسه ما أعطى النصارى ديـــنهم مكانـــة خاصة لأنهم "أهل الكتاب"، وأقربهم مودة للذين آمنوا، ومـــنهم قسيســـو ورهبان، وأنهم لايستكبرون[١].

---

١ – د. النجاني: مسلمون ومسيحيون، ص٢٠.

الرابطة الاسلامية المسيحية
في ضمير التاريخ

ويتضمن هذا الموضوع بحثين:

– عرض تاريخي وصفي لمجمل الرابطة الإسلامية المسيحية في مختلف مراحل التاريخ العربي.

– سبر نتائج وآفاق وخصائص الحضارة العربية الإسلامية بوصفها الحضانة العامة للرابطة الإسلامية المسيحية.

عرض تاريخي وصفي لمسار العلاقة الإسلامية – المسيحية

لاشك أن المسيحية لم تكن غريبة عن العرب قبل الإسلام فلم يكونوا يعرفونها عن طرق الشام والملكانيين والسريان فيها، بل كانت هناك مسيحية مونوفيزية في اليمن، ومسيحية في قبائل عربية بدوية بالبحرين واليمامة، ومسيحية مدينية ومهنية بمكة والطائف والحِجْر[1]،

---

[1] – –Coulson: AHistory of Islamic law (Edinborg 1964) 16-31.
وآخر الدراسات حول الموضوع وأهمها الآن دراسة سبنسر ترمنغام: "المسيحية بين

ومع ذلك فإنّ المسيحية في الداخل العربي لم تكن قوةً سياسية يُحتَسبُ حسابها[1]، ولهذا لم يتصارع النبي معها بعكس ما حدث مع اليهودية، بل لم يعرفها الإسلام كمجموعة بشرية في عالمه المتكوّن إلاّ في أواخر حياة النبي عندما اتصل به المسيحيون النجرانيون[2]، وعاهدته بعض المستقرات المسيحية على أطراف الجزيرة من ناحية الشام[3]، ولهذا كان موقف القرآن بشكل عام إيجابياً من المسيحية من الناحيتين: السياسية والسلوكية[4] كل ذلك مقارناً باليهود.

ولابد أن ندرك أنّ الموقف تغيّر عندما اقتحم العرب المسلمون

العرب قبل الإسلام" (١٩٩٧٠)، انظر مراجعة لها لـ Theological Rerlew, 1980.PP. 45-49 In J.M. Fiey.

وانظر دراسة أدمون رابط (بالفرنسية/ من منشورات الجامعة اللبنانية/١٩٨٠) بعنوان: المسيحيون في العهد الأول للإسلام – الشرق المسيحي قبل الإسلام.

[1] – حاول مكّي اسمه عثمان بن الحويرث – كان من معتنقي المسيحية الملكانية – أن يسيطر على مكة، لكنّ قريشاً قتلته في أواخر القرن السادس الميلادي، قارن بالأصنام لابن الكلبي ص٩، وسيرة ابن هشام ٧٦/١، والأوائل للعسكري ٧٥/١-٧٦، وما ذهبت إليه هنا هو ما رآه Trimingham ص٣٠٨، في دراسته السالفة الذكر.

[2] – هناك دراسات لماسينيون وشتروتمان وشموكر عن مسألة المباهلة مع النجرانيين المسيحيين وتبدو المسألة أسطورية، وإن لم يكن التشكيك في العلاقة ذاتها ممكناً، قارن بطبقات ابن سعد ١٣٨/٨-١٤٠، وسيرة ابن هشام ٩٧/٤-٩٨.

[3] – مغازي الواقدي ١١١٨/٣-١٣١٦،١١٢١.

[4] – في سورة الروم: "غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون وفي سورة المائدة/٨٢: "ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون".

السواد والشام ومصر وشمال أفريقية – وكلّها مناطق مسيحية – هنا تحوّلت المسيحية إلى خصم سياسي وعسكري خصوصاً تلك المرتبطة بالبيزنطيين المقاتلين، لكنّ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) شهد تطورات جديدة، فقد تآلف العرب المسلمون ومواليهم من المستقرين بالمدن مع الملكانيين الذين كانوا يشكلون أكثرية السكان، في الوقت الذي كانت فيه العلاقة مع الفلاحين السريان والقبط جيدةً منذ البداية.

وبانتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد[1]، خفّت حدّة الصراع مع البيزنطيين فخفّت بالتالي حِدّةُ الحذر من المسيحيين العرب وغيرهم من المقيمن على أرض الإسلام[2]، هكذا أخذت هذه العلاقة بالتطور والإيجابية والتعمق مستند في ذلك إلى قوة الحياة ذاتها، وإلى روح النص الديني المسيحي والإسلامي.

هذا وسنحاول استعراض المواقف الإسلامية – المسيحية في تواصلها، وتغيّرها منذ طورها الأول، مروراً بالتفاعلات التي أعقبت فتح بلاد الشام، لنصل إلى الحديث عن إسهام المسيحيين الشرقيين في

---

[1] – قارن عن الوضع مع المسيحيين بداية: "أهل الذمة في الإسلام لترتون (ترجمة حسن حبشي) ص١٩-٣٠، وبعد انتقال الخلافة إلى العباسيين:
J.M.Fiey, Chretiens Syriaques sous les A bbassides Surtout a B agdad, SuBsidia. Tomus 59, 1980.

[2] – P.R osenthal: Das Fortleben der Antike im ! slam, P.8-11 والخراج لأبي يوسف ص٧٤، وأحكام القرآن للجصاص ٣٢٧/٢ والمغني لابن قدامة ٨/٤٩٦-٤٩٨، وأهل الذمة لترتون ص١٠٣ وما بعدها. وانظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، بيروت، دار التنوير، ط١ ١٩٨٤، ص١١٨.

الحضارة العربية – الإسلامية، بعد ذلك، نشير بسرعة إلى مرحلة أقل خصوبة من سابقتها وهي ممتدة حتى القرن الخامس عشر (م)، ثم نتناول المواقف والأحاسيس داخل "ملّة الروم" في الحقبة العثمانية، وصولاً إلى "المرحلة الانتقالية" في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي والتي تدخلنا في الزمن المعاصر.

أولا: العهود الأولى

كما قلنا سابقاً، لم تكن المسيحية غريبة عن العرب قبل الإسلام، فقد ازدادت معرفتنا بها بشكل ملحوظ، فإلى جانب الملكانيين والسريان في سوريا، كان هناك جماعات "يعقوبية"[1] في اليمن والبحرين، وفي شمال الجزيرة العربية أقام عدد من القبائل المتنصرة نزح بعضها من أواسط الصحراء.

ويشير المؤرخون كابن قتيبة إلى أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، أما في مكة والطائف فقد أقام مسيحيون "روم" وأحباش فضلاً عن عدد من بني أسد وبعض عائلات قريش ومجموعات انتسبت إلى "مسيحيات" اندثرت في ما بعد، هكذا وتومئ بعض المؤشرات القرآنية والنصوص الأدبية إلى أن هذه "المسيحيات" تغذت من أساطير غير مسيحية وعقائد هرطوقية بالإضافة إلى المعارف الكتابية، وهناك

---

[1] – تسمية تنسبهم إلى يعقوب البرادعي وقد أطلقها عليهم في البداية خصومهم الكنسيون وظلت معتمدة في المراجع العربية، لكنها اليوم غير مستساغة ومثلها تسمية أصحاب الطبيعة الواحدة أوالمونوفيزيين، وانظر مقال طارق متري، المسيحيون الشرقيون والإسلام ص١٧٠.

أخيراً الفرق المسيحية – اليهودية وأبرزها الابيونية والقيرنثية والكسائية.

لم يؤلف المسيحيون، إذاً جماعة متماسكة كاليهود الذين تعامل معهم النبي محمد على النحو المعروف: إلحاقهم بالأمة كما جاء في الصحيفة، والمواجهة معهم كما جرى لاحقاً.

إن لقاء النبي "الهادي" مع مسيحي نجران (في السنة العاشرة للهجرة) والذي تخللته المباهلة التي يشير إليها القرآن، يشهد للطور الأول من العلاقة الإسلامية – المسيحية والتي لم تعرف بداية منظومة واضحة تحدّد الحقوق والواجبات، إلاّ أن الفتوحات المتعاقبة والعهود التي أعطيت للمسيحيين بوصفهم " أهل كتاب" سرعان ما حدّدت في الواقع وضعيتهم كأهل ذمة، وبدا أن ذميتَهم هذه أقرب إلى العقد منها إلى الوضع الثابت، ويعزز هذا القول ما بينَه لاحقاً فقهاء عديدون وصولاً إلى يومنا هذا، حيث يؤكد عدد من الإسلاميين على المواطنة ويفسّرون فكرة أهل الذمة تفسيراً تاريخياً يحرّرها من المطلق أوالمؤبد[1].

ومما لاشك فيه أن هذه العهود أوالعقود تستوحي المبادئ القرآنية لكنها تعكس، في الوقت نفسه، الظروف المحيطة بالفتوحات وخصائصها، فمعظمها كان "يسيراً" حسب ما جاء في وصف البلاذري لفتح بلاد

---

[1] – راجع على سبيل المثال كتابات فهمي هويدي مواطنون لاذميون (دار الشروق ١٩٨٥) ومحمد سليم العوا في النظام السياسي للدولة الإسلامية (دار الشروق ١٩٨٩) وأحمد كمال أبو المجد في الحوار القومي – الديني، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٩).

الشام[1]، ولاريب في أن بعض العوامل التي يسّرت أمر الفتوحات يتصل بأوضاع المسيحيين من حيث علاقاتهم ببعضهم وبالسلطة البيزنطية، فالغساسنة مثلاً خرجوا عن الولاء الثابت للدولة البيزنطية، ولم يكن اختلافهم المذهبي عنها بعيداً كل البعد عن ذلك، أما المسيحيون الآخرون في سوريا، أي أن الذين كانوا على مذهب الدولة، من الملكانية فشاركوهم في الاستياء من الحكم وإن لأسباب أخرى.

ومايصحّ في موقف الغساسنة يصحّ في مواقف مجموعة السريان والأقباط، حيث لايمكن إغفال التأثير المتبادل بين الاختلاف المذهبي عن الحكام والأحاسيس "شبه – القومية" وإن لم يعن ذلك بالضرورة كما يرى البعض[2] أن الخلافات الكنسية ليست إلاّ تعبيراً دينياً عن النزوع إلى الاستقلال الثقافي والسياسي يعود إلى استياء "الملكانيين" في سوريا من الحكم البيزنطي للإشارة إلى أنه يعود لجملة أسباب، منها ازدياد الضرائب وانحياز الحكام (أوبعضهم) إلى من هم في نظرهم هراطقة (كأصحاب المشيئة الواحدة)، وعلى الرغم من أن هذا الاستياء لم يؤدّ بهم إلى الخروج عن الطاعة، فقد عزّز ميلهم إلى الواقعية عند استقبال الحكام المسلمين والدخول في خدمة دولتهم.

هذه الواقعية نجدها عند يوحنا الدمشقي (منصور بن سرجون) وعند أبيه وسائر أفراد عائلته من قبله، وسنبين في ما نستعرض مراحل

---

[1] – البلاذري، فتوح البلدان، طبعة دي غويه، ليدن، ١٨٦٦، ص١١٦.

[2] – كما جاء عند إدمون رباط في كتابه:

La Veille de l'Islam. Pulblications de l'orient Christien de libanaise L'U nirevsite (Beyrouth: 1980).

حياته ونتعرف إلى فكره، أنها تقوم على التمييز بين الرابطة الدينية والولاء السياسي، ولقد تطورت العلاقات الإسلامية – المسيحية على نحو يسمح بهذا التمييز ويلقي ضوءاً على الموقف المزدوج الناشئ عن هذا التمييز الذي يعتبر الدمشقي أحد أبرز المعبرين عنه.

ثانيا – أدوار المسيحيين وأفكارهم أيام الأمويين

اقتضت ضرورات بناء الدولة الجديدة ومؤسساتها أن يعمد الحكام المسلمون إلى اصطفاء الأكفاء للوظائف دون تفريق في الجنس أوالدين، واحتلّ عدد من المسيحيين مناصب رفيعة في الدولة لما لهم من خبرة اكتسبت في خدمة الدولة البيزنطية، لكنه وفي العام ٧٠٠م (٨١هـ) عزم الخليفة الأموي عبد الملك على تعريب الدواوين بعدما تعاظم الشعور بالانزعاج لدى المسلمين من معاملة أهل الذمة على نحو يبرز نوعاً من "التفوق الثقافي" يعبّر عنه استمرارهم في استخدام اللغة اليونانية، إلاّ أن التعريب المذكور لم يؤد إلى استغناء عن خدمات المسيحيين، بل اقتصر على إدخال اللغة العربية في قيد حسابات الدولة واستبدال النقد الذهبي البيزنطي بالدينار العربي، ولعلّ هذه الإجراءات كانت سبباً للتنافر بين الخليفة وسرجون بن منصور (والد يوحنا الدمشقي) الذي عزّ عليه أن يغيّر نظماً تعوّد عليها، وتزامن مرضه مع امتعاض الخليفة منه ورغبته في إقالته، لكن إبعاده لم يكن سبباً كافياً لإقصاء سائر الموظفين الكبار، إذ إنه سرعان ما عيّن الابن منصور (يوحنا الدمشقي) ما يمكن أن نسميه أميناً للسر في الإدارة المالية، وهذا منصب حسّاس إلى حد أن الراهب

مخائيل السمعاني واضع سيرة الدمشقي، دعاه "كاتباً" لأمير "دمشق متقدماً عنده صاحب سرّه وجهره وأمره ونهيه"[1].

ولابد من الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى دور المسيحيين في الإدارة، كان قصر الخلفاء مفتوحاً للشعراء ومنهم عدد ملحوظ من المسيحيين كالأخطل الذي أباح لنفسه حرية كبيرة، بل مدهشة، في السلوك كما في الكلام، وكانت الحرف البدوية كالبناء والخياطة غير مستساغة عند العرب المسلمين فكادت تقتصر مزاولتها على المسيحيين الذين كانوا أيضاً أكثرية بين الأطباء والمهندسين ومتعاطي عدد من فنون الصناعة والتجارة.

وعلى الصعيد الديني، لم يعان المسيحيون في بلاد الشام من تغيّر الأوضاع عقب الفتح، فلم يلجأ الفاتحون إلى الشدة ليفرضوا على المغلوبين اعتقاداتهم الإسلامية، بل لبثت سوريا إلى حد كبير بلداً مسيحياً من حيث نسبة السكان وعدد الكنائس الذائعة الصيت على نحو كنيسة القيامة واللدّ والرها[2].

غير أن إلغاء المعسكرات الخاصة بالجيوش، دفع بعدد من المسلمين إلى الإقامة في المدن، في بعض الأحياء المهجورة بوجه خاص، لكن معظمهم اختار الإقامة في المدن الصحراوية كالرصافة

---

[1] - الراهب مخائيل السمعاني الأنطاكي، سيرة يوحنا الدمشقي، في: كمال اليازجي، يوحنا الدمشقي آراؤه اللاهوتية وعلم الكلام (بيروت: منشورات النور ١٩٨٤) ص٣٦، وانظر مقال طارق متري: المسيحيون الشرقيون والإسلام ص١٧٣.

[2] - أبو عثمان الجاحظ، كتاب الحيوان (القاهرة ١٩٣٨) الجزء الأول، ص٢٩.

وتدمر، فيما ظلت دمشق وأنطاكية وحمص والقدس محافظة على خصائصها القديمة.

ولم تتمسك القبائل المسيحية – باستثناء التنوخيين والتغلبيين – بمسيحيتها، بل استميلت من غير إكراه ظاهر إلى اعتناق الإسلام، وعلى الرغم من ذلك، حافظ الكثيرون من أبنائها على عاداتهم المسيحية، ولم يأنفوا من تعلق ذويهم ونسائهم بدينهم الأول، وشعر المسيحيون عموماً بالطمأنينة ما عدا بعض الاستثناءات المحدودة، ورغ أنهم أحسّوا بعض التدني في منزلتهم الاجتماعية فلا يسجل المؤرخون انزعاجاً لديهم واسع النطاق.

لقد استمروا في ممارسة شعائرهم الدينية بشكل طبيعي، ولم يكتموا معتقداتهم الدينية بل جاهروا بها معلقين في أعناقهم صلباناً، وظل كتّاب الدواوين من المسيحيين، وحتى مطلع القرن الثاني للهجرة، يرسمون علامة الصليب على ظهور الوثائق الرسمية في سوريا ومصر أيضاً، كما تشهد على ذلك مخطوطات البروق في مصر والمكتوبة باللغتين، وكان رؤسائهم المسلمون يثبتون ختمهم إلى جانب الصليب عوض أن ينهوهم عن ذلك[1].

من الطبيعي أن يؤدي كل ذلك إلى تفاعل بل إلى تداخل اجتماعي بين المسلمين والمسيحيين يعززه، فضلاً عن المودة التي أوصى بها القرآن، شوق إلى الإطلاع وقابلية لأخذ المعارف ورغبة عند السادة الجدد ألاّ يقف اقتباسهم من الحضارات الأخرى عند حدود ضيقة.

ولم يقتصر التفاعل المذكور على توظيف خبرات المسيحيين

---

[1] – حبيب الزيات، الصليب في الإسلام (صريصا – لبنان ١٩٣٥م ص ٥٨-٦٥.

الإدارية والفنية في خدمة الدولة الجديدة، وعلى اقتباس المعارف والعلوم وسكبها في قالب حضاري جديد، بل تعدّى ذلك إلى قيام حركة تبادل أفكار وحوار مباشر وغير مباشر سنكتفي باستقراء بعض ملامحه على الصعيد الديني.

لقد وجد المسيحيون أنفسهم إزاء دين جديد أثار عندهم أسئلة كثيرة خصوصاً بعدما دخل المسلمون، بعد الفتح في طور جديد من الدعوة، غير أن الموقف الإسلامي تميّز غالباً بالحذر تجاه الغوص في مساجلات عقائدية مع المسيحيين، وفي ذلك نوع من التجاوب مع ما توصي به الآيتان القرآنيتان اللتان طالما استشهد بهما:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ النحل١٢٥.

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ العنكبوت٤٦.

لكن الحوار هذا لم ينف الدعوة إلى الإسلام بل يشير إلى أنها لم تسلك بالضرورة سبيل المناظرة الدينية أوتفنيد المعتقدات، لذلك رأى المسيحيون أن الدعوة تستمد زخماً، بالدرجة الأولى، من مكانة الإسلام بوصفه دين الدولة الجديدة، إلاّ أنهم وإن لم يضطروا إلى الدخول في مناظرات، وعمدوا إلى صياغة موقف دفاعي من الإسلام فيبدو أنه راوح

بين الدهشة التي يختلط فيها الجهل وإدراك عناصر التقارب في المسلمات الإيمانية الرئيسية، والحذر حيال ما جاء في الإسلام مخالفاً للمسيحية، وقاد هذا الحذر بدوره إلى موقف لايخلو من الازدواج بين التأكيد على المغايرة حتى حدود القطيعة وإبراز الإسلام بوصفه هرطقة مسيحية، وقد تعزز هذا الأخير بالتشديد على أهمية اللقاء الذي جرى بين النبي محمد وراهب بحيراء، وبافتراضات كثيرة عن أثره، وأخرى متعلقة بالهوية الكنسية الحقيقية للراهب المذكور.

ومهما يكن من أمر الازدواج، فقد احتلت الدفاعية العقائدية مكانة أكبر من تناول الإسلام نفسه، وتمتع المسيحيون بحرية في المجال الأول أكبر منها في المجال الثاني وتشهد على ذلك بالطبع واقعة أتى يوحنا الدمشقي على ذكرها في نصّ عنوانه "حياة وأعمال الكاهن الشهيد بطرس الجديد أسقف "مايوما" الذي تألم في مدينة كابيتولياس"[1].

لقد دعا بطرس، وهو على فراش الموت، وجهاء المسلمين في مدينته وحدّثهم عن إيمانه المسيحي بطريقة لم تخل من التعرض للإسلام ونبيّه، مما أثار غضبهم ودفعهم للبحث في إنزال عقوبة الإعدام به، وبعد ترددهم واستعادة الرجل المفاجئة لصحته، نزل إلى الساحات وألقى خطباً نارية تهاجم الإسلام، فما كان من الخليفة الوليد الأول إلا أن استدعاه

---

[1] – حقق النص: K.peeters, la passien de S. pierre copitalias ,in Analects Bolandina (Bruxelles, 1939) PP299-333

وانظر مقال وهو منشور عند عادل تيودور خوري في كتابه:

Les Theologiens Bysuontins et L'Islam Textes et A uteurs Editions Nowelaert' Paris: louvoin – 1909, P.67

مؤكداً له حريته في "الإيمان بالمسيح إلهاً رغم أنه بشري" لكنه حذرّه بشدة من مغبة التعرض للإسلام ونبيّه.

نعود إلى يوحنا الدمشقي لنذكر أن دوره اقترب من ممارسة نوع من الزعامة على المسيحيين من حيث تمثيلهم لدى السلطة، والدفاع عن حقوقهم، خصوصاً في الفترة التي شهدت بعض التردي في أحوالهم خلال النصف الثاني من زمن عبد الملك بن مروان وما بعده.

لقد استمر في خدمة الدولة أيام الوليد وسليمان أخيه اللذين ضايقا المسيحيين في عهد عمر الذي فاق أسلافه في القساوة بحقهم، ومالبث يوحنا أن ذهب بنفسه ضحيّة لإجراءات عمر التي حظّرت على المسيحيين تسلّم وظائف رفيعة في الحكومة ما لم يرتدوا عن دينهم، فاستقال وترهب في دير القديس سابا في فلسطين، تحدوه الرغبة في عيش حياة الزهد والانصراف إلى التأليف اللاهوتي ونظم التسابيح الكنسية.

ولم يكتب يوحنا الدمشقي كثيراً عن الإسلام واكتفى بإشارات محدودة إلى تاريخه وإلى بعض ما جاء في عقيدته مخالفاً للمسيحية، ويأخذ دفاعه عن المسيحية شكل الدحض والتفنيد، وفي السياق الدفاعي وضع حواراً "مع أحد الشرقيين"[1]، يتميز باعتماده على غرار العديد من أسلافه، الفلسفة سبيلاً لإيضاح العقيدة المسيحية، ويتناول الحوار مسائل

---

[1] – J.P.M igue. Potrologiac cursus compliitus, Series Gracca, 1851- 1879, vo196, PP. 1335-1347.

الترجمة العربية معنونة يوحنا الدمشقي في حوار مع أحد الشرقيين قام بها ونشرها موريس سيل (بيروت – ١٩٦٨).

يعزز لدى عدد من الباحثين والمؤرخين الفرضية القائلة إن الدمشقي قصد طرح قضايا تعني المسلمين مما أدّى به إلى التأثير في الاتجاهات الفكرية عندهم – القدرية بوجه خاص – بل إلى إطلاق حركة الكلام الإسلامي، فهذه الحركة قامت بعد شيوع آثار يوحنا مما يشكل نوعاً من القرينة الزمنية تضاف إليها قرينة المشابهة.

ويذهب البعض[1] إلى حدّ مقارنة تبيّن المشابهة في النهج والإشكالية والموضوعات بين ما جاء عند الدمشقي وكتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري.

على خطى الدمشقي أوعلى منواله، تعامل المسيحيون الشرقيون مع المسلمين على صعيدي المجتمع والدين فميزوا بالواقع بينهما ولم يروا على العموم في الولاء السياسي للدولة الإسلامية مشكلة كبيرة، اللهم إلاّ في بعض المجالات التي سنأتي على ذكرها لاحقاً.

ويظهر هذا الولاء في نوعية الخدمة التي أدّوها للدولة الجديدة وفي نوعية المشاركة في الحياة الفكرية والعلمية والفنية، أما في المجال الديني فسلكت أفكارهم سبلاً متعددة أبرزها ثلاثة: الأول مهجوس بالدفاع عن الإيمان المسيحي – عقيدة الثالوث بوجه خاص، والثاني منفتح على الحوار المسيحي – الإسلامي.

ومن أول الحوارات نصّ مكتوب بالسريانية ومنسوب إلى يوحنا البطريرك الأنطاكي (اليعقوبي) وقد جرى بينه وبين "قائد عربي" أوأمير للجند، وهناك أيضاً في الفترة الأولى إياها حوار آخر بين إبراهيم

---

[1] -- اليازجي، يوحنا الدمشقي، مصدر سابق.

الطبراني والخليفة عبد الملك، أما المنحى الثالث فهو لاينفصل عن الأول من جهة مرماه، وإن اختلفت طرقه في السعي إلى تحكيم العقل عند النظر إلى المسائل العقيدية ما بين المسيحية والإسلام[١].

ومما لاشك فيه أن هذا النموذج الأخير من الفكر – وقد رأى فيه البعض تأثيراً مسيحياً في علم الكلام الإسلامي – راج بعض الشيء أيام العباسيين، وحتى "المحنة" التي عرفها عصر المأمون، عندما اتضح أن ردة الفعل لدى أهل السنة والجماعة على الاعتزال لم توفر النصارى من حيث مسؤوليتهم في إدخال النهج الفلسفي إلى الفكر الإسلامي[٢].

ثالثا – المسيحيون في العصر العباسي

شهدت الحقبة العباسية مساهمة مسيحية لافتة في الحياة الفكرية، وكانت الشخصيات الأبرز يومها تنتسب إلى النسطورية أواليعقوبية (من السريان المشارقة والمغاربة)، ويفسّر ذلك انتقال مركز السلطة إلى بغداد – بقرب "سلوقية" العاصمة الدينية للمسيحيين المشارقة – والشبهة على بعض الملكانيين المقيمين في مناطق قريبة من الحدود مع الدولة البيزنطية.

لقد لعب المسيحيون دوراً كبيراً في التعريف بالتراث اليوناني عن طريق الترجمة وتعاطي الفلسفة والعلوم، ويشهد على أهمية هذا الدور، اتساعاً وتنوعاً، ما جاء في طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل الأندلسي، وفي باب "الفلسفة والعلوم القديمة" عند ابن النديم في الفهرست.

---

[١] – مقال: طارق متري ص١٧٧.

[٢] – مقال: طارق متري ص١٧٨.

لن نستفيض بالطبع في تقويم أثـر الترجمـات مـن اليونانيـة والسريانية والفارسية التي قام بها المسيحيون الشـرقيون، وقـد قطـع استعرابهم الإجمالي شوطاً بعيداً، في "تشـكيل" الحضـارة العربيـة – الإسلامية، على وجه العموم، وحسبنا أن نشير إلـى أن هـذه الحركـة عرفت ذروتها في عصر المأمون حيث ساهم المسيحيون في الاتصالات بقياصرة الروم والبعثات التي أرسلها الخليفة وفي السياق نفسه، لايمكـن إغفال نفوذ الأطباء النصارى منذ أيام المنصور ومواقعهم المؤثرة أحياناً كثيرة من حيث اقترابهم من السلطة، أضف إلى ذلك ارتفاع نسبة تمثيلهم في "الفئات المهنية العليا" واختلاف بنيتهم الاجتماعية عن نظيرتها عنـد المسلمين مما سبب بعض التوتر في العلاقات الإسلامية المسيحية.

لكننا نشهد من جهة أخرى، منذ أيام هـارون الرشـيد محاولـة لصياغة منظومة ترعى هذه العلاقات مستوحية المبادئ القرآنية وما جاء في العهود الأولى وأبرز ما نعرفه في هذا الصدد ما كتبه في أحول أهل الذمة القاضي أبو يوسف إبراهيم الأنصاري (تلميذ أبي حنيفة) يكشف لنا كتاب الخراج والأحوال الواجبة في معاملـة النصـارى عـن المكانـة المرموقة التي احتلّها المسيحيون وعن التسامح الذي عُرف حيالهم، حتى أن البعض كان يرى أن الخاضعين للجزية لم يكونوا أسوأ حـالاً، مـن الناحية المادية من المسلمين المكلّفين بالزكاة التي أعفي المسيحيون منها.

إن العهود الأولى رسمت إطاراً مرجعياً للعلاقـة بـين الحكـام ورعاياهم المسيحيين لكن الظروف السياسية المتغيّرة، على نحو ما أشرنا إلى بعضها فضلاً عن طباع الحكام الشخصية ونـوازعهم، تفسّـر لنـا ممارسات متفاوتة في اللين أو الشدة.

ومما يجدر ذكره أن الفقهاء صاغوا لاحقاً تفصيلة تتنـاول أهـل

الذمة والسلوك المفروض عليهم بشكل يحدّ من حرياتهم المنصوص عنها في العهود الأولى، ويغالي في إخضاعهم، ولعلّ أبرز ما نعرفه من هذه الأحكام ما ورد في القرن الرابع عشر عند ابن قيّم الجوزية[١].

نعود إلى دور المسيحيين الشرقيين للقول إنه تعدّى مجرد النقل أو"الوّساطة الثقافية"، فالمرحلة "التكوينية" في الحضارة العربية – الإسلامية اقتضت أن يساهم المسيحيون في بناء نظام مجتمعي – ثقافي يستند أساساً، بصورة طبيعية، إلى الإسلام، وتضمنت هذه المساهمة إثارة أسئلة نقدية وتقديم عناصر ومناهج تساعد المسلمين على صياغة الأجوبة عن تلك الأسئلة، ومن هنا إن الإنجازات الفكرية والفنية للحضارة العربية – الإسلامية، مدينة للمسيحيين الشرقيين في تفاعلهم مع شغف المسلمين بالمعرفة في معرض مواجهتهم لتحديات التقدم والتوسع.

ولعل هذا الدور شهد انحساراً، بمجرد أن المهمة التي استدعته قد أنجزت، فوجد المسيحيون أنفسهم عندئذ على هامش نظام مجتمعي بلغ حداً كبيراً من التماسك، فعرفوا مذّاك إنكفاء على الذات وقد ترافق مع تناقص أعدادهم وإمكاناتهم[٢].

يتعذر علينا في هذا المجال أن نسهب في الحديث عن الآثار الفكرية للمسيحيين، وتلك المتصلة منها بالموقف تجاه الإسلام، وسنكتفي

---

[١] – ابن قيم الجوزية، أحكام الذمة، تحقيق الشيخ صبحي الصالح، الطبعة الثانية (بيروت: دار العلم الملايين، ١٩٨١).

[٢] – راجع Robert Hadad, Syrian Christians in Muslim Society (Princeton unirersity Press, 1970) PP 4-5.

بالإشارة إلى شخصيتين بارزتين من القرن الثامن م (الثـــاني للهجـــرة)، تيوذورس أبو قرة أسقف حران، والبطريـــرك النســـطوري تيموتـــاوس الجاثليق.

يتضح للدارسين أن الأول صاحب معرفة جيدة باللغـــة العربيـــة واطلاع على الإسلام، وتعكس كتاباته اهتماماً أول بالدفاع عـــن "الـــدين القويم"[1] ضد الهرطقات المسيحية المختلفة وبالسجال مع اليهود والمواجهة مع الإسلام، وهو لايتصدى مباشرة للإسلام فيما خـــلا نصـــوص قليلـــة (مكتوبة باليونانية) بل يخاطب المسلمين شارحاً الإيمان المسيحي، وهـــو لايتردد في التطرق إلى ماهو مشترك بين المسيحية والإســـلام، وإلـــى طرح المسائل من زاوية عقلانية – تقرّبه من المعتزلة – مثـــل حريـــة الإنسان ومخلوقية كلمة الله، وصفاته وتشبيهه وتنزيهه، كما نقرأ عنـــده ردود أحوال التثليث والتوحيد وشرحاً لموقفه من حيث عدم إيمانه بالنبي محمد.

أما تيموتاوس الجاثليق فهو بدوره دفاعي المنحى، إلاّ أنه معروف بنهجه الحواري كما نتلمّسه في محاورته الدينية مع الخليفة المهدي والتي تبيّن مواقفه اللاهوتية، فضلاً عن أحاسيسه كراع بارز للمسيحيين يعـــي صفته التمثيلية حق قدرها، وتتسم مواقفه بالسعي إلى التوازن بين الرغبة في عدم الإساءة إلى الإسلام، وبالإحجام عن التقرب إليه إلى حد تســـويغ دعوة الخليفة إليه أن يعتنقه، فهو يؤكد الخصوصية المسيحية على نحـــو

---

[1] – راجع: تيودوروس أبو قرة، في وجود الخالق والدين القويم، تحقيق وتقديم الأب أغناطيوس ديك: سلسلة التراث المسيحي العربي، بيروت، ١٩٨٢.

دفاعي، ولكنه هادئ ويبحث بالوقت نفسه عن إجابة مرضية لمطالبته باتخاذ موقف واضح من النبي محمد الذي يقول إنه "سلك في طريق الأنبياء"[1].

بالإضافة إلى هذه النماذج، لايسعنا إلاّ أن نلتفت، وبسرعة أيضاً، إلى بعض الكتاب المسيحيين العرب ممن اعتمدوا المنهج الفلسفي وتناولوا المسألة المسيحية الإسلامية عن طريقه.

ففي القرن التاسع، استخدم حبيب خدمة أبي رائطة التكريتي الوسائل الجدلية والبراهين المنطقية المعروفة عند فلاسفة اليونان مكيفاً إياها مع متطلبات علم الكلام في عصره فكانت له مساهمات في بحث قضية التوحيد والتثليث[2].

أما أبو زكريا يحيى بن عدي، الذي عاش في القرن العاشر، فهو من كبار الفلاسفة الأرسطوطالين وتلميذ أبي بشر متى بن يونس وبي نصر محمد الفارابي، فهو متميز بإصراره على ألاّ يخرج عن نطاق الفلسفة معبراً عن ذلك بنوع من الازدراء تجاه المتكلمين الذي قاموا باقتباسات محدودة من الفلسفة لفرض صياغة منظومتهم الفكرية – غير أنه – وبخلاف فلاسفة مسيحيين آخرين – وضع علمه في خدمة الإيمان ليجعله سهل المنال للمسيحيين وللمسلمين، ونتبيّن هذه المقاربة في كتابه

---

[1] – راجع: Hans Putman, L'E glise et L'Islam sous Timothe (Beyrouth: Dar AL Mashrig. 1975) وهو يتضمن تحقيقاً للنص العربي للمحاورة.

[2] – راجع: Sidrey H.Griffik, Habibe I bn Raita, Christian mutaalim of the first A bbassid Century, in ourius Christianorum, 1980.

مقالة الا في التوحيد[1]، وتحتل مسألة الحرية الدينية مكانة بـارزة عنـده وعلى غرار أبي رائطة الذي تناولها في ردّه على المعتزلي ثمامـة بـن الأشرس البصري وعمار البصري في كتاب البرهان وعبد المسيح بـن اسحق الكندي في رسالته الدفاعية المعروفة إلى عبد الله الهاشمي[2].

كما تثار المسألة إياها عند أحد أبرز المترجمين المسيحيين العرب حنين بن اسحق الذي كتب رداً على دعوة ابن المـنجم إليـه لاعتنـاق الإسلام، ويستخدم هذا الأخير ما أسماه "البرهان الهندسي" ويدور منطقه حول معرفة الحقيقة ويبحث عن معايير موضوعية صالحة لجميع الناس ومختلف الأزمان، ويناقض أيضاً صحة العقائد المتوازنة آخذاً بالحسبان الاعتبارات التي أدت إلى قبولها ومنها الإكراه الجسـدي أوالاقتصـادي أوالاجتماعي أوالفكري، فهو يكرر السؤال: هل اخترت ديني من أجـل ذاته وحباً بالحقيقة أم سعياً وراء مكسب بشري؟[3].

رابعاً: المواقف البيزنطية من الإسلام

في موازاة المسيحيين الشرقيين العرب، تشكلت مواقف مسـيحية بيزنطية من الإسلام علينا ألاّ نفعلها لما لأصحابها من صلات دينية على

---

[1] – يحيى بن عدي، مقالة في التوحيد، دراسة وتحقيق الأب سمير خليـل، سلسـلة التراث المسيحي العربي، (بيروت، ١٩٨٠).

[2] – عبد المسيح الكندي، رسالة عبد الله بن اسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بـن إسحاق الكندي ورسالة الكندي إلى الهاشمي منشورة (بالعربية) عند
Bible Lands Missions (London, Aid Society, (1912).

[3] – مقال: طارق متري المرجع السابق ص١٨٤.

الأقل، مع المسيحيين الشرقيين المقيمين في "دار الإسلام"، لذلك سوف نذكر البعض منها[1] ونجري نوعاً من المقارنة من حيث المحركات واللهجة والمضمون بينها وبين نظيرها المسيحي العربي.

غني عن القول إن الفكر البيزنطي المتعلق بالإسلام تأثر بالمواجهة العسكرية والسياسية الحادة بين الدولة العربية- الإسلامية ودولة الروم، هذا مع العلم أنها عرفت فترات من "التعايش السلمي" وتعبئة دينية أقلّ نسبياً من مواجهات أخرى بين المسلمين وخصومهم، ولعلّ في ذلك صدى لما جاء في القرآن[2] من ميل لاختيار جانب الروم حين يتعلق الأمر بصراعهم وهم أهل الكتاب، ومع "أهل الكفر".

لم يقم تفاعل كاف بين البيزنطيين والمسلمين ليسمح لهم بمعرفة حيّة للإسلام، فم يجهلون لغة الآخر وثقافته، وقد اقتصر احتكاكهم بالمسلمين على الاتصالات التي تفرضها الحرب أومتطلبات الصلح، بالإضافة إلى ما كان يسمح به التنقل المحدود بين الدولتين بهدف الحج أوالتجارة.

ولم تكن الكتابات البيزنطية القاسية قليلاً، فهي تنطبع بالإحساس القوي بالمغايرة اللغوية والسياسية والدينية، وهي تكشف أيضاً عن شعور

---

[1] – مثل تيوفانوس المعترف ونيقتاس البيزنطي وأيفودوس وجورج هاما رتولدس والامبراطور لاوون وغيرهم ممن كتبوا بين القرنين الثامن والثالث عشر والذي حقق نصوصهم ودرسها الأب تيودور عادل خوري في كتابة:
Les Theologiens Byzantins et l'Islam, Textes et Auteurs, VIII-XIII Siecle (Paris- Loubrion: Editions Nauwetert,1969).

[2] -- راجع سورة الروم، وانظر رضوان السيد: مفاهيم الجماعات.

مرّ حيال التوسع الإسلامي على حساب بيزنطة ونجاحه السريع وغير المتوقع إلى الحد الذي أعطى للهزائم العسكرية نوعاً من البعد الديني، فاعتبر العديد من الروم أن انتصار جماعة على دين محمد آتية من الصحراء على "الأمة المسيحية" أقرب إلى "الفضيحة الدينية".

كان المسيحيون الناطقون بالعربية، من جهتهم يعرفون الإسلام عن قرب، فقد اختبروا علاقة مباشرة مع المسلمين وتوفرت لديهم الفرص اليومية ليروهم كيف يمارسون دينهم ويقرؤون القرآن، وكانوا يلتقون في مناسبات عديدة بمسلمين يطلبون التحاور معهم في شؤون الدين والفكر أويسمعون آراءهم في العقيدة المسيحية، لذلك تتضمن كتاباتهم استشهادات بالنص القرآني وبسيرة النبي محمد والحديث، ولكن مناقشتهم للإسلام وردّهم على نقد المسلمين للمسيحية، تستند إلى ما جاء في فكر المسلمين وممارستهم الأخلاقية والتقوية معطوفاً على قراءتهم للنصوص.

لقد اختلف الوضع بالنسبة إلى البيزنطيين الذين لم يتح لهم أن يقيموا علاقات مباشرة مع المسلمين، صحيح أن بعضهم استقى بعض معلوماتهم من مسلمين اعتنقوا المسيحية، إلاّ أنها حالات قليلة، وهي في كل حال تفتقر إلى الصفة التمثيلية، ثم إن المعلومات الأخرى، الكنسية في الاتصالات الدبلوماسية أوخلال الإقامة في سجون المسلمين أوبمناسبة زيارات الأراضي المقدسة، ظلت بدورها دون ما توفره خبرة المعايشة المستمرة ولذلك، لم تستخدم إلا قليلاً، وبقي النص القرآني المصدر الأول، بل الوحيد، لدراسة الإسلام، حتى الحديث ظل بعيد المنال وبالطبع، قليل الاستعمال.

لعلّ أبرز الكتّاب الأوائل هو نقتاس البيزنطي الذي وضع "تفنيد

القرآن"، وأرسى منهجاً هجومياً يقوم على تحليل واختيار مواضيع البحث وتفسيرها، ونسج الكثيرون على منواله في تقديم "إسلام مجرد" ومنفصل عن إيمان المسلمين، ولم يكن تفسيره القرآن ليأخذ بالاعتبار عمل المفسرين المسلمين، بل خضع لمنطق المناظرة وقدّم قراءة من منظور اللاهوت البيزنطي التقليدي، مما عمّق الهوة بين الفكر الإسلامي واللاهوت الدفاعي المسيحي[1].

ونجد في الكثير من المؤلفات نفسها والمعالجات المتقاربة، وقلّما تفرّد أحدهم أو أتى بأفكار جديدة بالكلية.

ينصبّ الاهتمام الأول على الرفض الإسلامي لإلوهية المسيح وصلبه وما يلحق بها من إكرام الصليب والإيقونات، لكن الدفاع يتحول بسرعة إلى هجوم غالباً ما تكون سيرة النبي محمد موضوعه، ويسلك هذا الهجوم طريقين: أولهما البرهنة على أن شروط النبوءة كما يعرفها المسيحيون تقليدياً لاتتوفر عنده، أما ثانيهما فهو استعراض تاريخه الشخصي على نحو يعطي أهمية كبيرة للقائه مع الراهب الهرطوقي[2].

ولايتوقف الهجوم عند شخص النبي، بل يتعداه إلى القرآن نفسه، ومقياس الصواب والخطأ هنا، هو مدى انسجامه مع معطيات الكتاب المقدس كما يفهمونها، وهناك أيضاً مسألة القضاء والقدر بوصفها لاتتوقف مع الحرية الإنسانية، وبخلاف المسيحيين العرب الذين حاولوا توضيح المسألة وتقليصها على نحو يتفادى التعارض المطلق، نرى

---

[1] – مقال طارق متري: المرجع السابق ص١٨٥.

[2] – مقال طارق متري: المرجع السابق ص١٨٦

الكتّاب البيزنطيين يتسرعون في اختيار نصوص القــرآن دون غيرهــا وتفسيرها حسب مقتضيات السجال مع الإسلام.

إن عناصر نقد الإسلام المختلفة تتجمع في الحكم عليه لابوصــفه هرطقة كما جاء عند الدمشقي، بل من حيث هو "خطأ ديني" يشتمل على مفاهيم مغلوطة عن الله والأخلاق ويمارس شعائر مأخوذة عــن العــرب الوثنيين، لكن هذا الحكم القاسي لاينفي أن في الإسلام عناصر مقبولة إلا أنه يعتبرها مسيحية المصدر وفي كل حال غارقة في بحر من الإضافات والانحرافات وأهمّها تلك التي تتعرض للثالوث ولإلوهية المسيح.

لايمكن فهم هذه الكتابات، التي لم يعرف المسيحيون العرب مثيلاً لها في محاوراتهم، لابد من حيث الحدّة والإساءة إلى الإســلام، ولامــن حيث قلّة الاكتراث لفتح احتمالات الاتفاق أوأقله تعزيز الفهم المتبادل، إلا على ضوء المشاعر العدائية المتأجّجة.

إن التعارض الديني يتغذى من المجابهة الحضارية، فالبيزنطيون رأوا في العرب جماعة من البدو الذين لــم يعرفــوا رقــي الحضــارة البيزنطية وريثة الهلينية، ولم تتغيّر هذه الصورة مع الأيام بــل ازدادت تأثيراً في مشاعرهم ما أحسّوا أن قوة المسلمين العسكرية تهــدّد وجــود المسيحية البيزنطية، أكثر من ذلك، أثارت انتصارات المسلمين العسكرية أسئلة مقلقة في أذهان البيزنطيين، وبلغت هذه الأسئلة النطاق اللاهــوتي نفسه، فكانوا في حيرة مرّة حيال فهم مقاصد الله، ولم يكونوا قادرين على معرفة ما إذا كان الله يسمح بكل هذا أويريده من دون العودة إلى التأمــل

في تراثهم اللاهوتي بحثاً عن المعنى الآخـري (نسـبة إلـى الآخـرة) لانتصار الكفار على المؤمنين[1].

ليست الكتابات البيزنطية إلا مرآة لكبرياء مجروحة علـى نحـو مزدوج، فهي مستهدفة على الصعيد الديني من قبـل قـوم ذوي ثقافـة "بدائية"، وعلى الصعيد "القومي" بفعل الهزائم العسكرية المتلاحقة، ويبدو لنا أن الغلوّ عند عدد من المفكرين البيزنطيين في معرض الـدفاع عـن المسيحية من خلال الهجوم على الإسلام، فضلاً عن أشـكال التطـرف المختلفة، يوحي بأنهم يبحثون في المجال الديني عن سبيل للـرد علـى خسارتهم في المجال العسكري[2].

يبقى أن نشير إلى أن تشكيل الصورة البيزنطية للإسـلام حكـراً على الكتابات السجالية العنيفة والمتكررة، فهناك عدد من المواقف التـي تتسم ببعض المرونة، وأبرزها ما جاء عند الروحانيين ممن غلبت عندهم الرغبة في المسألة والبحث عن مواضع الالتقاء في الخبرة الدينية، على النزعة إلى القطيعة والتنفيذ، فهناك مثلاً رسالة البطريرك القسـطنطيني نقيولاوس الذي كتب (١٩١٣) إلى الخليفة المقتدر رسالة حول العلاقات المتوترة آنذاك بين المسلمين والمسيحيين في جزيرة قبرص، ففي هـذه الرسالة يستشهد البطريرك، وهو صوفي النزعة، بالبطريرك فوتيـوس الذي كان يكنّه لوالد الخليفة "حباً قوياً لامثيل له حتى بين أبنـاء ديـنكم وعشيرتكم"، وتضيف الرسالة على لسان البطريرك إياه "فهـو كرجـل

---

[1] – مقال طارق متري ص١٨٥.

[2] – مقال طارق متري ص١٨٦.

عارف بالأشياء الإلهية والإنسانية أدرك أن الثبات في العقل والسلوك والإنسانية وغيرها من الخصال التي تزين الطبيعة البشرية تثير عند الذين يحبّون الخير حبّاً نحو الذين لهم الخصال نفسها، رغم الاختلاف في الإيمان فيهم"[١].

ونجد نوعية المقاربة إياها لاحقاً عند أبرز الروحانيين البيزنطيين عن القرن الرابع عشر وهو "الهدوئي" غريغوريوس بالاماس الذي، وإن تناظر مع المسلمين في إحدى رسالته الدعائية، حرص على إبقاء الباب مفتوحاً أمام التلاقي، وذلك من خلال إبرازه الوجه الإيجابي لما يقوله الإسلام عن المسيح والمسيحية[٢]، كما نجد عنده إشارات إلى منزلة الإسلام في المقاصد الإلهية من حيث تأكيده الوحدانية ضد الوثنية وعلى نحو يفوق ما جاء في الحكمة اليونانية[٣].

هذه المواقف، بخلاف التي سبق وصفها عند البيزنطيين، تقترب من أحاسيس المسيحيين العرب بظل عيشهم المشترك مع المسلمين، ومانتج عنه من تبادل على صعيد طرق العيش والأفكار، غير أن الدراسات التاريخية لم تعط، للأسف لهذا التفاعل الاهتمام الذي يستحق

---

١ - راجع Migue, P.G مصدر سابق VIII,PP 36-37

٢ - راجع D.J.Sohas, Captivity and Dialogue, Grigory, Palamas and the Muslims (1296-1460), in "the Greek orthodoxe Theological Rereiw,Vol xxv, 1980.

٣ - G.Polamas Defense des Saints saints Hesychastea Troduction francaise Louvain, 1959, T.II,P.P 391-398.

وانظر مقال طارق متري: ص١٨٧.

علمية ما، حسبنا أن نتطلّع إلى مساهمات جديدة في هذا المجـال، علـى نحو الدراسات التي تتناول أوجه التشابه والتأثر بين الرهبانية الشـرقية والتصوف الإسلامي.

ومما لاشك فيه أن "حوار الحياة" ذهب أبعد من "حوار الأفكـار" بفعل تحرره الطبيعي من مسؤولية الدفاع المتماسك عن العقيدة والتأكيـد على الخصوصية في مواجهة الآخر.

لكن الحوار المذكور تأثر بـلا شـك بالأوضـاع الاجتماعيـة والسياسية المتغيرة، والتي عرفت منذ القرن الثالث عشـر نوعـاً مـن الاضطراب في العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، كما شـهد الحـوار الفكري، بدوره، تراجعاً ملحوظاً بعد أن أدّت المتغيّرات إياها إلى تناقص عدد المسيحيين، ونزوعهم إلى الانكفاء على الذات، ممّا أضعف دورهـم في الحياة الثقافية العربية – الإسلامية كما سبقت الإشارة.

ولعلّ الحروب الصليبية وغزوات المغول وما تركته من آثـار، تمثل موقع الصدارة بين المتغيّرات المذكورة، ذلك أن شبهة التعامل مـع عدد المسلمين الخارجي لحقت، في أكثر من مكان، بالمسـيحيين علـى الرغم من أن قلة منهم رحبّت بهم أوتعاونت معهم أوسحت للإفـادة مـن سيطرتهم، أكثر من ذلك، مرآى المسيحيون الشرقيون أومـنظمهم فـي الحملات الصليبية "الرابعة وما تلاها" بوجه خـاص اعتـداء خارجيـاً يستهدفهم هم قدر ما يستهدف المسلمين.

لقد هيأت هذه الظروف مناخاً ملائماً لرواج كتابات فقهية (مثـل أحكام أهل الذمة الذي سبقت الإشارة إليهـا..) تتسـم بالقسـاوة بحـق المسيحيين.

إلا أن تراجع الحوار لم يصل، على الرغم من كل ما تقدم، إلى حد

انقطاعه، حسبنا أن نشير إلى ما كتبه في أواخر القرن الثاني عشر شخصية مسيحية بارزة هو أسقف صيدا الملكاني (بولس الأنطاكي) والردود عليه من قبل ثلاثة علماء مسلمين هم: الفقيه المالكي شهاب الدين أحمد بن ادريس القرافي (توفي عام ٦٨٤ هـ أو ١٢٨٥م) والصوفي شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري (توفي عام ٧٢٧هـ أو ١٣٢٦م) والفقيه الحنبلي تقي الدين أحمد بن قيمية (توفي عام ٧٢٨هـ أو١٣٢٧م)[١].

هذا ويفيدنا تنوع الردود والتفاوت الزمني في ما بينها وبين نشر بولس الأنطاكي إلى أصدقائه بعيدا من المسلمين[٢]، أن أفكاره راجت في بلاد الشام، الرسالة الدفاعية، لكنها تختلف عن حيث اللهجة والمضمون من مثيلاتها (البيزنطية خصوصاً).

فهي تتميز بموقف متفهم للإسلام مصاغ بتعابير سلامية، ففي حديثة عن النبي محمد، لايلقي التهم المعروفة في الأدب السجالي، بل يعترف أنه صاحب رسالة دينية، وإن كانت غير "كونية" بل موجهة إلى العرب لم يعرفوا نبياً قبله، وتتناول الرسالة أيضاً النص القرآني، بعد أن تنسب الآراء النقدية والتساؤلات المسيحية إلى غيره من المسيحيين ممن التفاهم، لتبرز ما ينسجم مع الإيمان المسيحي، وللغرض نفسه يقوم بتأويل النص ساعياً وراء "المعنى المسيحي" للقرآن[٣].

---

[١] – مقال طارق متري ص١٩٠.

[٢] – نشرها وحققها بولس الخوري في كتابه:

Paul d'A ntioche Eveque Melkite de Sidon, Imprimerie Catholique (Beyrouth, 1964).

[٣] – مقال طارق متري: ص١٨٦.

خامسا – المسيحيون الشرقيون والإسلام تحت الحكم العثماني

أحدث سقوط القسطنطينية (عام ١٤٥٣م) بيد الفاتحين العثمـانيين صدمة نفسيه قوية عند المسيحيين (البيزنطيين بوجه خاص) واسـتدعى تفسيراً يتضمن، إذا ما أخذنا بالحسبان العقلية السائدة يومذاك، بعداً دينياً واضحاً، فالمسلمون رأوا في سيطرتهم السياسية والعسكرية دليلاً إضافياً على تفوق الإسلام على المسيحية، والمسيحيون اللاتين، مـن جهـتهم، اعتبروا أن هذا الحدث هو بمثابة عقاب أوقعه الله بـالروم بسـبب مـن "هرطقتهم" وانفصالهم عن كنيسة روما، وشارك الروم اللاتين في فكـرة العقاب الإلهي، غير أنهم نسبوها إلى أسباب معاكسة، فالروم حسب أبناء دينهم الروس، خضعوا لضغوط روما ووافقوا على وحدة الكنيسـة فـي مجمع فلورنسة الذي بدأ في "فبراري" عام ١٤٣٢– وانتهى عام ١٤٣٨، فانتزع الله منهم الرئاسة على مجمـوع الأرثـوذكس وباتـت موسـكو القسطنطينية الجديدة أوروبا الثالثة، أما الروم فتعددت تفسيراتهم لكـنهم اعتبروا، عموماً أن الإمبراطوريات زائلة فيما أقرّوا أنهـم لـم يقومـوا بواجبهم المسيحي، بل أخطأوا بحق الله، غير أنهـم رأوا أن مسـؤولية الهزيمة تقع في كل حال على قياداتهم السياسية "والكنيسة بنسبة أقل" مما لايؤثر بشيء في صحة إيمانهم واستمرارهم في المحافظة عليه[١].

وسرعان ما برزت في صفوف الروم ثلاثة اتجاهات[٢] فكريـة –

---

[١] – مقال طارق متري: ص١٨٧.

[٢] – يسميها استيريوس ارجيريوا تجاه "الوعي المسيحي" واتجاه "الـوعي الشـرقي" واتجاه "الوعي الأرثوذكسي".

دينية – سياسية متعارضة، وإن لم تبلغ حد تهديد وحدتهم تحت الحكم العثماني، بل لعلّ التوازن الموضوعي بينها سمح لهم، بالإضافة إلى معاملة العثمانيين لهم، أن يحافظوا على وجودهم.

– الاتجاه الأول، هو اتجاه "الوعي المسيحي" الذي اعتبر أن الحفاظ على الهوية المسيحية تحت الحكم الإسلامي لم يكن ممكناً من غير التأكيد على العلاقات التي تشد المسيحيين من الشرق والغرب إلى بعضهم، لذلك سلك دعاته طريقاً وحدوياً على الصعيدين الفكري الكنسي.

– الاتجاه الثاني، كان محافظاً – بالمعنى الحرفي للكلمة – وشدّد على أرثوذكسية أمينة على التراث ومتميّزة بوضوح عن المسيحية الغربية، وبالوقت نفسه مبرزة للخصوصية إزاء الإسلام.

– أما الثالث، وهو الذي يعنينا بوجه خاص، فيمكن تسميته "اتجاه الوعي الشرقي" إنه يتسم بالعداء للعرب المسيحي كما يظهر في العبادة التي راجت ونسبها المؤرخون إلى أكثر من قائل: "عمائم الشيوخ ولا تيجان الكرادلة"[1]، وهو يبحث من جهة أخرى، على سبيل التوفيق بين المسيحية الشرقية والإسلام أويسعى لنوع من التكيف المتبادل الذي يسمح بالتعاون بينهما ضد الخصم المشترك، وفيما ينحو هذا البحث، كما سنرى في إحدى الحالات نحو الوحدة الدينية، يتجه عند الغالبية صوب المجالين الحضاري والسياسي.

ففي السنة التي سقطت فيها القسطنطينية، كتب "جورج

---

[1] – تنسب العبارة غالباً إلى الأميرة ايريني أو إلى الدوق الأكبر لوتكراس.

ديتريبزوندي" إلى السلطان محمد الثاني[1] يقترح عليه أن يدعو إلى مجمع إسلامي – مسيحي يشترك فيه أهل الشرق كله، وبهدف النهاية إلى وحدة الجنس البشري تحت راية إيمان واحد.

وتتأسس هذه الدعوة على أن الله أعطى القسطنيطينية للسلطان الشاب لكي يحقق هذه الرسالة النبيلة، أما السبيل إليها فهو إنشاء إمبراطورية شرقية عظيمة حيث "القوة الفتية للشعب التركي" تطعّم "الشجرة ذات الجذور العميقة" أي الحضارة البيزنطية المسيحية.

على الصعيد الديني، يختلط عند ديتريبزوندي نهجان، يسعى الأول للبرهنة على أن المسيحيين والمسلمين على اتفاق بينهما في الأساسيات وأن الخلافات في معظمها تُردّ إلى روحية الاستعلاء والاكتفاء الذاتي عند الطرفين، لكن صياغة هذا الاتفاق تعتمد نهج التأويل المسيحي للإسلام، بحيث يصير الاتفاق المذكور أقرب إلى "استيعاب" الإسلام في

---

[1] – ولد جورج ديتريبزوندي في جزيرة كريت، سافر إلى إيطاليا وتعلم هناك واعتنق المسيحية الغربية، لكنه اختلف مع المسؤولين في الدوائر البابوية وزج به في السجن ثم فرّ إلى نابولي حيث حظي بحماية الأمير المحلي، وبعد قلق وحيرة واضحين عقب سقوط القسطنطينية اختمرت في رأسه فكرة دعوة السلطان العثماني إلى تحقيق الوحدة الإسلامية – المسيحية فأرسل إليه كتاباً عنوانه في حقيقة إيمان المسيحيين، راجع النص اليوناني المحقق والترجمة الفرنسية مع دراسة مرفقة عند:

Adel Theodore Khoury, Georges de Trebizonde: de la Verite de la foi des chretiens, corpus Islamo, christianum (Altenberge, 1987)

وانظر مقال طارق متري: ص١٩٠.

المسيحية منه إلى "التسوية"، يبقى أن الشرط اللازم لـذلك هـو تأويـل المسيحية انطلاقاً من إعمال العقل في قراءة الكتـب المقدسـة وتجنـب الأحكام العقائدية القطعية.

على غرار ديتريبزوندي يتحدث فيلسوف يوناني يدعى "جـورج أميروتزاس" عن إمكانية قيام إمبراطورية شرقية جديدة تستمد عظمتهـا وسلطانها من قوة الأتراك العسكرية والسياسية ومن زخم الفكر البيزنطي وغناه، التوفيق عنده لايطال بالضرورة المجال الديني، مما يميزه عـن أفكار ديتريبزوندي غير المألوفة.

ويظهر "الوعي الشرقي" على نحو أكثر انتشاراً عند نفر غير قليل من الشخصيات الكنسية، لكنهم لايذهبون إلى حد تصور مشروع تعـاون مسيحي – إسلامي مشابه لما سبقه، فهو بلا شك أكثر واقعية، أبرز هذه الشخصيات بطاركة أورشليم نكتـاريوس ودوسـيثوس وخريزانثـوس وانتيموس وبطريرك القسطنطينية ملاتيوس والمعلمان المعروفان قزمـا الأثولي واثناسيوس باريوس.

لقد اختلط عندهم العداء الشديد للاّتين والباوبية بالارتياح إلى كون الأرثوذكسية قادرة علـى الاسـتمرار وممارسـة نشـاط حـيّ داخـل الإمبراطورية العثمانية وتحت حمايتها[1].

---

[1] – من المعروف أن الدولة العثمانية اعترفت للكنيسة بامتيازاتها الموروثة من أيـام البيزنطيين، الكتابات عن سياسة الدولة تجاه "ملة الروم" عديدة، نخص منها:

Kemal H.K orpat, Ottman views and Policies Toward the orthodox Christian Church, in N-M Vaporis (ed) Orthodox Christians and M uslims, Holy Cross Orthodox Press, M assachusets, 1986.

ليس مستغرباً القول إنهم لم "ينظّروا" الخضوع الأرثوذكسي للدولة العثمانية قدر ما أقروا أن السماحة الدينية المكرسة في الشريعة الإسلامية فضلاً عن وحدة الدولة العثمانية واستقرارها، ساعدت الكنيسة الأرثوذكسية على أن تستجمع قواها وتنظم نفسها وتحيا على الصعيد الرّوحي والليتورجي والفكري بظل ظروف أفضل من تلك التي سادت في المناطق الواقعة تحت الاحتلال الفرنجي.

إن المواقف الثلاثة المذكورة انتشرت بنسب متفاوتة داخل "ملة الروم" التي ضمنت العلاقة الخاصة التي توطدت بين الأرثوذكس العرب وروسيا، وترتقي هذه العلاقة إلى القرن السادس عشر حيث قامت صلات محدودة ما لبثت أن تعززت بعض الشيء بعد توقيع معاهدة قجق قينارجة عام ١٧٧٤ عقب هزيمة الدولة العثمانية أمام الدول الأوروبية، فقد أعطت هذه المعاهدة للروس نوعاً من الحق في التدخل لحماية مصالح الروم داخل الإمبراطورية العثمانية، غير أن ممارسة هذا "الحق" اختلفت ولأسباب سياسية واقتصادية وكنسية من مثيلاتها الأوروبية الأخرى (كتدخل فرنسا مثلاً في حماية الأقليات المسيحية الكاثوليكية)، فظل التدخل الروسي محدود الأثر حتى تأسيس "الجمعية الإمبراطورية الروسية الفلسطينية" عام ١٨٨٢ التي أنشأت المدارس في سوريا وفلسطين، وكان الهدف الأول لهذه المدارس، إضافة إلى المساعدات الروسية الأخرى، دعم الأرثوذكس في مقاومة ضغوط الإرساليات الغربية، لذلك عملت من أجل تقوية الإحساس بالتراث الأرثوذكسي وبالتشديد على اللغة والثقافة المحليين، ولم تسهم كمدارس الإرساليات،

في "تغريب" المسيحيين، تشهد على ذلك نوعية خريّجيها وما يستعيدونه من ذكريات عنها على نحو ما جاء عند مخائيل نعيمة[1]، وما نقله أحد المؤرخون[2] عن استغراب قسّ بروتستانتي لدى مشاهدته تلامذةَ في أحد المدارس الروسية يتلون أشعار ابن الفارض وهم في طريقهم إلى بيوتهم.

---

[1] – مخائيل نعيمة، سبعون، (بيروت: دار صادر، ١٩٨٢).

[2] – A.I.T ibowi, American Interests in Syria (1800-1901), (oxford) 1966. P.P.175-176.

المسيحيون الشرقيون والإسلام في ظل الرابطة الوطنية

إن يقظة "وعي الذات" لدى المسيحيين الشرقيين العرب تتصل عند البعض بحسّهم الديني التقليدي، فيما تنطبع عند البعض الآخر بنزعة للمواءمة بين فكر الحداثة الأوروبي واللاديني والهوية المسيحية الشرقية[1].

لن نستعرض بإسهاب أفكار المسيحيين الشرقيين عمّن تشبّعوا بالفكر الأوربي الحديث، حسبنا أن نعدّد بعض الأمثلة المعبّرة عن وعيهم الشرقي في علاقته بالموقف من الإسلام والمسلمين.

فهناك جرجي زيدان الذي نظر إلى الدين بوصفه شكلاً من أشكال التضامن الاجتماعي متسائلاً عمّا إذا كان سبيلاً للوصول إلى السلطة السياسية، غير أنه في الوقت نفسه كتب في "التمدن الإسلامي" روايات عن تاريخ الإسلام من شأنها أن توطّد الانتماء إلى الحضارة العربية – الإسلامية، وهي بالطبع تكشف عن تعلقه الشديد بالتراث العربي الإسلامي.

أما فرح أنطون فهو من أبرز "المتعلمنين" أو"المتدهرنين" من

---

[1] - راجع: A lbert Hourani, Minorities in the Arab World (London, 194)P.P25-26.

مثقفي الأرثوذكس من "عصر النهضة" الذين يشددون على هويتهم المسيحية الشرقية، فهو يسعى جاهداً للتمييز بين المسيحيين الشرقيين والمرسلين الغربيين والدول الأوروبية من ورائهم والتي تستخدم الدين لأغراض سياسية، وهو يؤكد بنوع من الاعتزاز الذي يضمر دفاعاً عن النفس: نحن المسيحيون الحقيقيون وديننا لم يتدخل في السياسة ونحن لسنا مسؤولين عن أعمال المسيحية الغربية، إن ولاءنا هو للشرق وقد عشنا دوماً أوفياء للسلطان[1].

وتجد الحس العربي المسيحي الشرقي إياه مشفوعاً بالتأكيد على الرابطة الوطنية عند عبد المسيح الأنطاكي الذي يرى أنه لحسن الحظ ولد في حيّ كان المسلمون فيه أكثرية، وأنه حظي بتنشئه مختلفة عن غيره من المسيحيين، مما سمح له عندما بلغ سن النضوج أن يعي جيرانه المسلمين الذين هم شركاء في الوطن[2].

إن ما نعرفه من تأكيد على الرابطة الوطنية أوالقومية عند من سبق ذكره من الكتّاب، وهو المدخل عندهم لمقاربة الإسلام، يأخذ منحى مختلفاً بعض الشيء عند القيادات الكنسية التي لاتشاركهم، بالضرورة، في الفكرة (العلمانية) الحديثة.

فالبطريرك الأنطاكي الأرثوذكسي غريغوريوس الرابع حداد

---

[1] – فرح انطوان، ابن رشد وفلسفته، (القاهرة: ١٩٠٣) ص ١٦٩،١٧٩،٢٠٥)
Albert Hourani, Arabic Thought in the liberal Age, (oxford uinivrsitg Press, 1962).

[2] – س، الكيالي، الأدب المعاصر في سوريا (١٨٥٠-١٩٥٠) (القاهرة:١٩٥٩) ص٨١.

(انتخب بطريركاً عام ١٩٠٦ وتوفي عام ١٩٢٨) يعطـي للعـيش مـع المسلمين أولية لاتدفعه حكماً إلى القول بقومية تنشد الاستقلال عن الدولـة العثمانية.

ويتبين لنا هذا في حرصه على علاقة سوية مع الدول المـذكورة وتسويقه ذلك، ثم تأييده لاحقاً للحركة العربية وكأن الأمر عنـده لـيس خياراً إيديولوجياً كما هي الحال عند المثقفين العلمانيين.

فإثر صدور الدستور الجديد عام١٩٠٨ وبعـد حصـوله علـى تأكيدات من الصدر الأعظم أنه لايلغـي حقـوق الكنيسـة وامتيازاتهـا التاريخية، صرّح: "الحمد لله الذي جمعنا في الوطنية والإنسانية ووحـدّنا في الجماعة العثمانية"[1]، ثم يضيف في خطبة أخرى مفصّـلاً مفهومـه للوطنية التي تشدّ المسيحيين إلى المسلمين وهي ليست خارجة عن الدين أومستقلة عنه، بل تتأسس على قاعدة الإيمان المشترك بالله: "إني أحـب أبناء وطني من جميع المذاهب على حد سواء ولافـرق بيـنهم عنـدي، أولسنا نسكن أرضاً واحدة ونستنير بضوء شمس واحدة ونستظل بسـماء واحدة وترفرف فوقنا راية واحدة هي راية الوطن العزيز؟ أولسنا نحـن والمسلمون توحدنا جامعة الانتساب إلى وطن واحد..؟ أولسنا معاً نعبـد إلهاً واحداً غير متجزئ"[2].

إن مفهوم الوطنية هذا لم يتغيّر عندما اختار تأييد استقلال سوريا ومبايعة فيصل ملكاً عليها، ولم يكن وحده في هذا بل أتى موقفه معبـراً

---

[1] – مجلة النعمة، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٩، ص٣٤٠.

[2] – مجلة النعمة، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١١، ص٥١٤ وانظر مقال.

عن نزعة قوية لدى الأرثوذكس تغلّب الرابطة الوطنية الأوسع[1].

نعود إلى سمة ميّزت مواقف الإكليروس الأرثوذكسي كما عبّـر عنها غريغوريوس حداد، وهي الانتقال الواقعي مــن القــول بالجامعــة العثمانية إلى الدعوة العربية في عملية تدريجية لانقطاع فيها، ذلــك أن بين كليهما استمرارية لجهة وعي الذات في العلاقة مع الآخر المسلم.

ويختلف الأمر هنا عنه لدى اليونان من رعايا الدولة العثمانيــة، فقوميتهم الموسومة بالعداء للأتراك احتملت بفعل التجانس الــديني عنــد طرفي العلاقة، موقفاً متشدداً حيال الإسلام نفسه، ورغم أن الفكرة القومية عند اليونان "حديثة"، فإنها لم تكن "علمانية" على الطراز الأوروبي، بــل استنبطت عناصر من الهوية الدينية – الثقافية، لكــن تحقيــق اســتقلال اليونان وما تلاه لاحقاً من عمليات تبادل سكاني، لم يمح مــن الــذاكرة التاريخية خبرة العيش في مجتمع متعدد الأديــان والثقافــات، رغــم أن الوعي الشرقي لدى غالبية الأرثوذكس اليونانيين ألقى بخبرتهم العثمانية في عالم النسيان أو الظلمة، فيما اتسم بــالتوفيق بــين القوميــة الحديثــة و"الانبعاث البيزنطي".

ونتعرف على الوجه الإيجابي للعلاقة المسيحية- الإسلامية فــي

---

[1] - راجــع: H.N. Howardi the King- crane commission; A n American Investigation in the Middle East (Beirut; 1969).

الخبرة العثمانية في تأملات البطريرك أثيناغوراس الأول[1]، فهو يستعيد طفولته في القرية متوقفاً بحنان عند غنى الاختلاط بين المسلمين والمسيحيين وتنوعه، ومتحدثاً عنه بإعجاب، عن المتصوفة وعن اللقاء بين الروحانيين من الطرفين، ويقدم أيضاً قراءة نقدية للماضي حيث كان المسلمون والمسيحيون مهتمين بأن يقنع الواحد الآخر عوض أن يتفهمه، ثم يفتح آفاقاً للتأمل اللاهوتي في "سر الإسلام"[2].

لم تكن معروفة في المجال الديني- الثقافي البيزنطي، فيقترح بعض المقاربات بين حياة الصلاة عند أهل الذكر من المسلمين والهدوئيين من المسيحيين، ويقول بإبراهيمية النبي محمد، ويثمّن ما قاله القرآن عن المسيح وأمه ليضع التعارض العقائدي بين الإسلام والمسيحية على مستوى التحدي المتبادل ليكون كل طرف وفياً لدعوته الأولى، وأن يشتركا معاً في الانتظار الآخري[3].

لقد تعززت فكرة المواطنة عند المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وظلت في ما بعد فكرة مرجعية، بقطع النظر عن ممارسات

---

[1] – أثيناغوراس الأول، ولد عام ١٨٨٦ في تسارابلانا (تحت الحكم العثماني) وبعدما تدرج في المسؤوليات الكنسية في بلدان عدة صار بطريركاً على القسطنطينية عام ١٩٣٩ وعاش في اسطنبول – مركز البطريركية – حتى وفاته عام١٩٧٢.

[2] – كلمة "السر" هنا مستخدمة بالمعنى اللاهوتي المسيحي (حكمة الله التي لاتراها عين ولاتسمعها أذن)، لابالمعنى الاصطلاحي الشائع.

[3] – O. Clement: Dialogues ovec le Patriarchl A then agoras, (paris: foyard. 1976)

الأنظمة السياسية المختلفة وعن أشكال الخلل الذي أصاب العلاقات المسيحية- الإسلامية، واستقر في الوعي الجماعي مفهوم المساواة والمشاركة في إطار المواطنة، وتحررت نظرة المسيحيين الشرقيين إلى الإسلام وعلاقتهم بالمسلمين من القيود التي رسمها نظام الملل العثماني (رغم أن خيبات البعض في ما بعد أوتساؤلهم في أمر شرعية الدول الحديثة وأنظمة الحكم فيها، ساهمت في تغيير صورته وقد تكون، عندهم، أعادت إليه نوعاً من إعادة الاعتبار).

ولم تكن المواطنة عند البعض مناقضة للانتماء الديني حتى في تعبيره "الطائفي" (حسب المصطلح اللبناني)، أكثر من ذلك، سعى البعض في السياسة كما في الثقافة إلى التوفيق بين الخصوصية الطائفية والوطنية، بل جعل من احترام الأولى شرطاً لتثبيت الثانية.

غير أن الفكرة التي تؤكد على استقلال المواطنة عن الانتماء الديني أوبالأحرى على التمييز القاطع بينهما، عرفت رواجاً كبيراً، وجدت لها أكثر من تعبير، وفيما تبنى البعض العلمانية الصافية من غير حرج، حاول البعض الآخر ومنهم عدد من الأحزاب القومية "العقائدية"، أن يكيّفوها مع واقع التعدد الديني فعمد العروبيون، كالبعثيون مثلاً، وعلى خطى ميشال عفلق، إلى إبراز العلاقة الحضارية بين العروبة والإسلام على نحو يعطي للأخير مضموناً حضارياً يتسع لانتماء المسيحيين إليه، وسعى القوميون السوريون، على خطى أنطون سعادة، إلى التوفيق بين الإسلام والمسيحية انطلاقاً من مفهوم هو أقرب إلى وحدة الدينين منه إلى خصوصية كل منهما، جاعلين منهما دعوتين إلى الإصلاح الخلقي

أومجرد طريقين إلى الله وإلى فلسفة للحياة تسلم بوجوده[1]، ولم تقتصر التوفيقية على هذين الاتجاهين بل تعدتهما إلى فئات أوسع، وإن لم تجد لها تعبيراً أيدولوجياً واضحاً، اللهم إلا ما يمكن اختزاله إلى الشعار المعروف "الدين لله والوطن للجميع"، ويتمثل هذا الشعار بالطبع لأكثر من تأويل، فهو يدل على رغبة في تفادي المسألة الدينية أويؤكد على نسبيتها واعتبارها شأناً خاصاً، وهو في الحالتين قد يأتي معبراً عن نوع من الإجلال للأديان في لقائها واختلافها، أويخبئ موقفاً متنصلاً منها، أومستخفاً بها، ولم يكن مستغرباً أن يقبل أهل التدين من المسيحيين العرب بهذا الشعار وفق التفسير الأول، لأنه يسمح لهم أن يؤسسوا عليه رغبتهم في التعايش المخلص مع المسلمين، مع ما يفترضه من احترام لدينهم، من دون أن يضطروا لصياغة موقف لاهوتي متماسك من الإسلام، ويعبّر هذا التبدل من جهة أخرى، عن رغبة إطفاء نار السجالات القديمة، وطيّ صفحة اللاهوت الدفاعي.

لكن الحذر اللاهوتي، والذي يقابله موقف مشابه عند الكثير من المسلمين، تدفعه اعتبارات من النوع نفسه، ترافق مع محاولات جديدة في الإطلاع والبحث التاريخي والتثقيف الديني تندرج تحت علامة جهد الاستقامة الفكرية حيال الإسلام، فبات الميل الغالب نحو التعرف إلى الإسلام من خلال مصادره، كما يشهد له المسلمون عوض الاكتفاء "بالصور" المسيحية المتوارثة عنه، إلاّ أن هذا الميل لم يغيّر بالضرورة كل ما استقر في ذاكرة الناس، ولم يحل دون استعادة بعضهم، في ثقافتهم

---

[1] - مقال طارق متري ص١٩٥.

الشفوية خاصة أفكاراً أوبلتحقوا بخصومها رغم ما انحط إليه، مستوى التعامل معهم إلى مادون ما يوصي به القرآن، وهذه القراءة تقوده إلى القول إنهم "رفضوا التحول من جماعة دينية إلى جماعة قومية" ليخلص إلى الدعوة أن لاتكون أدوار المسيحيين والمسلمين منفصلة في مواجهة الأزمات وأن يصبح بالفعل نظام أهل الذمة مجرد ذكرى، ومن هنا تحتل عنده فرادتا القدس ولبنان المتناجيان وأصالتهم مكانة خاصة[1].

ويلج التأملات اللاهوتية في أمر اللقاء مع الإسلام من باب تلمس سر الكنيسة ودورها، فهي ليست "كنيسة ردود الفعل ولاجماعة الخصوصيات الاثنية واللغوية تحافظ عليها في جمود لايهدف إلا إلى البقاء، بل كنيسة منتشرة كالملح تبحث عن هويتها في رسالتها"[2].

وتحذّر تأملاته هذه من النبوية والتلفيقية لتقترح توجهاً لاهوتياً يبدأ من الدعوة إلى اكتشاف حضور المسيح حيث يبدو غائباً أومرفوضاً، على أن يأخذ المسيحيون على عاتقهم هذا الرفض ليكون "صليباً" يحملونه، وتتصل هذه الدعوة بالسعي إلى إظهار كل ما يخصبه فعل الروح في مختلف الأمكنة والأزمنة، والمقياس عنده، في الحالتين هو وحدة الإلهي الإنساني، فيرى أنه بمواجهة النزعة لاستيعاب كل شيء في الإلوهة (كما

---

[1] – راجع خطابه في مؤتمر القمة الإسلامي – الطائف والمنشور في: "البطريرك أغناطيوس الرابع)، في المسألة اللبنانية والمصير المسيحي (بيروت: مركز الدراسات الأرثوذكسي الانطاكي ١٩٨٨).

[2] – البطريرك أغناطيوس الرابع، من خبرة أنطاكية إلى دعوتها، (بيروت:١٩٨٥) ص٤٦.

في الحلولية)، على المسيحيين أن يقيموا الإنسان وحريته، أما في مواجهة القائلين برفض التعالي (كالدهريين أوالدهرانيين) واعتباره شرطاً لتحرير الإنسان، فلا بد لهم (المسيحي) من الشهادة لله ولمحبته، ولوحدة الإلهي والإنساني أساس، عنده في عقيدة الثالوث حيث الوحدة والتمايز لاينفصلان، ولايدخل البطريرك أغناطيوس في الجدال اللاهوتي القديم حول التثليث والتوحيد، ولايسعى إلى شرح العقيدة المسيحية عن طريق الفلسفة، بل يهتم بإبراز الثالوثي بوصفه مجال حب، ويرى أن المس بوحدة الثالوث يخلّصنا من الشراك الذي يترصدنا في حياتنا المعاصرة، حيث نصادف أوثاناً من نوع جديد تُقام مقام الله والإنسان على حد سواء، لذلك يؤكد أن الإنسان ليس جزءاً عن شعب أوثقافة، بل الشعب والثقافة "بعدان للإنسان وهما جزء من وجوده الشخصي"، وهذا التأكيد يتكرر عنده حين يتناول المشكلات التي يواجهها الناس وهو يقوده إلى مقاربة للواقع تذهب "من الحياة إلى الفكر"، عوض أن يلوي هذا الواقع أويطوّعه لينسجم مع المنظومة الفكرية[1].

ولأنه يعرف "أن الحياة أقوى" يرى وجهاً للعلاقة المسيحية – الإسلامية غير التي اختبرت في الماضي عندما "كانت عوالمنا التقليدية مكتفية بذاتها ومنغلقة على الأرض"، وحيث كان تفسير الواحد للآخر على الصعيد الديني ينزع إلى إنقاصه واختزاله إلى بعد أوحد، أوفي حالات غير قليلة، إلى تشويه الوجه الآخر، وهذا نتلمسه في نظرة البطريرك أغناطيوس إلى الماضي عندما يتحدث عن التفاعلات على

---

[1] – مقال طارق متري ص١٩٧.

الصعيد الشعبي وما رافقها من وعي يكاد يكون واحداً لتعالي الله والثقة بعنايته والاتضاع "واسلام" النفس، كما يظهر في تناول شؤون الحاضر من منظور العيش المشترك ووحدة المصير بين المسلمين والمسيحيين.

ونجد عند المطران جورج خضر مقاربة للإسلام تذهب على غرار ما سبق ذكره عن البطريرك أغناطيوس، من الحياة إلى الفكر، نقرأ العيش المشترك في خبرته الوجودية في بيئة إسلامية، حيث أقام علاقات طيبة مع صفوة من المسلمين وحاول، من البداية فهم معنى السجود والقيام في مساجد المسلمين وتلاوة القرآن، ويقوده الإقرار بأن للقرآن "صلة بالحقيقة"، إلى التبصّر في أمر تجلياتها عند "تلك الجحافل الطيبة من المسلمين الوادة لله والمودودة، ومنها الزهّاد والمتصوفة، الذين إذا قرأتهم يسألونك كثيراً عن الصلة بالله، وتحسّ بلمسات من الروح في أقوالهم وفي ما عاشوا"[1].

وتفتح الخبرة الوجودية الأولى أمام جورج خضر توقاً إلى معرفة القرآن والأصول والأدب الصوفي ودراسة مجمل الحضارة العربية الإسلامية.

ونراه في الكثير من كتاباته يستشهد بالنصّ القرآني، يفسر للمسيحيين أويذكّر به المسلمين، ويتجاوز ذلك أحياناً إلى قراءة مثلثة المقاربة، فهي تلتفت إلى مواضع اللقاء بين "روحانية" النص وما يماثله في الأدب المسيحي، أوتتلمس المعنى المسيحي الكامن فيه، أوتبرز فرادته

---

[1] – المطران جورج خضر، لوحكيت مسرى الطفولة (بيروت: دار النهار، ١٩٧٩).

لجهة التعبير عن حقيقة روحية كبيرة تغني المسلمين والمسيحيين على حد سواء[1].

وتقترن مقاربة الإسلام عنده بالعودة إلى التراث المسيحي، الكتابي والآبائي لمساءلته في أمر التدبير الإلهي ومنزلة المسلمين فيه، ويتضح له أن "المدخل إلى تلمس الإجابة نجده في إشارات من أعمال الرسل وكتب الآباء على نحو القول إن "يد الله" تقود الناس إلى "الإله الحق"[2].

ويحتل عنده نقد فكرة "الأمة المسيحية" أهمية خاصة، فهو يتصل به إلى نقد فكرة "تاريخ الخلاص" القائم على أحدية الزمن.

وهذا النقد يسمح له باستعادة معنى "التدبير" الإلهي الذي لايحدّ داخل نطاق ظهوراته التاريخية، إن فكرة التدبير نفسها هي فكرة سرية، بمعنى أن عمل الله التدبيري لايقيّد بحدث، "المفتاح الثاني" لمقاربته للآخر الديني، هو علاقة المسيح بالأمم الأخرى والتي تحتجب في سرّ إتضاعه لذلك يدعو المسيحيين أولاً، للاهتداء إلى المسيح مما يفترض نبذ كل كبرياء طائفية أوشعور بالتفوق، فالتواضع يعني تحقيق الذات، مسيحانياً وبواسطة الآخر، ثم يأتي اكتشاف القيم المسيحانية عند المسلمين وصولاً إلى الانفتاح على سر مقاصد الله لهم ولعموم البشرية.

ويجد جورج خضر نفسه، على صعيد آخر، في موقع الشارع

---

[1] – مقال.

[2] – راجع: المسيحية في عالم تعددي، تدبير الروح القدس.

"Christianity in a pluralist world, the Economy of Holy Spirit" in Ecumenical Rewieu, April, 1971.

للعقيدة المسيحية والمدافع عنها في سياق السجال حول التوحيد والتثليث الذي يعاد فتحه إنه يقترح تمييزاً بين الوحدانية والأحدية، ويرى أن الآيات القرآنية التي تناقض الإيمان المسيحي، تعكس سجالاً مع البدع المسيحية التي كانت منتشرة في مكة، وفيما يؤكد أن الله لايخضع للترقيم، ويشدّد على التلاقي بين المسيحيين والمسلمين على صعيد التنزيه.

يبقى الحديث عن اهتمام المطران جورج خضر، في كتاباته وفي تعاطيه الشأن العام (اللبناني والفلسطيني العربي)، بقضية المواطنة والمساواة والشراكة الحضارية والتزام العدالة والحرية، ولهذا الاهتمام عنده وجهان: الأول يؤكد على اشتراك المسيحيين في المصير العربي، والثاني يدعو إلى تجاوز مفهوم "الذمية" في العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، ولايقف بالطبع عند هذا الحد من العمومية، بل يدخل حوار حول المسائل التفصيلية العديدة في التاريخ والفقه والسياسة والفكر الديني الذي تتأسس عليه أوتسوّغ به. والحوار هذا ينطبع على العموم بروح سلامية متفهمة للأحاسيس التي تنتسب للصحوة الإسلامية وحريصة على مصلحة الأمة ووحدتها بمسلميها ومسيحييها[1].

سر نتائج وآفاق وخصائص الحضارة العربية الإسلامية بوصفها الحضانة العامة للرابطة الإسلامية المسيحية.

بعد هذه الجولة الطويلة نسبياً سنحاول في هذه الصفحات الآتية تكليل جهودنا بمحاولة رسم اللوحات العامة لضربات الريشة التي سبق التدليل بها.

---

[1] – مقال طارق متري: ص١٩٩.

وهنا سنطرح للمرة الثانية السؤال الآتي:

الخصائص العامة للحضارة العربية الإسلامية باعتبارها حضانة الفكر والسلوك؟؟؟

خصائص الحضارة العربية الإسلامية:

وأول حقيقة ندل بها هي أن نهضة روحية رافقت، إن لم نقل سببت نشوء الحضارة العربية، وقد بدت بتأشير هذه النهضة في النصف الأخير من القرن السادس الميلادي، أوربما قبل هذا الزمن، ولكن كان للنبي محمد (ص) أن يجمع تيارات هذا الوعي الروحي إلى تيار واحد، وكان جوهر رسالته وحدانية الله والإيمان برسله وأنبيائه الذين كان محمد خاتمهم، وكان وحي الله له خاتمة الوحي، وقد أذكت شخصيته في نفوس أتباعه ناراً وجعلت من أولئك الأشخاص العاديين قادة رجال، وبقيادتهم الحكيمة خرج العرب من جزيرتهم لينشئوا إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم وحملوا مشعل حركة دينية إلى شعوب مختلفة ينضم تحت لوائها اليوم أكثر من ٢٥٠ مليوناً من البشر.

إن جهود بعض العلماء الذين حاولوا أن يعللوا نشوء الحضارة العربية على أساس مادي محض، هي في نظري جهود فاشلة، فإنهم نظروا إلى الفتوحات العربية التي قام بها العرب بعد خروجهم من الجزيرة أنها لاتختلف بكثير أوقليل عن تلك الهجرات السامية من الجزيرة العربية التي كانت تفرضها الأحوال الجوية والعوامل الاقتصادية الخانقة، وقد بالغوا في وضع أهمية على عوامل الضعف والتفكك التي تميزت بها الإمبراطورية البيزنطية والفارسية آنذاك.

وهم إنما يريدون بذلك الانتقاص من مأتي العرب بوجه عام والتقليل من قيمة العوامل الروحية بوجه خاص، وفي رأيهم أن الفتوحات

العربية ليست سوى مجرد حملات عسكرية اقتضتها العوامل الاقتصادية أو العوامل السياسية أوكلاهما معاً.

إن جميع هذه التفاسير التي قد يكون فيها ضمن نطاق معين بعض الحقيقة، لايمكن أن تفسر الأسس الروحية التي قامت عليها النهضة العربية، ولايمكن لتفاسير كهذه أن تطمس الحقيقة الناصعة وهي أن الحكم العربي والتصرف العربي والعلوم العربية والخلق العربي، جميع هذه كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدين الإسلامي، وكانت جميع هذه المظاهر الروحية والفكرية تقدمية خلاقة منسجمة مع سير الروح العربية نحو مثل من الحياة أسمى وأشرف، وقد كانت هذه الرؤى خلال القرنين أو الثلاثة بعد موت النبي محمد (ص) قوة حية، وكانت عندما خفت الرؤى وعندما اكتنف المثل ما حجبها عن الأنظار أصبحت الحياة السياسية عند العرب كفاحاً مريراً بين دولة إسلامية وأخرى، أوبين الأحزاب والشيع والأعراق البشرية للوصول إلى الحكم والسيطرة، وكان هذا فاتحة عصر التجزؤ والتفكك[1].

وهذا يصدق على الدين الإسلامي نفسه، الذي كما أسلفنا سابقاً كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة العربية وبالثقافة العربية، فقد كان الدين الإسلامي عندما كان محتفظاً بدوافعه وحوافزه الأصيلة، أشبه بخميرة تؤثر في النظام السياسي، وكان الدين يفتح أمام عيون الناس آفاقاً جديدة

---

[1] – د. قسطنطين زريق: مقال موسوم بعنوان الحضارة العربية، منشور في قراءات في الفكر القومي، الكتاب الثالث، بيروت، مركز دارسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٤٤، ص٨٩.

واسعة في الحياة العملية والتأملية، ولكن عندما اقتصر الدين الإسلامي فيما بعد على مجموعة المعتقدات التي يجب أن يتقبلها الناس عن طريق الإيمان الأعمى، وعندما استحال إلى مجموعة شرائع وقوانين أخلاقية تفرض على الناس لتطبق عن عماية وبقسوة فقد غاضت الروح ويبست العروق والأوصال وجمدت المشاعر والأحاسيس.

ولم تكن حوافز المدنية العربية وعواملها الخلاقة روحية فحسب، بل كانت عالمية في واقعها وفي غايتها، أوربما كان الصواب أن نقول إنها كانت عالمية النزعة بفضل صفتها الروحية، ففي نطاق المعتقدات نجد أن نقطة البدء فكرة وحدانية الله مبدع الكون ومالؤه، الحاكم الذي يدين الناس حسب أعمالهم، وبيده أقدار الناس، كل شيء من صنعه وكل شيء رهن إرادته، هو مبدأ النظام والثبوت والنمو في الكون وفي الحياة الإنسانية، وقد يختلف الناس في أعراقهم وبلدانهم ولكن يجمع بينهم ولاؤهم إلى الله الذي يربط بينهم ويجعل منهم أخوة واحدة في الإسلام، فهنالك وحدة أساسية في البشرية، وحدة مصدرها وحدانية الله، مصدر كل شيء.

نعم إن هذه الرابطة اقتصرت على أتباع الدين الإسلامي، ولكن هذا يصدق أيضاً على العالم المسيحي في العصور المتوسطة، فإن كلاً من هاتين الديانتين كانت نظاماً تاماً بنفسه، وكان أتباع الدين الواحد ينظرون إلى أتباع الدين الآخر أنهم خارج الحظيرة، وكان هؤلاء يعتقدون أن من واجبهم تبشير أولئك وردهم إلى حظيرة الإيمان أوأن الواحد منهما كان يعتقد أن أقطار الآخر نهب له يفتحها أنى شاء، وهكذا نرى أن البشرية لم تكن موحدة لافي الواقع ولافي المعتقد، وبكلام آخر كانت النظرة إلى هذه الوحدة العالمية، أوالوحدة البشرية في العصور المتوسطة تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً ظاهراً، ولكني أود هنا أن ألفت أنظاركم إلى أن

النظرة العالمية في هذين النظامين، الإسلام والمسيحية، كانت رغم الفروقات واحدة في جوهرها، أوعلى الأقل كان التشابه بينهما أقرب بكثير مما كان بينهما وبين نظرتنا الفلسفية العصرية المادية في تعليل الكون.

ورغم المشاحنات التي وقعت بينهم، ورغم الجدل العنيف الذي وجدوا أنفسهم فيه، فإن المسلمين والنصارى كانوا يتفاهمون، أوقل كانوا أقرب إلى التفاهم مما يستطيع الواحد منا، نحن الذين اعتنقنا النظرة العصرية المادية أن يفهم أياً من هذين النظامين، وذلك لأنهم كانوا يصدرون عن المبادئ الأساسية نفسها وعن الذهنية نفسها.

فالحضارة العربية إذا ضمن الإطار الذي حددناه، كانت تعكس نظرة فلسفية عالمية في جوهرها، وما دامت هذه النظرة مسيطرة، ومادام أبناء هذه الحضارة يشعرون أنهم مرتبطون بأواصر من الولاء المشترك الذي يرتكز على وحدانية الله، وبالتالي على وحدانية الكون والإنسان، أقول مادام الواقع هكذا فإن الإمبراطورية التي أنشأها العرب ظلت محافظة على قواها الداخلية وعلى دوافعها التقدمية، ظلت الحضارة العربية تنمو وتبدع، وغير أن أثر هذه النظرة العالمية الأساسية في الحياة الواقعية أخذ بالتقلص رويداً كما حدث لحضارات أخرى قبل الإسلام وبعده، فنشأ خصام مميت داخل الإمبراطورية العربية، فقام العربي ضد الفارسي والفارسي ضد العربي، وقل هذا عن بقية العناصر التركية والبربرية والمغولية، وكان كلّ يحاول أن يستقلّ بالحكم والسيطرة السياسية[1].

---

[1] – د. قسطنطين زريق: الحضارة العربية ص٩١.

ولم تكن هذه النظرة العالمية التي تميزت بها الحضارة العربية ترتكز على وحدانية الله وأخوة الأفراد الذين اعتنقوا الإسلام وحسب، بل على وحدانية الحق، لم يكن الحق في نظر فلاسفة العرب ذاتياً ونسبياً بل كان موضوعياً ومطلقاً، وواجب الإنسان أن يعرف الحق ويسير مع الحق ويبقى مع الحق، ولمعرفة الحق عند مفكري العرب سبيلان: السبيل الأول الوحي بواسطة كلام الله الموحى به إلى النبي محمد كما هو في القرآن، والسبيل الثاني الحكمة والفلسفة التي وضعها القدماء ولاسيما أفلاطون وأرسطو، والحق في نظرهم واحد سواء عرفه الإنسان عن طريق الوحي أوعن طريق الفلسفة، وواجب الإنسان أن يعرف الحق معرفة تامة، وهذا هو السبب الذي دفع العرب إلى إبداء ذلك النشاط العجيب في طلب العلم والتعليق عليه ومحاولة التوفيق بين السبيلين، وطبيعي أن يكون هنالك متطرفون من أتباع هذه الطريقة أوتلك، لم يتبعوا هذه الطريقة المثلى في معرفة الحق، فقد كانت هنالك فلاسفة حاولوا أن يفسروا النصوص الدينية تفسيراً مجازياً، وكان هنالك محدثون ورجعيون يقولون أن الفلسفة وثنية في جوهرها مفسدة للمتعقدات، ولكن رغم وجود هذه الطغمة فقد كان الفكر العربي واللاهوتي يرتكز على وحدة الحق الجوهرية سواء أكان التوصل إليه عن طريق الوحي أم عن طريق الفلسفة، وقد حاول مفكرو العرب أن يظهروا هذه الوحدة الأساسية للحق.

وهكذا نجد أن الفلسفة العربية، كاللاتينية، كانت تهدف إلى التوفيق وإلى التركيب (Synthesis) وقد عكف فلاسفة العرب ولاهوتيهم على طلب الحق المطلق العام في مظاهره المختلفة، وبما أن الحقيقة واحدة فالحق يجب أن يكون واحداً.

ما أحوج عالم اليوم المجزأ فكرياً وخلقياً، العالم الضائع بين

النظرات والمعتقدات المختلفة المتضادّة إلى أن يعتبر بهذه العبرة، هـذا الانقسام، هذا التجزؤ الذي نشهده في العالم اليوم سببه محاولتنا معرفـة الحق عن طريق الذاتية الخاطئة وتجزئة الحق الذي لاتجزأ[1].

وفضلاً عن الفلاسفة وعلماء الدين كـان هنالـك جماعـة مـن المتصوفة التي كانت تؤكد وحدانية الله والبشرية والحـق كـان أولئـك المتصوفون يحلقون في عوالم الروح، وكانوا يمثلون أعلى ما توصل إليه الإبداع في الدين، كانوا في تفكيرهم يرتفعون عـن حرفيـة المعتقـدات والشرائع وكانوا يرون في الشخصية الإنسانية وحدة تامة، كانوا عالميين في تشوفهم إلى الحياة الفضلى، كانوا يرون فـي هـذا العـالم المتعـدد المظاهر حقيقة واحدة هي الله، قال أحدهم: "اللهم إننـي لاأنصـت إلـى صراخ الحيوان أوحفيف الأشجار أوهدير الماء أوزقزقة العصافير أوإلى هبوب الريح أوقصف الرعد دون أن أشعر أنها شاهد علـى وحـدانيتك وبرهان على أنك أنت لاشبيه لك"، كانوا يـؤثرون الاختبـار الروحـي ويفضلونه على الشرائع والمعتقدات، فكانوا يتقبلون الحق من أي مصدر جاءهم وكانوا بعملهم هذا يؤكدون وحدانية الحق ووحدانية البشرية بقطع النظر عن الأديان والحدود التي تعترف بينهما: قال ابن العربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعىً لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثانٍ وكعبـة طـائفٍ ... والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنىّ توجّهـت ... ركابئه فالحبّ ديني وإيمـاني

---

[1] – د. قسطنطين زريق: المرجع السابق ص٩٣.

إننا نجد في هذا التشوّف الصوفي من أجمل ما تتصف به الحضارة العربية أوبالأحرى الإسلامية أوأية حضارة خلاقة أخرى، ونجد فيه أيضاً أفضل شاهد على أن ثماراً كهذه لايمكن أن تنمو إلا في تربة مشبعة بالنظرة العالمية، بالإيمان الراسخ في وحدانية الله والبشرية والحق، وهنا أيضاً نجد أن لنتائج الحضارة العربية مغزىً عميقاً في حياتنا الحاضرة فإن تاريخ هذه الحضارة يُظهر لنا بجلاء حقيقة الينبوع الذي كانت تستمد منه الحياة والقوة والمنعة، فنحاول إن كنا جادين أن ننهل من هذا الينبوع بمائه ما كاد يذوي.

كان لهذه النواحي في الحضارة العربية التي جئت على ذكرها باقتضاب، أعني الدوافع الروحية والنظرة العالمية والإيمان الراسخ بوحدانية الحق، أثر بعيد الغور في واقع الحياة، وأبلغ أثر هو الروح التعاونية التي اتصفت بها الثقافة العربية فإنه عندما خرج العرب من جزيرتهم إلى البلدان وريثة الحضارة المتتابعة التي نشأت في تلك البلدان، والتي تعود بتاريخها إلى فجر التاريخ، واستقروا فيها لم يقضوا على تلك المدنيات ولم يستأصلوا شأنها كما فعل غيرهم من الفاتحين قديماً وحديثاً، بل على عكس هذا فإنهم بعقل نيّرٍ وروح سمحاء شجعوا على استمرار نمو تلك المدنيات في مدينة واحدة.

والواقع أن الحضارة العربية ليست من نتاج شعب واحد بل هي مشروع تعاوني اشتركت فيه مختلف الأعراق البشرية ذات الحضارات والديانات المختلفة، نصارى ويهود، عرب وآراميون، فرس وأتراك، بربر وغيرهم كثير وجميعهم اشتركوا في هذا المجهود المشترك، وكل أمة قدمت ما تميزت به حضارتها، فكانت خدمات العرب تنحصر في الناحية الدينية، في الحافز الروحي الذي يتجسم في الدين الإسلامي،

وكذلك في الناحية اللغوية، فإن عبقرية اللسان العربي استطاعت أن تجعل من نفسها أداةً للتعبير عن هذه الحضارة، وأخيراً تميزت خدمات العرب لهذه الحضارة في الذوق الأدبي المرهف، أما الفرس فإنهم خدموا نظام الإدارة والفنون الأدبية والفن، وكانت خدمات الهند في حقل الحكمة والفلسفة وعلم الفلك والرياضيات، أما الشعوب النصرانية التي كانت تتكلم السريانية والقبطية في سوريا والعراق ومصر، والتي كانت تأثرت بالروح الهلينية إلى حد بعيد، فقد خدمت هذه الحضارة العربية في حقل الفلسفة واللاهوت والعلوم الطبيعية، وكذلك البربر واليهود والإسبانيون والمستعربون تعاونوا مع العرب وتحت رعايتهم أنشأوا تلك المدنية العظيمة في الأندلس، هذا يصدق أيضاً على صقلية وجنوبي إيطاليا وأواسط آسيا وعلى جميع الأصقاع التي وقعت ضمن حيِّز الحياة العربية، وهكذا نرى أن الإقليمية والانكفاء الذاتي ليسا على شيء في التقليد العربي، ولو أن العرب كانوا على شيء من هذا لما نشأت حضارة عربية، ويجب أن نضيف إلى قائمة الخدمات الملموسة التي قدمها كل شعب من هذه الشعوب عناصر أخرى فعالة هي الحياة الاجتماعية عند كل مجتمع والأساليب التفكيرية والمبادئ الخلقية والتباين في طبائعهم وأمزجتهم، مما أغنى الحياة العربية وجملها، واشتراك هذه الشعوب في كل نشاط ثقافي، وفي كل ناحية من نواحي الحياة العادية اليومية، حتى وإن كانوا مختلفين سياسياً، يظهر جلياً في طبيعة العلوم العربية، في الفلسفة وفي العلوم الدينية وفي فن البناء وفي الفنون اليدوية، وفي كل مظهر من مظاهر الثقافة والحضارة.

وهنا أرى نفسي مجبراً أن أدحض صحة انتقادين يوجهان إلى الحضارة العربية ويستهدفان الانتقاص من مفاخر هذه الحضارة، الانتقاد

الأول: هو أن الحضارة مزيج مزعج من عناصر مختلفة جُمعت معاً دون أي ترتيب أونظام، وإنني آسف أن ليس لدي من الوقت متسع لـرد هـذا الادعاء بإسهاب، ولكن نكتفي بالقول إنه لو كان هذا الادعاء على شـيء من الصواب لاستحال أن تكون الحضارة خلاقة مبدعة، ولما كان بالإمكان لهذه الحضارة أن تؤدي خدمات، لاينكرها إلا كـل مكـابر فـي العلـوم والفلسفة والفنون، خدمات يقرّ بفضلها علماء العرب أنفسهم، لو لـم تكـن ترتكز هذه الحضارة على أساس من الوحدة في النظرية وفـي المجهـود وفي النتائج، فالحضارة العربية أشبه بنسيج تام الصنع حيكت خيوطه مـن ألوان مختلفة، فهي ليست مزيجاً بل مركباً فيها وحدة، والوحدة هي أسـسُ القوة والإبداع في الحضارات كما هي في حياة الأفراد والجماعات[١].

أما الانتقاد الثاني فموجه إلى العـرب أنفسـهم، يقولـون مـاهي الخدمات التي أداها العرب أنفسهم في إنشاء هذه الحضارة؟ إنها تكاد تكون من صنع شعوب أخرى، ورداً على هذا القول إننا لوتغاضينا، ولـو إلـى برهة، عن خدمات العرب في إنشاء هذه الحضـارة – أعنـي الإحيـاء الروحي الذي هم بدأوا به، وعبقرية اللسان العربي، والمقدرة على التعبير عن مُختَّر الاختبارات بلغة نثرية أوشعرية واضحة محبوكـة، وخـدمات أفراد من العنصر العربي، في مختلف الصنائع والفنـون – أقـول إننـا لوتركنا هذا جانباً فإنني لا أتردد عن القول هنا، إنه وإن يكن العـرب لـم يقدموا شيئاً واحداً لإنشاء هذه الحضارة العربية، فكفاهم فخراً أنهـم هـم الذين أحيوا الروح التي خلقت هذه الحضارة، وهم الذين هيأوا الظـروف

---

[١] – د. قسطنطين زريق: المرجع السابق ص٩٥.

والأحوال الملائمة لجمع هذه الشعوب معاً لتشترك في مجهود روحي فكري مشترك، فالعرب أنفسهم هم الذين شيدوا إمبراطورية على أسس من التسامح وهم الذي فتحوا أبواب دمشق وقرطبة وبغداد وغيرها من المدن في وجه العلماء من جميع الأعراق والملل، وهم الذين استحضروا العلماء من أقاصي المعمور وتنافسوا في اقتناء الكتب وإدخالها إلى بلدانهم.

- تقوم الحضارة على ما قامت عليه الحضارة العربية:

<u>أولاً:</u> الدافع الروحي، فإن هذا العالم الحديث الذي وصل إلى هذا الرقي الآلي والذي تسيطر عليه فلسفة القوة وليس فلسفة الحق والشرع، والذي تسود فيه المصالح الفردية لاالمبادئ العامة، الشهوة والحرص لاالمحبة والسخاء، أقول إن عالماً كهذا يسير إلى الهلاك حتماً، عالم كهذا لايكون فيه للعرب نصيب ولا لأي شعب آخر عُظم أوصغر.

<u>ثانياً:</u> النظرة العالمية: نحن بحاجة اليوم إلى نظرة عالمية جديدة في الفكر والتصرف، لا إلى نظرة عالمية سطحية خطرة تظهر بصورة اتحاد أوتحالف لايتعدى المستوى المادي سواء في السياسة أم الاقتصاد، نحن بحاجة إلى نظرة عالمية توحد الفكر والروح.

<u>ثالثاً:</u> الإيمان الراسخ بوحدانية الحق على أن هذا مظهر آخر لوحدانية الله، ووحدانية الطبيعة والفكر.

<u>رابعاً:</u> وأخيراً الروح التعاونية والسعي المشترك للتركيب والخلق، ويحق لكم أن تسألوا هنا: هل من مكان لقيام ثقافة عربية، أوغير عربية، في حضارة هي حقاً عالمية؟ وجوابي على هذا نعم، لأنه إذا كانت الحضارة عالمية حقاً فإنها تكون في روحها على كثير من الرحابة، وتستطيع أن تتفتح لتسع الكثير من أي النواحي كان مصدرها.

الحضارة العالمية تشجع كل أمة على المضي فيما اختطت تلك

الأمة لنفسها وتفاخر في أنها تتسع لتبني كل حضارة وصـــهرها جميعـاً لتجعل منها حضارة عالمية منسجمة وعلى العكس من هذا كل حضـــارة لاتشتمل على القيم الإنسانية العالمية لاتستحق أن تسمى حضارة.

هذه هي الشروط الضرورية لقيام الحضارة، والحضارة العربيــة والعالمية أيضاً تقومان الآن بفضل توفر هذه الشروط، أعني عندما تستطيع النظرة العالمية الشاملة أن تحتوي النظرة الخاصة الفردية، وعندما تستطيع النظرة الفردية الخاصة أن تعكس النظرة العالمية الشاملة.

العرب اليوم كالشعوب الأخرى التي تسعى إلى تنظـيم حياتهـا الجديدة تحت ضغط الحضارة الغربية، يجدون أنفسهم أمام معضلة، فإنهم يخشون بعض نواحي الحضارة العربية كروحها الاسـتعمارية وحبهـا للتوسع، ولكن مع هذا يدركون الإدراك كله أنهم لايستطيعون أن يتقدموا أوأن يساهموا في تقديم خدمات إلى الحضارة العالمية مالم يأخذوا بهـذه المدنية، فنراهم ينشدون خلاص أنفسهم عن طريـق اعتنـاق الفلسـفات القومية ذات الألوان المختلفة والنزعات المتباينة، هذه القوميات، مهمـا اختلفت ألوانها، هي في نشأتها، من جهة ردّ فعل لأخطار خارجية، ومن جهة أخرى حركة لتوحيد إيجابي داخلي ولإحياء أمجاد الماضي ولتهيئة الأسباب للمساهم مرة أخرى في بناء الحضارة العالمية.

إن تطور هذه القوميات لتصبح قوميات رحبة لاضيقة، سـمحاء لامتشددة منكمشة، تقدمية لارجعية، وبكلام آخر إذا أسفرت هذه القوميات عن كونها مظهراً من مظاهر روح الحضارة أوأنها تنكمش على ذاتهـا فتختنق لعدم وجود الهواء والنور، جميع هذه الأمور تتوقف على مـدى تكيّف العرب وتماشيهم مع الزمن، ويتوقف أيضاً على مدى أثر سياسـة الشعوب الباقية وتصرفها في سير المدنية العصـرية بصـورة عامـة،

ولانقصد بهذا الأثر السياسي والاقتصادي بل بالأحرى الأثر الخلقي والروحي، ولكن هذا لايعني أننا ننتقص من قيمة الأثر الاقتصادي والسياسي لاسيما في هذا العالم الحديث الذي أصبحت فيه القوة حسنة التركيز والتنظيم، فإننا نكون مخادعين لأنفسنا إذا ظننا أننا نستطيع أن ننشئ تعاوناً ثقافياً مشتركاً إذا كنا في الوقت ذاته نتبع خطة اقتصادية سياسية تنم عن أنانية ضيقة، يقولون لنا إن السلم واحد لايتجزأ وكذلك الأخلاق والروح، والطريقة الوحيدة الممكنة لتوطيد سلم واحد لايتجزأ هي ولادة ثانية للأخلاق والروح يكون لها الأثر الفعال في قراءاتنا السياسية ونشاطنا الاقتصادي، وجهودنا الثقافية.

جاء في كتابات بلوطينس الفيلسوف، الذي كان ينتمي إلى المدرسة الأفلاطونية الجديدة، والذي كان لكتاباته بعيد الأثر في العرب، الفقرة التالية: "كل شيء له كيان، وكل شيء في حيّز الحقيقة إنما يكون بفضل الاتحاد، إذ أي شيء يمكن أن يكون له وجود إن لم يكن وحدة؟ بدون الاتحاد لايمكن أن يكون للأشياء وجود، فالجيش بوحداته، والجوقة بأفرادها، والقطيع بمفرداته، لايمكن أن يكون لها كيان بدون الوحدة، وكذلك صحة الجسد فإنها تتوفر إذا كان الجسد منسجماً في وحدة تامة، ويحصل الجمال إذا كان لدينا وحدة تامة تتألف من الأجزاء، وتظهر فضائل النفس إذا توحدت واستحالت إلى وحدة منسجمة تامة".

وهذا ينطبق على العرب وعلى أية أمة أخرى، لابل على البشرية بأجمعها، فإنه بدون اتحاد بين العرب، لن يكون هنالك حضارة عربية، وبدون اتحاد بين شعوب العالم لن يكون هنالك حضارة، وأنني آمل أن يتم الاتحاد بين الأفراد ليشمل الجماعات فيتوفر لدينا كما يقول بلوطينس، الصحة والجمال والفضيلة، وعلينا جميعاً أن نسعى لهذه الغاية بكل ما

أوتينا من نشاط وقوة، وإذ في نظر التاريخ ليس هنالك من مهمة أخطـــر شأناً ولاأنبل قصداً[1].

ثمرات وقطاف اللقاء الإسلامي المسيحي

في المواطنة الحية

إذا كان في الوحدة قوة فإن في التنوع قوة أخرى تضاف إلى قوة الوحدة وتزيدها حصانة منعة،ونحن في المواطنة نجد معانقة فذة للمواطنة على أرض العروبة، حيث الهلال يعانق ويلف الصليب كثمرة من ثمرات النضال الوطني على أرض الكنانة، وهذه الصورة اتخذت ملهماً ورمـــزاً للحركات الوطنية في مصر.

وبيان ذلك أن التنوع فطرة وسنة فطر الله الحياة والكون والطبيعة عليها، وهي ثابتة بإرادة الله وحكمته ولوشاء لجعل الناس أمة واحدة، قال تعالى:

﴿ وَلَـوْ شَـاء رَبُّـكَ لَجَعَـلَ النَّـاسَ أُمَّـةً وَاحِـدَةً وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ هود١١٨.

وقال: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يونس٩٩.

فلو شاءت حكمة الله لجعل الناس أمة واحدة، ولكن الأمر الإلهي

[1] – د. قسطنطين زريق: الحضارة العربية ص١٠١.

جعل لكل أمة وجهة وشرعة ومنهاجاً، قال تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران٦٤.

وقال تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾البقرة١٤٨.

فالدين – وهو عبادة الله – واحد وإن تعددت الطرق للوصول إليه فالنهاية والنتيجة واحدة، قال تعالى: "لكل شرعة ومنهاجا"[1].

والشرعة هي الطريق وكذلك المنهاج، كما نحن في السفح عند ذروة الجبل تتعدد المسالك لقمة واحدة، قال تعالى:

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾الحج٦٧.

وقد ارتفع من أجل ذلك صوت المطران كيرلس سليم بسترس قال: "إن المسيحية والإسلام طريقان متنوعان يقودان كلاهما إلى الله"[2].

---

[1] – مقاله في العلاقات الإسلامية المسيحية ص٢٢٧.

[2] – مقاله في العلاقات الإسلامية المسيحية ص٢٢٧.

وهذا هو عين ما ردده الإمام الأكبر أبو حنيفة الفقيه المعـروف وصاحب المدرسة التاريخية المشهورة، فقد أكد أن الله عز وجـل إنمـا بعث رسوله رحمة ليجمع به الفرقة، وليزيد الألفة ولم يبعثه ليفرق الكلمة ويحرض الناس بعضهم على بعض[1].

وهذا ما أكده حديثاً المطران جورج خضر، في صدد العلاقة بين الشريعتين الإسلامية والمسيحية قال: "أنا لاأستطيع أن أصورك، أنت لك منطلقاتك وأنظومتك ونظريتك في المعرفة ومنهجيتـك، ولـك عالمـك الروحي العقلي المتكامل، وذلك تاريخك مع هذا الفكر، أي لك ما ورثت عن السلف، وإزائيتك مع هذا السلف، وأنا علي أن أدخل في كل ذلـك، وأن أحاول أن أتقمصك أي أن أفهم هذه الوحدة القائمـة بـين إيمانـك وطريقتك في التعبير عنه وعيشه، وأن أدرك التعامل الذي تعامل به كتباً لك تعتبرها أنت موحاة، وإذا غدوت أنا على رؤية هذا التماسك العضوي بين شخصك وعقلك والأزمنة التي منها تجيء أن أحاول التعبير عنـك عن تراثك كأنني وكيل رسالتك أوداعية من دعاتها، وهذا يعني بحق أن بيني وبينك لصوقاً... أحاول أن أدخل في أنظومتك اللاهوتية، وما بغيتي أن أحطمها، لأنني قررت منهجياً ألا أكون داعية[2].

فنحن حيال مطلقين والمطلق لايقتحم كيان المطلق ولايلغي ملـح الأرض أوابن الأرض، بل يجب الوقوف علـى الأرضـية المشـتركة

---

[1] - العالم والمتكلم (نشر الكوثري، القـاهرة، وراجـع رضـوان السـيد: مفـاهيم الجماعات في الإسلام، بيروت دار التنوير، ط١، ٩٨٤، ص٩٢١.

[2] - انظر مقاله في العلاقات الإسلامية – المسيحية، ص ٢١١.

(المواطنة)، ولايجوز اقتحام الآخر[1]، بل يجب أن يكون اللقاء في الواقع الحي روحاً تتفتح على روح، ودماً يمتزج بدم وحياة تستمد حيويتها من حركة الحياة في الواقع.

وهذا هو رأي الأستاذ الإمام محمد عبده عن وحدة الدين حيث يقول: "إن الروح الذي أودعه جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الأهواء وتحديد مطامع الشهوات والدخول إلى كل رغيبه من بابه، وطلب كل رغيبه من أسبابها، وحفظ الأمانة واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح في الخير والشر، وغير ذلك من أصول التضامن، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرف سعادتها"[2].

وهذا هو منهج حجة الإسلام الغزالي في الرد الجميل موثقاً لهذا المنهج يقرأ كل طرف تراث الآخر ليناقش على أرضه، فهو لايستند في جداله مع النصارى إلى القول بتحريف كتبهم، بل يورد النصوص كما جاءت في الإنجيل معتبراً إياها صادرة عن المسيح دون أن يبدى أي تحفظ بشأنها صحتها، أوفيما يتعلق بنسبتها إليه، بل يستند إليها إذا كان معناها الظاهر يؤيد وجهة نظره، أما إذا لم تكن كذلك فهو يوضح خطأ تفسيرها الحرفي الذي يتمسك به المسيحيون، فهذا التفسير يخالف

---

[1] – مقال وليم سليم قلادة في العلاقات الإسلامية – المسيحية، المرجع السابق ص٢٥٥ و٢٥٩.

[2] – الإمام محمد عبده: رسالة التوحيد، تحقيق محمود أو ريده، دار المعارف، ط٣، ص ١٥٥-١٥٦.

المضمون الصحيح للنصوص ثم إنه يتناقض مع الفعال[1].

والأصح كما قلنا أن لاندخل في جدال حول العقائد، بل نفتش عن الأرضية المشتركة، وهذه الأرض المشتركة رقعتها ممتدة كما ذكرنا.

وهكذا دخلنا في ظلال الأسرة الواحدة، الأسرة الإبراهيمية، حيث نهض الإخوة المسيحيون في إشادة الحضارة العربية واعتبروا الإسلام جزءاً من التراث القومي[2].

وفضلاً عن ذلك فكتاب الإسلام الأكبر والأقدس "القرآن" يعتبر عيسى عليه السلام حنيفاً مسلماً[3].

والملاحظ يتأكد له اقتران الازدهار الحضاري في حضارتنا بالتعاون بين جناحي الأمة المسلمين والمسيحيين[4].

وهذا النهوض التاريخي الكبير الذي شهدته حضارتنا يدعونا إلى حث الخطى واستنهاض الهمم لاجتراح صيغة علوية لهذا التعاون، بل الانصهار، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ

---

[1] – مقال وليم سليم قلادة السالف الذكر ص٢٨١.

[2] – مقال المطران جورج خضر في العلاقات الإسلامية المسيحية ص٢١٠.

[3] – مقال المطران جورج خضر ص٢١٤.

[4] – هذا هو رأي الأب أغناطيوس ديك راجع مقال كيرليس سليم بسترس في العلاقات الإسلامية – المسيحية ص٢٣٨.

قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾المائدة٨٢.

وهذا الأساس في أقربية المودة هو الروحية التي يمتلكها القسيسون والرهبان، والتواضع المرتكز على أخلاقية المحبة في النصرانية بحيث ينطلقون من خلالها على الآخر في دعوته ورسالته، إذا كانت تلتقي معهم في ميزان القيم الروحية المشتركة، الأمر الذي يمثل الخط العريض الذي يوحي به القرآن إلى المسلم في اللقاء من موقع المودة مع النصراني[1].

وهكذا كانت الحضارة العربية تتسم أول ماتتسم به بالرفق، والتسامح والرحمة طريق عريض وواسع ابتدأ بحديث المباهلة وانتهى بالمواطنة والمسافة بين هاتين الذروتين حامل بالمحبة والتعاون والاحترام.

وفيما يلي سنتناول الموضوعين الآتيين:

- العلاقة الإسلامية المسيحية في حضانة الوطنية.
- الوطنية على أرض الكنانة أنموذجاً.

العلاقة الإسلامية المسيحية في حضانة الوطنية

تضمنت آي الذكر الحكيم أن الله جعل "في الأرض خليفة"، وأنه خلق الناس من "نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً"، وجعل الذكر والأنثى "بعضاً من بعض"، و"خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وهم مدعوون إلى التعاون "على

---

[1] - مقال العلامة محمد حسين فضل الله في العلاقات الإسلامية المسيحية ص٣٧.

البر والتقوى"، وقد أرسل الله لهم "رسله بالبينات"، و"أنزل مع الرسل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط"، وليعبدوا الله مخلصين له "الدين"، و"شرع" لهم من الدين ما وصى به الأنبياء، "إن الدين عند الله الإسلام"، وجميع أنبياء الله مسلمون، ولكل جعل منهم "شرعة ومنهاجاً" تضاف إليه، ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً وأبنائه من بعده، "لاإكراه في الدين"، و"والله يفصل بين أتباع الأديان يوم القيامة ومن هؤلاء أهل الكتاب من اليهود والنصارى".

لقد قضى القرآن الكريم على أن الذميين هم المسيحيون واليهود، ولكن الوجدان القرآني أخذ في اجتهاده المتسامح يدخل في مفهوم الذمة الصابئة والمجوس وأصحاب الزبور، وهذا إن دل فإنما يدل على إنسانية العقل العربي والإسلامي وتفتحه ومرونته وخصوبته.

لقد انطلق ابن خلدون من هذه النظرات حين استهل تاريخه الشهير قائلاً: "أعلم أن الله سبحانه اعتمر هذا العالم بخلقه، وكرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وبثهم في نواحيها لتمام حكمته، و"خالف" بين أممهم وأجيالهم إظهاراً لآياته، و"فتعارفون" بالأنساب ويختلفون باللغات والألوان، و"يتمايزون" بالسير والمذاهب والأخلاق، و"يفترقون" بالنحل والأديان والأقاليم الجهات"، وضرب ابن خلدون أمثلة على ذلك كله، وانتهى إلى القول "ليتم أمر الله في "اعتماد" أرضه، بما يتوزعونه من وظائف الرزق وحاجات المعاش بحسب خصوصياتهم ونحلهم، فتظهر آثار القدرة وعجائب الصنعة وآيات الوحدانية، إن في ذلك لآيات للعالمين

وأعلم أن الامتياز بالنسب أضعف المميزات لهذه الأجيال والأمم.."[1].

فهناك إذن "اختلاف" و"تمايز" و"افتراق" وهناك أيضـاً "تعـارف" و"تعاون" بغية "اعتمار" هذا العام بالإجماع الإنساني الذي هو ضـروري للنوع الإنساني، هذا هو جوهر مضمون اصطلاح "التعايش" الحديث.

قبل ابن خلدون انطلق الشهرستاني من هذه النظرات حين كتـب في "بيان تقسيم أهل العالم جملة مرسلة"، وهو يقدم لكتابه "الملل والنحل".

وقد أورد تقسيم أهل العالم بحسب الأقـاليم السـبعة، وبحسـب الأقطار الأربعة الشرق والغرب والجنوب والشـمال، وبحسـب الأمـم، وأخيراً بحسب الآراء والمذاهب، واعتمد التقسيم الأخير في تأليف كتابه مقسماً أهل العالم إلى "أهل الديانات والملل، وأهـل الأهـواء والنحـل"، وحرص على أن يوضح الفرق بين الدين الذي هو "الطاعـة والانقيـاد" والملة التي هي "اجتماع الناس على شكل يحصل به التمانع والتعـاون"، والمنهاج والشرعة والسنة التي هي "الطريق الخاص الذي يوصل إلـى هيئة هذا الاجتماع"[2]، وهكذا فإن الناس ينقسمون ضـمن دائـرة الدولـة الإسلامية، لأنهم فيما يعتقدون لاإكراه في الدين.

لقد اعتنى الفقه الإسلامي باستنباط أحكام مـن هـذه النظـرات، وبحث بداية في مسألة صلة الإسلام بالشرائع الأخرى في وظيفة الإسلام في العالم، وكان مما كتبه أبو حنيفة في القرن الثاني للهجرة: "إن رسـل الله لم يكونوا على أديان مختلفة، ولم يكن كل رسول منهم بـأمر قومـه

---

[1] – ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.

[2] – الشهرستاني الملل والنحل.

بترك دين الرسول الذي قبله لأن دينهم كان واحداً، وكان كـل رسـول يدعو إلى شريعة نفسه وينهي عن شريعة الرسول الذي قبله لأن شرائعهم كثيرة مختلفة، ولذلك قال الله تعالى: "لكل جعلنا منكم شـرعة ومنهاجـاً" ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة – أي في الشريعة – وأوصـاهم جميعـاً بإقامة الدين وهو التوحيد ولايتفرقوا لأنه جعل دينهم واحداً "شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، ومـا وصـينا بـه إبـراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه".

فالدين لم يبدل ولم يحول ولم يغير والشرائع قد غيرت وبدلت لأنه رب شيء قد كان حلالاً لأناس قد حرمه الله عز وجل على آخرين...

ورأي أبو حنيفة أن وظيفة الإسلام في العالم توحيدية فـالله عـز وجل "إنما بعث رسوله رحمة ليجمع به الفرقة، وليزيد الألفة، ولم يبعثـه ليفرق الكلمة، ويحرش الناس بعضهم على بعض[1].

وصفوة القول: إن استحضار هـذه النظـرات هـو أن الدولـة الإسلامية اعتمدت أساساً نظرياً للحكم الإسلامي يـوفر أفضـل منـاخ "للتعايش" بين الناس أياً كانت معتقداتهم ولغاتهم وأجناسهم وأنماط حياتهم وتقاليدهم وقد اتبعت هذه الدولة سياسة تحترم حريـة الاعتقـاد يصـفها أدمون رباط بأنها: "كانت فتحا بذاتها، في عالم الفكـر والـدين، وأنهـا استندت إلى آيتين كريمتين الواحدة التي تقتضي بأن لاإكراه في الـدين، والثانية بأن على أهل الكتاب الذين يختارون البقاء على دينهم "أن يعطوا

---

[1] – انظر رضوان السيد/بحث المسيحيون في الفقه الإسلامي من كتاب "المسـيحيون العرب وهو يشير إل رسالة العالم والمتعلم لأبي حنيفة.

الجزية"، وهو يقرر أن هذه السياسة "كانت ابتكاراً عبقرياً، وذلـك لأنـه للمرة الأولى في التاريخ، انطلقت دولة هي دينية بمبدئها ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، ألا وهو نشر الإسلام، إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها، أن تحافظ على معتقـداتها وتقاليدها وطرز حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد بـإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلـى الشـكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين كما كان عليـه الحـال فـي المملكتـين العظيمتين اللتين كان يتألف منهما العالم القديم – وهو المبدأ بل القاعـدة السياسية المعروفة بصيغتها اللاتينية Ejus rejio cujus religio، هـذه القاعدة التي لم تندثر في البلاد الغربية إلا بفضـل الثـورة الأمريكيـة والثورة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[1].

لقد أرسى هذا الأساس النظري الإسلامي أساس "التعايش" بـين المسلمين وجميع أتباع الديانات الأخرى الذين عاشوا فـي ظـل الحكـم الإسلامي ولكنه يتضمن في الوقت نفسه ما أعطى النصارى بينهم مكانة خاصة لأنهم "أهل كتاب"، وأقربهم مودة للذين آمنوا، ومـنهم قسيسـون ورهبان، وأنهم لايستكبرون، ولنا أن نقف أمام الآية الكريمة التي يقـول فيها الله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ

---

[1] – إدمون رباط/ بحث المسيحيون في الشرق قبل الإسلام من كتـاب "المسـيحيون العرب" نشر مؤسسة الأبحاث العربية.

وَطَعَامُكُمْ. . . ﴾المائدة٥.

لأنها فتحت الباب واسعاً أمام العيش المشترك.

ولنا أن نقف أيضاً أمام دعوة أهل الكتاب التي يقول فيها الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً. . . ﴾آل عمران٦٤.

لأنها تبحث عن القاسم المشترك وتركز على نقاط اللقاء[1].

لقد شهدت فترة المدينة من البعثة اكتمال نظرات الإسلام وتطبيقها عملياً في المجتمع والدولة، ويلفت النظر أن "الصحيفة" التي أملاها رسول الله (ص) لإقرار العلاقات وتحديد الالتزامات في المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية تضمنت مبدأ إقرار حرية الأديان السماوية واعتبار أتباعها مواطنين لهم حق التمتع بحماية الدولة، إلى جانب مبدأ المساواة وعدم الاعتراف بالتمايز الطبقي أوالاستغلال الفردي، ومبدأ التراحم والتعاون، ومبدأ سيادة القانون والعدل، فقد تحدثت عن اليهود بالاسم لأنهم كانوا يعيشون في المدينة وحولها، وقررت أنهم "أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لايوقع إلا نفسه وأهل بيته"، ونظمت حقوقهم وواجباتهم في الدفاع عن الدولة الجديدة، وكلفت لهم الأمن "وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا

---

[1] – د. الدجاني: مسلمون ومسيحيون، ص٢٠.

من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله (ص)"، وتعتبر هذه الصحيفة بمثابة دستور الدولة الإسلامية[1].

إن العهد الذي أعطاه رسول الله (ص) لنصارى نجران يقدم نموذجاً لعقد الذمة بين المسلمين والكتابيين، ويبيح هذا العهد الحرية الدينية، وكذلك الحرية في ممارسة الشؤون الاقتصادية والمساهمة في جميع الأعمال التي يرغبون القيام بها، وقد وردت في كلمة "ذمة" مضافة إلى محمد وهي لغة مثل الذمام والمذمة ومعناها كما يقول صاحب المفردات في غريب القرآن "مايذم الرجل علي إضاعته من عهد"[2].

ومما جاء فيه "ولنجران وحاشيتها جوارُ الله، وذمة النبي رسول الله على أموالهم، وأراضيهم وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أوكثير، لايغير أسقفاً من أسقفيته ولاراهباً من رهبانيته ولاكاهناً من كهنته، وليس عليه دية، ولادم جاهلية، ولايحشرون ولايعشرون ولايطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم جزية فسهمهم النصف غير ظالمين ولامظلومين، ولايؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله"[3].

وقد أورد المؤرخون نصوص كتب أرسلها رسول الله (ص)

---

[1] – د. برهان زريق: الصحيفة – الميثاق دستور المدينة أول دستور لحقوق الإنسان دمشق، دار معد، دار نمير، ٩٩٦، ط١، ص١٢٥.

[2] – يراجع الراغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن.

[3] – يراجع العدوى ص٣٩٠، وقد أورد النص البلاذري في فتوح البلدان. وابن قيم الجوزية في أحكام أهل الذمة.

لنصارى في بلاد الشام[1]، وبحث الفقهاء في عقد الذمة هذا وحكمة مشروعيته وقرروا أن المقصود منه "ترك القتال وليس المال"، وأنه "مؤبد" لايستطيع المسلمون أن ينقضوه أويعلنوا حله لمخالفة ذلك التوحيد الذي دعا إليه القرآن، وللدعوة التي ترى في العالم كله "أمة دعوة يمكن أن تصبح أمة إجابة، والذمي هو الذي يملك نقض العقد وحده إما صراحة أوبقرينة من مثل قتال المسلمين مع محاربيهم[2]، وإن خير إيجاز لمضمون عقد الذمة قول الرسول (ص) في أهل الذمة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"، مع استثنائهم مما يمس المسائل الدينية ويتصل بها احتراما لما يعتقدونه.

وتحتل السيرة النبوية بما يبين أن رسول الله كان يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويشيع جنازاتهم ويكرمهم، وقد أوصى المسلمين باحترام عقد الذمة في قوله "إحفظوني في ذمتي"، ومما رواه عمرو بن العاص عنه ورده لعماله، وهو والي على مصر قول الرسول (ص): "إن الله عز وجل سيفتح عليكم بمدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صهراً وذمة"، والصهر يتضمن الإشارة إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام ومارية القبطية التي أنجبت لرسول الله ابنهما إبراهيم.

لقد انبثق "عقد الذمة" هذا "نظام أهل الذمة" الذي استمر في الدولة الإسلامية على مدى ثلاثة عشر قرناً، منذ الخلافة الراشدة، فالأمويين، فالعباسيين حتى العثمانيين، وإن دراسة التاريخ الإسلامي في مراحله

---

[1] - يراجع بحث جاسر أبو صفية المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام.

[2] - يراجع رضوان السيد مصدر سبق ذكره.

المتعاقبة ترينا أن تطبيق هذا النظام بنصه وروحه كان هو القاعدة، وقد جاءت الممارسة العملية مصدقة للأساس النظري للتعايش، ولكن حدثت في بعض الأحيان تعديات على هذا النظام بنصه وروحه، فلم تصدق الممارسة العملية الأساس النظري للتعايش، وكان هذا هو الاستثناء، كما تبين لنا دراسة هذا التاريخ الإسلامي من أهل الذمة وبخاصة النصارى منهم قبلوا هذا النظام، واستراحوا له، وامتزجوا في مجتمع الدولة، وعبروا عن ولائهم لها، وانطلقوا بطاقاتهم مساهمين في تشييد الحضارة العربية الإسلامية، وتابعوا التمسك بمعتقداتهم، والأمثلة على هاتين الحقيقتين كثيرة ولايتسع مجال هذا التعليق لإيرادها[1]، ويكفي أن نشير فيما يمثل "القاعدة" إلى قصة عمر والذمي العجوز الضرير الذي كان يسأل حيث وضع عنه الجزية وعن ضريبائه وصرف له من بيت المال معتبراً إياه من المساكين، وإلى قصة أهل حمص مع الفاتحين العرب المسلمين التي رواها البلاذري، كانوا من النصارى في غالبيتهم وإلى قصة البطريق بنيامين مع عمرو بن العاص في مصر، وإلى موقف عمر بن عبد العزيز من جباية الجزية والخراج، وإلى مشاركة نصارى الشام الفعالة في أعمال الدولة الأموية ومن بينهم يوحنا الدمشقي الشهير، وإلى ما قاله الجاحظ عن نصارى عصره العباسي: "وكان منهم كتاب السلاطين وفراشو الملوك وأطباء الأشراف، وقد نافسوا المسلمين في لباسهم ومركوبهم وألعابهم، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي واكتنوا بذلك أجمع، وكان

[1] – د. الدجاني: مسلمون ومسيحيون ص٢٣.

المسلمون أعطف على النصارى من اليهود"[1].

ونشير فيما يمثل "الاستثناء" إلى ما حدث من خلل في الممارسة إبان حكم الحاكم بأمر الله، وخلال بعض فترات الغزو الفرنجي، وأثناء فترة الغزو الاستعماري الغربي الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، بقي أن نلاحظ على صعيد الممارسة العملية أن "نظام الملل" الذي سارت عليه الدولة العثمانية هو "نظام أهل الذمة" نفسه، والملة لغة كالدين والفرق بينهما أن الملة لاتضاف إلا للنبى الذي تسند إليه، وقد استوصى القانون الأساسي العثماني هذا النظام حين تعرض في مواده لغير المسلمين[2]، فالدولة جسم واحد لاتقبل الانقسام لأية علة كانت، والسلطنة السنية هي بمنزلة الخلافة الإسلامية الكبرى، ويطلق لقب عثماني على كل فرد من أفراد البعثة العثمانية بلا استثناء من أي دين أومذهب، ودين الدولة العثمانية هو الدين الإسلامي ومع مراعاة هذا الأساس وعدم الإخلال براحة الخلق والآداب العمومية تجري جميع الأديان المعروفة في الممالك العثمانية بحرية تحت حماية الدولة مع دوام الامتيازات المعطاة للجماعات المختلفة كما كانت عليه (المواد ١١،٨،٣،١).

ما هي النتائج التي نستخلصها من تحليل الممارسة العملية للتعايش بين المسلمين والنصارى في ظل الحكم الإسلامي؟

النتيجة الأولى هي أن هذا التعايش ماكان ليتحقق لولا أن طرفيه

---

[1] - يراجع محمد كرد على الإسلام والحضارة العربية ص٤٠ ومابعدها.

[2] - يراجع ساطع الحصري البلاد العربية والدولة العثمانية ص٢٥٧، النص الكامل لهذا القانون الذي صدر عام ١٨٧٦.

أراده، وإذا كان المسلمون قد أقبلوا عليه انطلاقاً من تعاليم الإسلام، فإن النصارى أقبلوا عليه أيضاً من تعاليم النصرانية وبتشجيع من كنيستهم، وقد حاول المؤرخون أن يفسروا ظاهرة ترحيب نصارى المنطقة بالفتح العربي الإسلامي، فأشاروا كما قال أدمون رباط "إلى الأصول السامية لنصارى المنطقة التي كان لابد لها من أن تهيء النفوس لهذا النفور نحو المملكتين العظيمتين في ذلك الحين (الروم والفرس)، وهي التي دفعت سكان سوريا والعراق على الأخص، إلى أن يتوسموا الخير وينشدون الخلاص على يد الفاتحين العرب، ليس فقط من محنتهم الدينية، بل ومن ظلم الضرائب وكثرتها التي كانت تثقل كاهل المكلفين في أقطار الهلال الخصيب ووادي النيل[1]، وقد كتب ميخائيل السرياني بطريق السريان الأرثوذكس في القرن الثاني عشر في تاريخه الطويل شهادة مؤثرة تتضمن نظرة النصارى لحكم الروم الظالم ونظرتهم للفتح الإسلامي الذي حررهم من نير الروم، والحق أن إقبال الطرف النصراني على التعايش كان هو "القاعدة"، وكذلك تبني الكنيسة لهذه السياسة واتخاذها المواقف التي تعبر عن تمسكها بعقد الذمة ووفائها بما يخصها منه.

والنتيجة الثانية هي أن هذا التعايش بين المسلمين والنصارى في ظل الحكم الإسلامي أثمر خيراً عظيماً على طرفيه وعلى المنطقة، وقدم نموذجاً فذاً على الصعيد العالمي، ويختلف هذا النموذج الفذ عن النموذج الغربي الحديث للتعايش بين الأديان الذي برز بعد الثورتين الأمريكية والفرنسية في أنه يقوم على الدعوة إلى الله سبحانه وعلى إعلاء شأن

---

[1] – أدمون رباط: مصدر سبق ذكره، وانظر د. الدجاني: المرجع السابق ص٢٥.

القيم الروحية وعلى تطبيق الشرائع السماوية، بينما يقوم الآخر على ما يعرف بعلمانية الدولة وانتهاجها سياسة "لادينية".

ولقد تمثل هذا الخير العظيم أعظم ما تمثل في تشييد صرح الحضارة العربية الإسلامية التي شيدها المسلمون والنصارى، وأتباع الديانات الأخرى في الدولة الإسلامية، ومعلوم أن للكنيسة النصرانية دوراً بارزاً فيها، وقد كانت الديارات من مراكزها[1]، وإلى هذه الحضارة انتسب نصارى المنطقة وانتموا قديماً وحديثاً، وقد عبر عن الانتساب وهذا الانتماء أخونا المطران جورج خضر بقوله: "حضارة أوروبا هي حضارة الأوروبيين وأنا لم أساهم فيها، أنا في أفضل حال صديق العروس ولكني لست إياه، أتذوق أوروبا ولكنني لا أكونها، وإذا استهلكت ما تنتج فهي لاتفتخر بذلك وقد افتخر إنما هي تفتر بما تنتج، وهذا ثمر اجتهادها هي، غير أني على هذه الأرض ابن الحضارات التي توالت علينا منذ فجر التاريخ إلى اليوم، وورثتها جميعاً الحضارة الإسلامية، وأنا في قلب الحضارة منذ بزوغها، ورافقتها، وفي القرون الأخيرة علمتها..."[2].

النتيجة الثالثة: هي أن الخلل في هذا التعايش، هو الاستثناء كان يحدث لأسباب داخلية في بعض الأحيان، ولأسباب خارجية في معظم الأحيان، وترتبط الأسباب الداخلية دوماً بطغيان الحكم واستبداده، وجمود الفكر وسيادة التقليد، وعبادة الحرف، وفي ظل هذه الأحوال كانت معاناة

---

[1] - د. الدجاني: المرجع السابق ص٢٦.

[2] - المطران جورج خضر "بحث المسيحية العربية والغرب" كتاب "المسيحيون والعرب" ص٩٦.

النصارى لاتختلف في جوهرها عن معاناة المسلمين أخوتهم، وإن اختلفت في الشكل، فالظلم والظلام حين يعمان لايفرقان بين نصراني ومسلم، أما الأسباب الخارجية فقد ارتبطت بالغزو الخارجي، وبخاصة حين يستغل الدين، ويعمد إلى التفريق بين المسلمين والنصارى في الوقت الذي يستهدفهم جميعاً.

ويمكننا أن نسوق أمثلة كثيرة على ذلك من تاريخ الغزو الفرنجي لوطننا قبل تسعة قرون وعلى مدى قرنين، ومن تاريخ الغزو الاستعماري الغربي الحديث لوطننا منذ قرنين، ويكفي أن نشير إلى ما فعله الفرنجة الغزاة بالكنيسة في أنطاكية والقدس، وإلى استهداف "المبشرين الغربيين" حديثاً المسلمين والنصارى "بتبشيرهم" وسعيهم الدائب إلى تحويل أتباع الكنيسة الشرقية إلى كنائسهم الغربية، وقد حدث أن نجح هؤلاء الغزاة الخارجيون في الإخلال بالتعايش بين المسلمين والنصارى كما جرى في إمارة "الرها" إبان حروب الفرنجة، ولكن يلفت النظر أن إرادة التعايش كانت تتغلب كما جرى عند تحرير الرها، وقد فعلت فعلها في مواجهة الغزو الخارجي ومقاومته، والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخنا الذي حفل بالصور المعبرة عما نسميه اليوم الوحدة الوطنية بين المسلمين والنصارى[1].

والحق إن الحاجة ملحة إلى وقفة نواجه فيها حقائق... واقعنا، ونقوم بتجربتنا التاريخية في التعايش ونستلهمها ونطرح حلولاً ناجزة، منطلقين كمؤمنين مسلمين ونصارى من اعتقادنا بأن الحياة لاتستقيم بدون

---

[1] – د. الدجاني: المرجع السابق ص٢٨.

دين، وبأن بين الأديان السماوية أساساً مشتركاً، وبأن العدل يتطلب الإيمان، وبأن علينا أن نتغلب على كل سوء فهم وعلى الأحكام المسبقة الخاطئة، ولنضع نصب أعيننا ذلك الصوت المنادى في البرية "أعدوا طريق الرب واجعلوا سبله قويمة"، وتلك الآية الكريمة: "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه"، ونستذكر موعظة الجبل "طوبى للرحماء فأنهم يرحمون، طوبى للساعين إلى السلام فأنهم أبناء الله يدعون، أنتم نور العالم لاتخفى مدينة على جبل... فليضيء نوركم هكذا للناس، ليروا أعمالكم الصالحة...".

ونستذكر سورة العصر:

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

وصفوة القول لقد نظرت هذه الأمة إلى عملية التوليد بين الأجسام نظرة إيجابية بفعل مناخ التعددية الذي يستند إلى عقيدة تقول بأن الناس سواسية كأسنان المشط وأنهم جميعاً لآدم ولافرق بين واحد آخر إلا بالتقوى، فلا مكان للعنصرية الخبيثة، وأقبلوا عليها وأشادوا بثمارها، وكان هذا شأنهم مع التوليد بين العقول بما يحدث فيه من تلاقح للأفكار يصفه أحمد أمين بقوله: "فالفارسي يحمل عقلاً فارسياً ثم يعتنق الإسلام ويتعلم اللغة العربية، فينشأ مزيج من العقلين تتولد منه أفكار جديدة ومعان جديدة، واليوناني النصراني أوالرومي النصراني أوالعراقي اليهودي يخالط العرب المسلم ويتبادلان الرأي والقصص والفكرة فينشأ من ذلك فكر جديد.. وهكذا...

والخلاصة أن لقاح العقول في حضارتنا أنتج مخلوقات جديدة لها

ميزاتها الخاصة كما كان الشأن في توليد الأجسام"، ويلفت النظر في هذا التفاعل الحضاري الروح التي أحاطت به، فمع كل هذه الاختلافات المتنوعة كانت هناك روح واحدة ترفرف على العالم المسيحي، وصفها أحمد أمين بأنها "روح شرقية" توحد بين أفرادها مهما اختلفت أجناسهم وأنواعهم، وهذه الروح هي التي أخضعت ماتمثله الحضارة العربية الإسلامية من الحضارات الأخرى، فأسبغت عليه ثوباً من روحانياتها وإلهامياتها، وصبغة هذه الروح لامادية جاءت فيها الأديان من بوذية ويهودية ونصرانية، تؤمن بإله فوق العالم وترجو جنة وتخاف ناراً وترى أن وراء السعادة الدنيوية والشهوات الجسيمة سعادة أخرى روحية، "فلما جاء الإسلام ونشر سلطانه على الممالك الشرقية زاد هذه الروح وقواها وعمل في توحيدها.

فقد كانت هذه الأمم تخضع لقانون واحد ونظام في الحكم واحد، وتتكلم بلغة واحدة ويدين أغلبها بدين واحد، ورحلات العلماء في منتهى القوة على صعوبة المواصلات، والرحالة يتبادلون الآراء والمعتقدات، ويدعون دعوات دينية وسياسية، والحكام يرسلون من مركز الخلافة مزودين بتعاليم واحدة في جوهرها، كل هذا وحد بين الأمم، وكون منها ما يصح أن يسمى أمة واحدة: لها أدب وثقافة واحدة وعلم مشترك"[1].

وواضح أن هذه الوحدة هي وحدة التنوع القائمة على التعددية الدينية والتي لها روح نؤثر أن نسميها "الروح الإيمانية"[2].

ما شأن هذا التعايش على الصعيد الشعبي؟؟؟

---

[1] – أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة.

[2] – د. الدجاني: المرجع السابق ص٤١.

يستوقفنا بداية ما تميز به هذا التفاعل على الصعيد الشعبي من حيوية، وما اتصف به من خلق كريم في غالب الأحيان، فقد كانت مخالطة أهل الأديان المختلفة بعضهم بعضاً، وبخاصة المسلمون والنصارى واليهود قوية، وقامت بينهم صداقات جاء وصف بعضها في أبيات من الشعر حفظها لنا الجاحظ في كتابه "الحيوان"، أمثلتها ما قاله أبو الطيحان الأسدي الذي كان نديماً لناس من بني الحدّاء النصارى وفيها:

بنو الصلب والحدّاء كل سميدعٌ   له في العروق الصالحات عروق

وإني وإن كانوا نصارى أحبُّهم   ويرتاح قلبي نحوهم ويتوقُ

ومن أمثلتها أيضاً ما قاله الغزاوي في ناس خالطهم من اليهود مشيراً إلى اختلاف العقيدة التي لم يمنع من إنصاف الآخر وإقامة علاقة طيبة معه:

وجدنا في اليهود رجال صدق   على ما كان من دين مريب

لعمرك إنني وابني غريضٍ   لِمثلُ الماء خالطه الحليب

خليلان اكتسبتهما، وإنني   لخلة ماجدٍ أبداً كسوب

وقد نشط التعامل الشعبي في "الديارات" التي أصبحت مراكز ثقافية نشطة، تقدم صورة لها ماجاء في كتب التراث العربي عنها، وتضمن هذا التعامل حواراً وجدلاً ونقاشاً من أمثلته ما دار بين المسلمين والنصارى.

وقد أشار البيروني في كتابه "الآثار الباقية" إلى رسالتين كتب أولاهما عبد الله بن إسماعيل الهاشمي يدعو بها عبد المسيح إسحق الكندي إلى الإسلام، فرد عليه عبد المسيح بالأخرى يدعوه إلى النصرانية، وذلك في عهد المأمون، وأورد الجاحظ في رسالته "الرد على النصارى" أمثلة أخرى كما ذكرنا طرفاً من أخبارهم.

ويلفت النظر أن مؤرخي المسلمين عنوا بتاريخ النصارى وأتباع الأديان الأخرى، وقد مكن هذا التعامل الشعبي القائم على التعددية من تحقيق تعاون فعال بين أصحاب العقائد المختلفة لتشييد صرح حضارة أسهم الجميع فيها، ونسوق مثلاً على ذلك حديث المؤرخين عن تمثل العرب في مصر منجزات "مدنيتها المادية" حين قام القبط المصريون بالدور الأساسي في بناء الأسطول العربي في بداية العصر الأموي، "فبالإضافة إلى أولئك الذين عملوا في دار الصناعة بالإسكندرية وجه والي مصر عبد العزيز بن مروان ثلاثة آلاف من عمال صناعة السفن إلى تونس لإنشاء دار لهذه الصناعة، كما ذهب عدد آخر إلى الشام"، حسبما نقل أبو سيف يوسف عن بتلر وغيره[1].

نموذج آخر للتفاعل الحضاري والتعامل الشعبي في ظل التعددية الدينية التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية تجده في الأندلس، حيث نشط فيه المستعربون من النصارى الإسبان الذين عاشروا العرب المسلمين وأقاموا في ظل الحكم الإسلامي، وكان السواد الأعظم من هؤلاء يقيم في قرطبة وإشبيلية وأكثرهم في طليطلة التي كانت عاصمة القوط القديمة، وقد درج هؤلاء على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن، وإن كان في ذلك لم يمنعهم من مخالطة المسلمين، وكانت أديرتهم وكنائسهم مما يروق للشعراء ارتيادها، وكان لهم رئيس يعرف بالقومس وقاض يعرف بقاضي النصارى يفصل فيما يكون من نزاعات بمقتضى

---

[1] – أبو سيف يوسف، الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، وانظر د.الدجاني: المرجع السابق ص٤٣.

القانون القوطي، أما ما يكون من منازعات بين مسلم وذمي فالفيصل فيها للشريعة الإسلامية، وقد تغلغلت اللغة العربية في أوساطهم، فكان أن ترجم القس فسنسيو "بتجسيس" القانون المقدس إلى العربية، سنة ١٠٤٩، وترجم المستعربون الأناجيل الأربعة إليها أيضاً، وكان دورهم من العوامل الهامة في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى إسبانيا المسيحية.

ونشط اليهود أيضاً في هذا النموذج الأندلسي، فعظم شأن جالياتهم التي اشتغلت بالتجارة، وكان منهم الفلاسفة والعلماء وأشهرهم موسى بن ميمون، وأقبلوا على ترجمة الكثير من الكتب العربية إلى العبرية، وكانوا كالمستعربين واسطة لنقل مظاهر الحياة الإسلامية إلى إسبانيا المسيحية، وقد عرف أهل الذمة في الأندلس فترات اتسم فيها التعامل معهم بالشدة، كما حدث في عهد المرابطين وعهد الموحدين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين[1].

التعامل مع التعددية على صعيد الحكم:

احترم الحكم في الإسلام التعددية الدينية، واتخذ البداية التاريخية لممارستها في العهد النبوي نموذجاً، وشاعت في أوساطه الأمثلة الرائعة التي ضربها الخلفاء الراشدين في تعاملهم مع أصحاب العقائد الأخرى، ومنها قصة عمر والذمي العجوز الضرير الذي اضطر للسؤال، وقصة أهل حمص مع الفاتحين العرب المسلمين التي رواها البلاذري، وقصة

---

[1] - لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، مكتبة النهضة العربية، ١٩٦٩، وانظر د.الدجاني: المرجع السابق، ص٤٤.

بطريق القبط بنيامين مع عمرو بن العاص في مصر، وقصص أخرى.

ونشط الفقه الإسلامي في القرن الثاني الهجري في استنباط الأحكام المتعلقة بالتعددية الدينية وعقد الذمة التي اعتبرت العهدة العمرية نموذجاً له، وكانت العادة قد جرت إبان الفتح أن يبرم الفاتح عقداً مع وجهاء المدينة المفتوحة، وقد جاء في عهد عمر لأهل القدس "أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لاتسكن ولاتهدم ولاينتقص منها ولامن حيزها... ولامن شيء من أموالهم ولايكرهون على دينهم، ولايضار أحد منهم، ولايسكن إيلياء معهم أحد من اليهود..."، وكان التعهد الأخير هذا بناء على طلبهم.

وقد نجح الفقهاء في صياغة منظومة للعلاقات الاجتماعية من الناحية الفقيهة بعد أن بحثوا في مسألة صلة الإسلام بالشرائع الأخرى ووظيفة الإسلام في العالم، كما يقول رضوان السيد في دراسته "المسيحيون في الفقه الإسلامي"، وتوصلوا في بحثهم إلى إرساء مبدأين، الأول: الإسلام دين دعوة يهمه أن ينشر ويجمع ويستوعب ويوحد، والآخر: اعتباره نفسه كدين استمراراً للدين التوحيدي التاريخي، وإن اختلف من ناحية الشريعة، وقد شرح أبو حنيفة هذه الوظيفة التوحيدية في رسالة العالم والمتعلم، فبيّن "أن رسل الله لم يكونوا على أديان مختلفة"، وإنما على دين واحد، ولكن لكل منهم شرعته ومنهاجه، وقد أوصاهم الله جميعاً بإقامة الدين وهو التوحيد ولايتفرقوا فيه... "فالدين لم يبدل ولم يحول ولم يغير، والشرائع قد غيرت وبدلت لأنه رُبَّ شيئ قد كان حلالاً لأناس حرمه الله عز وجل على آخرين، وهكذا فإن الله عز وجل "إنما بعث رسوله رحمة ليجمع به الفرقة، وليزيد الألفة، ولم يبعثه ليفرق الكلمة ويحرش الناس بعضهم على بعض.

ويلاحظ رضوان السيد أن نظام الملل اعتمد "مبدئيات الإمام أبي حنيفة" وبدأ في مصر إبان العهد المملوكي بتعيين أربعة قضاة لمذاهب السنة الأربعة، ثم امتد ذلك إلى المذاهب الإسلامية الأخرى، فالطوائف المسيحية، فكان أن أعطى العصبيات والأعراق والطوائف استقلالية داخلية أكبر[1].

اعتمد تعامل الحكم مع التعددية الدينية قاعدة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"، مع حرية الاعتقاد، فكان أن شارك أصحاب العقائد الأخرى من غير المسلمين في تولي المناصب العامة إلا ما اتصل بالإسلام مثل الإمامة والإمارة، كما شاركوا في مختلف نشاطات المجتمع، وقد برز من أهل الذمة وزراء كثيرون في مختلف العهود، وكان أغلب أطباء القصور في بغداد في العصر العباسي نصارى، كما كان أغلب الماليين في الشام يهودا.

واشتهر اليهود باحترافهم الصيرفة ودباغة الجلود والصياغة، ويشير حديث الجاحظ عن النصارى إلى مشاركتهم الاجتماعية النشطة وتفاعلهم الحضاري الإيجابي، وقد تحدث المقريزي في كتاب "المواعظ والاعتبار" عن قبط مصر في العهد المملوكي فأوضح أن "منهم كتاب المملكة، ومنهم التجار، والباعة، ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم، ومنهم أهل الفلاحة والزراعة، ومنهم الخدمة والمهنة".

ويذكر المؤرخون كيف قام قبط الدواوين بدور مهم في الإدارة المالية للبلاد بل إن أفراداً منهم تقلدوا مناصب على قدر كبير من الأهمية في الإدارة المصرية، واشتهر عن بعض العائلات القبطية أن أبناءها

---

[1] - رضوان السيد، بحث "المسيحيون في الفقه الإسلامي"، كتاب المسيحيون العرب.

تتابعوا على المنصب نفسه لثلاثة أجيال أو أربعة، كما أورد أبـو سـيف يوسف في كتابه "الأقباط والقومية العربية"، وقد شملت قاعدة "لهم ما لنا"، حق غير المسلمين في التبشير والدعوة لعقائدهم، ومما حفظه لنا تـاريخ المغول أن عدداً من المبشرين النسطوريين النصارى جاءوا من الدولـة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي ليبشروا بالنصرانية، فكان أن تنصرت عدة قبائل مغولية[1].

الخلل في ممارسة التعددية:

كان احترام الحكم الإسلامي للتعددية الدينية هو القاعـدة، وكمـا يقول المطران جورج خضر في تعقيبه علـى بحـث إدمـون ربـاط: "المسيحيون في الشرق قبل الإسلام"، و"ترك المسلمون العرب الناس على مذاهبهم، طبعاً يمكن أن يكون حدث ضغط في عهـد هـذا أوذاك مـن الخلفاء الأمويين أو العباسيين، ولكن القاعدة كانـت تـرك النـاس عـل مذاهبهم"[2]، فمتى كان يحدث الإخلال بهذه القاعدة؟.

لقد سبق أن أوضحنا في دارستنا عن التعايش الإسلامي المسيحي في الحضارة العربية الإسلامية، "أن الخلل فـي هـذا التعـايش، وهـو الاستثناء، كان يحدث لأسباب داخلية في بعـض الأحيـان، ولأسـباب خارجية في معظم الأحيان، وترتبط الأسباب الداخلية دوماً بطغيان الحكم واستبداده، وجمود الفكر وسيادة التقليد، وعبادة الحرف، وفي ظل هـذه

---

[1] – أحمد أمين، وأبو سيف يوسف، وانظر د. الدجاني: المرجع السابق ص٤٧.

[2] – جورج خضر، المسيحيون العرب، مصدر سبق ذكره.

الأحوال كانت المعاناة تعم غير المسلمين والمسلمين على السواء، وإن اختلفت في الشكل، فالظلم والظلام حين يعمان لايفرقان بين نصراني ومسلم، أما الأسباب الخارجية فقد ارتبطت بالغزو الخارجي، وبخاصة حين يستغل الدين فيه، ويعمد إلى التفريق بين المسلمين والنصارى في الوقت الذي يستهدفهما فيه معاً".

ويمكننا أن نسوق مثلاً للإخلال بقاعدة التعددية ماحدث في بعض فترات العهد المملوكي في مصر، لنتتبع من خلال المتغيرين الداخلي والخارجي، مستفيدين بخاصة من الدراسة التحليلية التي أجراها أبو سيف يوسف حول "القبط في عصر المماليك"[1].

شهدت مصر متغيراً داخلياً في العهد المملوكي الذي بدأ عام ١٥٢٠م، في محيط الزراعة التي أهملها المماليك لحساب التجارة، وقد أدخلت الإدارة المملوكية تعديلات جسيمة على نظام حيازة الأرض، فتغير وضع الفلاح، وشمل المتغير الداخلي مستوى الدولة حيث شكل المماليك في قمة الحكم مجتمعاً مغلقاً تقوم بينه وبين العامة حواجز، وقد احتل قبط الدواوين مكانة هامة في الإدارة، واشتهر منهم عدد من الوزراء، وذلك لخبرتهم التقليدية، الأمر الذي منحهم وضعاً متميزاً في الجهاز الإداري، وجعلهم ينتسبون واقعياً إلى "الحكام" بالمعنى الواسع، ونجم عن هذا المتغير الداخلي تفجر تناقضات منها ما هو بين السلطان وكتّابه الأقباط، ومنها ما هو بين أهل القلم المسلمين وهؤلاء الكتّاب، ومنها ما هو بين فئات الشعب وبخاصة الفلاحون والعامة في المدن وبين

---

[1] - د. الدجاني: المرجع السابق ص٤٨.

هؤلاء الكتاب، وقد لاحظ دونالد ريتشاردز في كتابه "البيروقراطية القبطية في العهد المملوكي" أن التناقض الأول كان يتفجر حين تضخمت ثروات بعض كبار الموظفين القبط وتعاظم نفوذهم، ويؤدي هذا التفجر إلى تعرضهم للمصادرات العنيفة وغيرها من إجراءات البطش، وطبيعي أن هذه الإجراءات لم تقتصر عليهم بل شملت أمراء منافسين للسلطان أوموظفين مسلمين أوعلماء دين أما التناقض الثاني فقد تفجر مع نمو طائفة أهل القلم في ظل ازدهار المدن الإسلامية، وتطلع أفرادها إلى أن يكون لهم نصيب متزايد من الوظائف في الدولة لأنها مصدر القوة والثروة، وكان هذا التفجر يأخذ صوراً مختلفة، منها ما هو ديني ومنها ما هو سياسي اجتماعي، ومن أمثلته كتاب ابن دريهم الذي يندد فيه بسلطة هؤلاء القبط الإداريين وبتمكينهم من إنفاق موارد بيت المال في وجوه لاتقرها الشريعة.

وقد حاول المؤرخ ابن تغري بردى أن يبرر استخدامهم مؤيداً وجهة نظر السلطنة "لأنهم يلمون بكل شؤون الإدارة، والحكام في حاجة إليهم" أما البوصيري فنظر إلى الموضوع نظرة شاملة فدعا السلطان إلى إصلاح الفساد الداخلي "وأن يترك جهاد المغول الصليبيين ويتفرغ لجهاد قبط الدواوين وأمثالهم من اليهود وأثرياء المسلمين وكبرائهم".

أما التناقض الثالث فكان يتفجر حين يعمد الحكم إلى إثقال كاهل المحكومين بالضرائب، ويكلف الجباة الأقباط بتحصيلها، فيشتد سخط العامة عليهم، ثم يتسع ليشمل أقباطاً آخرين بتحريض من المقلدين، ويأخذ شكل انتفاضات عنيفة تتضمن اعتداءات.

وكان بعض السلاطين يتغاضى عن هذه الاعتداءات خوفاً من أن يتحول السخط الشعبي إلى رموز السلطة ذاتها، وقد يعمد الحكم إلى

التهدئة بعزل قبط الدواوين، ولكنهم كانوا سرعان ما يعودون إلى أعمالهم لتعذر الاستغناء عن خدماتهم[1].

ظهر المتغير الخارجي بشكل واضح إبان حروب الفرنجة، وكانت أمور أهل الذمة قبل ذلك تسير سيرها المعتاد في بلاد الشام ومصر، وقد شهدت انتعاشاً في العهد الفاطمي الذي شجع التجارة المسيحية، ويذكر ابن العميد أن الخليفة العزيز بالله اتخذ له زوجة مسيحية اسمها آراميس، وكان أخواها بطريقين على بيت المقدس والقاهرة، وقد استوزر عيسى بن نسطورس في مصر وأناب عنه في بلاد الشام يهودياً هو منشا بن ابراهيم، كما أورد أحمد رمضان محمد في دراسته "المجمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية"، ولم يخل الأمر أحياناً من حدوث تنافس بين أهل الذمة أنفسهم يتخذ مظهر عنف، إلا أن تأثيره كان قليلاً إذا قيس بصراع العصبيات الأخرى، وكان يحدث لأسباب مادية أوسياسية أواجتماعية[2].

عمد الفرنج إلى ايغار صدور الطوائف المختلفة من أهل الذمة، ونجحوا أحياناً مع بعضهم، وفشلوا في أحيان أخرى، ومما يؤكد أن البطريرك الأرثوذكسي الأنطاكي في القرن العاشر كان مؤيداً للحمدانيين ضد الروم – كما يلاحظ المطران جورج خضر – وحين استعاد صلاح الدين أنطاكية من الفرنج أعاد معه البطريرك الأرثوذكسي إليها، وكان

---

[1] – أبو سيف يوسف عن آخرين، مصدر سبق ذكره، وانظر د. الدجاني: المرجع السابق ص٥٠.

[2] – د. الدجاني: المرجع السابق ص٥١.

الروم الأرثوذكس قد انفصلوا عن بيزنطة مع الفتح العربي انفصالاً كلياً، وقد أقدم الفرنجة على إلغاء البطريركية الأنطاكية، وعينوا بطريركاً لاتينياً في القدس حين استولوا عليها عام ١٠٩٩، وأبعدوا الكهنة الأرثوذكس والأرمن والسريان والأقباط عن كنيسة القبر المقدس، "ولم يعترف الإكليروس الأرثوذكسي بسلطة اللاتين على كنيسة أنطاكيا، وأقام بطاركة تولوا الشرعية في الخارج، وحين خرج اللاتين من القدس سنة ١١٨٧ كان هناك بطريرك أرثوذكسي مستعد ليتسلم مهامه فيها"، كما يذكر المطران جورج خضر في بحثه "المسيحية العربية والغرب"، ولكن فرنج الساحل نجحوا في جذب الكسروانيين، وقد كان هؤلاء مصدر قلق للدولة في بعض الأحيان بسبب غضبهم، ووقوفهم مع أعدائها الخارجيين[١].

برز أثر هذا التغير الخارجي في مصر إبان حروب الفرنجة المتأخرة التي استهدفت مصر وصولاً إلى بيت المقدس، وعمل الفرنجة لفصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية وضمها إلى الكنيسة الكاثوليكية كي يستعينوا بالحبشة في الأطباق على مصر من الجنوب بينما يهاجمونها من الشمال، وقد فشل مشروعهم لأن ملوك الحبشة كانوا يقيمون علاقات طيبة مع سلاطين مصر تقوم فيها روابط دينية وتجارية وثقافية، ولكن الأمر لم يخل من فترات حدث فيها التوتر بين الحبشة ومصر كما جرى في عهد الملك "زرع يعقوب" الحبشي الذي دعته الكنيسة الكاثوليكية للاشتراك في مجمع فلورنسا عام ١٤٣٩ التوحيدي،

---

١ - أصدر رمضان محمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام وعصر الحروب الصليبية الجهاز المركزي للكتب الجامعية بالقاهرة، ١٩٧٧.

ولم يلبث أن عاد إلى سابق علاقات الود مع مصر، وقد تضمنت رسالة له إلى السلطان المصري التأكيد على أن يعامل الحاكم مسيحيي مصر بمثل ما يعامل حاكم الحبشة مسلميها والتذكير بأن النيل ينبع من الحبشة، كما ويورد أبو سيف يوسف عن دراج[1].

كانت المؤثرات الأجنبية المرتبطة بالغزو الخارجي ذات أثر سلبي بالغ الخطورة على مناخ التعددية الدينية، وقد أشرنا إلى ما فعله الفرنجة الغزاة بالكنيسة في أنطاكيا والقدس، وإلى نجاحهم أحياناً في الإخلال بالتعايش بين المسلمين والنصارى كما جرى في إمارة الرها إبان حروب الفرنجة، ويتضح من دراسة حالة مصر في العهد المملوكي مدى الأثر السلبي الذي حدث على وضع القبط بسبب هذه المؤثرات، فقد كان الفرنجة يعاملون نصارى الشرق معاملتهم للخوارج فحرموهم حقوقهم المحلية التي كانت لهم في ظل الحكم الإسلامي، كما يلاحظ عزيز سوريال عطية في كتابه "العلاقات بين الشرق والغرب"، ولم يفرق الفرنج بين مسلم ونصراني حين نزلوا الفرما أواخر العصر الفاطمي وقتلوا من فيها، وهلك كثير من القبط في إحراق الفسطاط خشية وقوعها في أيدي الفرنجة، وعانت الكنيسة القبطية الكثير من جراء محاولات الفرنجة تحريض لحكام الحبشة على مصر، واشتد قلقها فيما بعد حين حاول البرتغاليون إفتتاح الحبشة بتحويل مجرى النيل ويظهر هذا القلق في نصوص "وصايا وتواقيع للبطاركة" أوردها القلقشندي في صبح الأعشى[2].

---

[1] – أبو سيف يوسف وآخرون. وانظر د. الدجاني: المرجع السابق.

[2] – الدجاني: المرجع السابق ص٥٣.

وأوجد الخطر الخارجي هذا ميلاً لتحريك نوازع التعصب بين عامة المسلمين والحنق على النصارى بعامة دون تمييز، ولكن يلفت النظر أن إرادة التعايش كانت هي الأقوى، كما حدث عند تحرير الرها، وقد تغلبت في حالة مصر فازدهر الافتتاح القبطي العربي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، وجرى وضع الكتب الموسوعية في الفقه واللاهوت والتاريخ ونظم الدولة، وكان وجود القبط في مختلف مستويات السلم الإداري للدولة إيجابياً في مجمله، وتجلى اختيار القبط في الوقوف إلى جانب حكامهم وإخوانهم في الدفاع عن البلاد، وفي دور إيجابي قامت به الكنيسة القبطية على هذا الصعيد.

ماذا نستخلص من دراستنا للخلل الذي يصيب التعايش؟؟

نستخلص أولاً أن المعاناة الناجمة عن هذه المتغيرات تعم الجميع، فالمسلمون في مثل مصر الذي عرضناه لم يكونوا في مجموعتهم أفضل حالاً من القبط، وقد ذكر المقريزي كيف أوقع أحد السلاطين "بعرب الصعيد، وأذل سائر عرب الوجهين القبلي والبحري، وأفناهم قتلاً وأسراً سبياً".

نستخلص ثانياً أن العوامل السياسية والاقتصادية تفعل فعلها في هذا الخلل، وأنّ ضعف الشعور الديني القائم على الوعي يفسح المجال له.

نستخلص ثالثاً أن غياب القيادة الحكيمة يمكن من تفاقم الخلل[1].

---

[1] - د. الدجاني: المرجع السابق ص٤٥.

ضوابط:

الضابط الأول: هو وجود مؤسسات تدافع عن العقد المبرم بين الأطراف المشاركين في هذه التعددية حين يتعرض لانتهاكات حكام أفراد، ومثل على ذلك الموقف الذي وقفته شياخة الإسلام في الدولة العثمانية حين وقع في خاطر السلطان سليم الأول أن يُهجِّر بعض أتباع الديانات الأخرى وسط المعارك التي خاضها، فقد حاجه زنبيلي على أفندي شيخ الإسلام وقال له بلا محاباة: ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم، وأمثلة أخرى مواقف الكنيستين الأرثوذكسية والقبطية حين حاولت قوى خارجية استمالتها ضد الحكام في وطنها.

الضابط الثاني: وجود قيادات في أوساط الحكام من أهل السيف وأهل القلم تتصدى لمعالجة الخلل الذي يصيب التعايش، وتنشر الوعي بين الناس على ذلك كله، وقد جسد الأمير عبد القادر الجزائري نموذجاً رائعاً لمثل هذه القيادات في سلوكه أثناء نشوب الفتنة الطائفية في بلاد الشام عام ١٨٦٠ بتحريض قوى خارجية.

الضابط الثالث: وجود تعاون بين أهل الحل والعقد في جميع الأطراف المشاركة بالتعددية الدينية لتغلب الوحدة، على الفرقة، وتجسيد إرادة التعايش، والوقوف صفاً في وجه الخطر الخارجي[1].

استمرت ممارسة التعددية الدينية في الدائرة الحضارية الإسلامية

---

[1] – د. الدجاني: المرجع السابق ص٥٥.

إبان الدولة العثمانية، ثم لم تلبث أن طرأت تطورات أساسية على هذه الممارسة بفعل تنامى المؤثر الخارجي، اقترنت بتحولات اقتصادية وسياسية، وبفعل تغلغل مفاهيم الدولة الحديثة التي بدأت بالحلول محل دول الخلافة.

لقد أتاحت الدولة العثمانية في أوائل عهودها بحكم بنيتها، استقلالية واسعة للملل الدينية والعصبيات المحلية، ذلك أنها قامت على نظام للجند والجباية وتمثل مؤسسي للشريعة وفق المذهب الحنفي، فكانت ممارسة التعددية الدينية تتم بصورة مرضية، وقد أثمرت أوضاعاً حسنة تحدث عنها الرحالة الغربيون الذي زاروا البلقان في القرن السادس، كما أورد برنادرلويس في كتابه السياسة والحرب[1].

وكانت هذه الأوضاع ذات سحر قوي في أوساط أوروبية مجاورة ممزوج باستشعار الخطر، ويظهر ذلك فيما نشره مارتن لوثر عام ١٥٤١ محذراً بأن الفقراء المضطهدين على أيدي الملاك الجشعين يفضلون العيش على الأرجح في ظل الأتراك، ويسجل للدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي استقبالها الكريم لليهود الإسبان الفارين من وجه محاكم التفتيش، والسماح لهم بالاستقرار في مختلف الولايات العثمانية، ومعاملتهم وفق مبدأ "لهم ما لنا"[2].

اعتمدت الدولة العثمانية في ممارستها للتعددية الدينية "نظام الملل"

---

[1] – وجيه كوثراني، بحث "المسيحيون من نظام الملل إلى الدولة الحديثة"، كتاب المسيحيون العرب.

[2] – د. الدجاني: المرجع السابق ص٥٦.

الذي أسسه محمد الفاتح عام ١٤٥٣، وجاء هذا النظام تطويراً لنظام أهل الذمة، وعهد بمقتضاه إلى بطريرك الطوائف المسيحية بحقوق الولاية على جميع الأمور الدينية والتعليمية والاجتماعية الطائفية بما في ذلك الزواج والميراث والأوقاف والتعداد بجميع السلطات الموكولة لشيخ الإسلام فيما يتعلق بالمسلمين، كما أورد أبو سيف يوسف عن عطية كتابه "تاريخ المسيحية الشرقية".

ولم يلبث المؤثر الخارجي أن نجح في اختراق هذا النظام بالحصول على امتيازات كانت في أول أمرها منحة من دولة قوية ثم تحولت مع ضعف الدولة التدريجي إلى سيف مسلط عليها تحمله الدول الأوربية الكبرى، وتلوح به موظفة هذه الامتيازات بما يخدم أهدافها التوسعية، وقد عمدت هذه الدول إلى اجتذاب بعض الملل إليها وزعزعة ولائهم للدولة، وتبنت مشروعاً توسعياً نما في سياقه مشروع "الدولة الطائفية"، وهو على حد قول وجيه كوثراني في دراسته "المسيحيون في نظام الملل إلى الدولة المحدثة" مشروع يقوم على السيطرة وعلى تحويل الوحدة المتنوعة إلى وحدات منفصلة ومتناحرة، وعلى تحويل التعددية المتوازنة في إطار حضارة توليفية واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية إلى تعددية تقوم على الاستلاب والتمويه والتشويه الثقافي والانسلاخ عن الأصول والجذور عبر قشرة الاستهلاك الغربي.

وقد تشكلت ركائز هذا المشروع في سياسة مناطق النفوذ الدولية، وسياسة السيطرة على السوق وتكييف الاختراق الثقافي بين المجموعات الملكية عبر النشاط التبشيري التعليمي، وسياسة "الحماية" المدعاة من قبل

الدول الأجنبية للطوائف عبر تحويلها من "ملل" إلى "أقليات"[1].

وهكذا تم اختراق نظام الملل الذي شهد قبل ذلك بروز سلبيات في ممارسته مثل بيع المناصب والرشوة كانت سبباً في إضعافه، وبدأت الدولة العثمانية بعد هذا الاختراق تشهد تعددية جديدة مختلفة عن التعددية الدينية التي وجدت في دائرة الحضارة العربية الإسلامية، وتنتسب إلى التعددية التي تتبناها الدولة الحديثة، وقد شهدت الدائرة الحضارية العربية الإسلامية منذ ذلك الحين احترام تفاعلها مع حضارة الغرب في عالم متغير[2].

والحق أن هذه الممارسة في ظل الحضارة العربية الإسلامية تدعونا عند التعامل مع هذه القضية إلى التمسك بمبادئ أساسية تحدد المنطلقات والحقوق الواجبات.

لابد من التمسك بمبدأ كرامة الإنسان : "الإسراء/٧٠"[3].

فهذه الكرامة هي لكل مخلوق من بني البشر، أياً كان لونه أولسانه أومعتقده أونمط حياته، وهي أيضاً لكل جماعة بشرية.

لابد من التمسك بمبدأ وحدة أصل البشرية:"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى"، والانطلاق منه في التعامل مع مبدأ الاختلاف بين الناس، "وجعلناكم شعوباً وقبائل"[4]، فكلنا لآدم وآدم من تراب الأرض التي منها خلقنا الله وفيها يعيدنا ومنه يخرجنا تارة أخرى.

---

[1] – المصدر نفسه.

[2] – د. الدجاني: المرجع السابق ص٥٨.

[3] – الإسراء/٧٠.

[4] – الحجرات/١٣.

لابد من التمسك بمبدأ التعارف وصولاً إلى التعاون علـــى البـــر والتقوى: "لتعارفوا إن أكركم عند الله أتقاكم"، "وتعانوا على البر والتقوى ولاتعانوا على الإثم والعدوان"[1].

فعبر الاختلاف والتنوع تتحقق الوحدة والتعاون تجسيداً للأصــل الواحد لإعمار الأرض، وهكذا فإن الجميع مدعوون أفــراداً وجماعــات لقبول التنوع وحمياته والاعتزاز به وتقدير ما يتضمنه من غنى.

إن هذه المبادئ تكفل حق كل فرد أوجماعة في الوجود وحقـــه فـــي الوطن وحقه في الثقافة وحقه في الاعتقاد وحقه في العبـــادة، وهـــي تؤكـــد واجب كل فرد أوجماعة في التعاون واحترام حرية الآخـــر فـــي الاختيـــار وممارسة حقوقه، وهي تدعو إلى اعتماد الحوار وسيلة للتعارف ولمعالجـــة سوء الفهم والمشكلات، وواضح أن على المؤمنين بالله ومسئولية الدعوة إلى الالتزام بذلك كله، وإن مما يبشر بالخير هذا التوجه للحوار بـــين المـــؤمنين بالإسلام والمؤمنين بالنصرانية، كما يلفت النظر أن اللقاء يتحقق على هـــذه المبادئ التي تحدثت عنها وثائق مسيحية أرثونكسية وكاثوليكية نذكر كمثال لها رسالة قداسة البابا في مطلع عام ١٩٨٩م بشأن احترام الأقليات.

---

[1] – المائدة/٢.

المسلمون والمسيحيون في المجتمع المعاصر

"حضانة المواطنة"

قضية المواطنة مطروحة اليوم بقوة في عالمنا على صعيدي الفكر والممارسة سوء في دائرة الدولة الواحدة، أم في الدائرة الحضارية التي تضم داخلها عدداً من الدول المنتمية إليها، أم في الدائرة العالمية التي يجري الحديث عنها في عصر ثورة الاتصال على أنها "القرية الواحدة"، وتتداعى إلى الخاطر أمثلة كثيرة نورد نماذج منها.

شهدت دائرة الحضارة الغربية في أوروبا منذ تسعينيات القرن الماضي تفكك كل من الاتحاد السوفيتي ويوغوسلافيا إلى دول، ونجم عن هذا التفكك بروز الانتماء فيها، وثارت تساؤلات حول الأساس المعتمد في تحديد المواطنة، أهو حق الدم أوحق الأرض أوالانتماء الديني أوالمذهبي أوالتوافق في عقد اجتماعي؟.

ويروي باحث سياسي روسي مرموق، ابن لزعيم روسي سوفييتي مشهور كيف أن مسألة مواطنته الروسية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أصبحت محل تساؤل لأنه ولد خارج الأرض الروسية في إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي أثناء عمل والده فيها، وكان عليه أن يدخل في سلسلة إجراءات ليثبت "روسيته" شأن بضع مئات آلاف من الروس

الآخرين، وما أكثر الأمثلة المشابهة في دول يوغوسلافية السابقة التي يبرز فيها بحدة عنصر الانتماء الديني أوالمذهبي إلى جوار عنصر الانتماء القومي، بين صرب أرثوذكس وكروات كاثوليك وبوشناق "بوسنيين" مسلمين، كما شهدت دائرة الحضارة الغربية نفسها في أوروبا في الفترة نفسها تقدم دول الاتحاد الأوروبي نحو كيان أوروبي (ما بعد قومي)، وهي الدول التي قامت على فكرة الأمة – الدولة) (Nation – State)، واعتمدت "القومية" أساساً لوجودها، ونجم عن هذا الحدث تطور في مفهوم المواطنة القطرية، وتوجة نحو تقنين "المواطنة الحضارية الأوربية"، يتجلى عملياً في قوانين التنقل والإقامة والعمل المتعلقة بمواطني هذه الدول، ونلاحظ في الوقت نفسه أن لمفهوم المواطنة على الصعيد الرسمي في بعض هذه الدول قداسة تصل إلى حد إعطاء ما يترتب عليها أولوية على اعتبارات أخرى إنسانية، وقد رأى العالم أمثلة كثيرة على ذلك مثل السلوك البريطاني الرسمي في قضية الممرضتين اللتين أدينتا بقتل زميلة استرالية لهما في المملكة العربية السعودية، وفي قضية جليسة الأطفال البريطانية التي تسبب إهمالها في موت الطفل الذي ترعاه في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد لفت السلوك الأمريكي في عملية إنقاذ ضحايا حادث نسف السفارة الأمريكية في كل من نيروبي ودار السلام الأنظار وآثار الاستغراب والاستهجان حين ركز على المواطنين الأمريكيين دون غيرهم.

أمثلة أخرى في الدوائر الحضارية الأخرى في عالمنا على إلحاح قضية المواطنة وما يتصل من مشكلات نراها يومياً، وفي ذلك بفعل ما تعرضت له أقطارها إبان الاستعمار الغربي لها، وبفعل الحدود السياسية التي رسمتها القوى الدولية للدول في الجنوب حين فرضت ثورة التحرير على هذه القوى إنهاء عصر الاستعمار المباشر "القديم"، ولانكاد نجد دولة

واحدة من هذه قد نجت من مشكلات قضية المواطنة الناجمة عن رسم الحدود السياسية، ويكفي أن نستحضر مناطق التخوم في هذه الدول لنرى حدة هذه المشكلات، وما أكثر بؤر التوتر الناجمة عنها، وها نحن نشهد استمرار أزمة كشمير في القارة الهندية وأزمة جنوب السودان وأزمات أخرى مماثلة في دائرتنا العربية التي يعاني مواطنو دولها من أمور تتصل بقضية المواطنة، فيما يتعلق بالتنقل والإقامة والعمل.

والأمر المتوقع – وهذا هو واقع قضية المواطنة في مجتمعات عالمنا المعاصر– أن يعنى بها المؤمنون بالله مسلمون ومسيحيون في لقاءاتهم وحواراتهم ويتعاونون على حل مشكلاتهم، وذلك لأن في هذه القضية بعداً دينياً يتعلق بدائرة الانتماء الديني أولاً، ولأن إيمانهم بالله سبحانه يوجههم إلى قيم روحية تحكم تعاملهم معها، لقد جاء ظهور مصطلح المواطنة في دائرة الحضارة الغربية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، مع رسوخ فكرة (الدولة – القومية) وإنشاء العلمانية بعد تفجر الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وكان الإغريق القدماء استخدموا هذا المصطلح الذي حمل مفهومهم وضعاً حقوقياً وسياسياً مرتبطاً بالمقام الجغرافي والمدينة الدولة، وقد ترجم الفرنسيون كلمة Politia اليونانية بـ Citoyennete وترجمها الإنكليز بـ Citizenship، وكانت أقوام أخرى قديمة قد عرفت مفهوم المواطنة، ومن هؤلاء الفينيقيون والكنعانيون، حسبما ذكر ديودروس وأرسطو في كتاب "السياسة"[1].

---

[1] – هيثم مناع، المواطنة في التاريخ العربي الإسلامي، مركز القاهرة لحقوق الإنسان.

وفي الواقع فقد أخذ هذا المصطلح في الغرب الحديث وضعاً قانونياً يميز المواطن عن الأجنبي غير المواطن، جرى التعبير عنه بكلمة Nationality التي اشتقت من Nation، وحين انتقل مصطلح المواطنة الغربي إلى اللسان العربي اشتقت الكلمة من "الوطن"، وهو "موطن الإنسان ومحله المنزل الذي يقيم به" بينما تمت ترجمة مصطلح الوضع القانوني Nationality "بالجنسية" التي شاع استخدامها، وهي كما هو واضح مشتقة من جذر "الجنس" الذي من معاينه التمييز بين الذكر والأنثى، والترجمة الحرفية للكلمة هي "الأمية" أو"الجماعية"[1].

يمكننا في ضوء ما سبق تعريف "المواطنة" بأنها رابطة بين الفرد وجماعة ما تقوم على انتماء لدائرة أوأكثر من دائرة، كما يمكن تعريف "الجنسية" بأنها تعبير قانوني عن المواطنة، ويستخدم الأمريكيون كلمة Citizenship للدلالة عليها، وقد عرفتها موسوعة كوليير بأنها "أكثر أشكال العضوية في جماعة سياسية اكتمالاً"، فالمواطن "مدين بالولاء لدولته، ومحل محددات تتعلق بالعمر والجنس وشروط أخرى، وهو يملك حقوقاً مدنية وسياسية كاملة" لايتمتع بها "الأجنبي".

وهكذا تبرز العلاقة بين المواطنة والجنسية، فالذين تواطنو في مكان واحد وأقاموا فيه جيلاً من الزمن يحملون جنسية واحدة وينتمون إلى وطن واحد، أسبغ عليهم هذه الجنسية، وكلا المصطلحين يشير إلى علاقة فرد بدولة وليس بفرد آخر، ويحكم هذه العلاقة "عقد اجتماعي" بين الفرد والدولة، وهكذا يرى البعض أنه بفكرة الموطنة جرى تحرير الفرد

---

[1] – د. الدجاني: مسلمون ومسيحيون ص٦٩.

في الغرب من التبعية لفرد آخر كما كان الحال في عهد الإقطــاع فــي العصور الوسطى هناك، وأصبحت تبعية الفرد للدولة[1].

يلاحظ الباحثون في قضية المواطنة أن قوانين الجنسية تتباين في عالمنا، وقد قررت معاهدة لاهاي في ١٩٣٠/٤/١٢م أنه "يعود لكل دولة أن تحدد تشريعاتها الخاصة من هم وطنيوها، وأن هذه التشريعات فقــط لها الحق في تحديد ما إذا كان الفرد من رعايا الدولة أم لم يكن".

وهكذا جرى اعتماد حق الدم أحياناً وحق الأرض أحياناً، ووجدت أشكال من الجنسيات مكتسبة وممنوحة وشرفية..الخ.... وتأثرت قــوانين الجنسيات بالخصوصيات الثقافية – الاجتماعية، وتحكمت فيها مصــالح "فتقولبت في نطاق حركية مصلحية"، على حد تعبير ماكس فيبــر، وقــد رفضت الكيانات التي قامت على الاستعمار الاستيطاني اعتماد حق الدم وحق الأرض لأهل البلاد الأصليين في منح المواطنة، وأطلقت عليه اسم indigene بالفرنسية، وهذا شأن الكيان الإسرائيلي الصهيوني الذي أقر "مبدأ العودة" لكي يهودي بقانون وجعل "اليهوديــة" المرجــع الأساســي لمفهوم الجنسية في الغالب.

ويرى بعض الباحثين أن الجنسية تتضمن في طياتهــا "إغلاقــاً" يحدد تخوم المشاركة في الفعاليات الاجتماعية أوينفيهــا، فهــي تخــرج "الأجنبي" من دائرة المواطنة "وتهمشه" وتحرمه من حقوق أقرها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولكنها من جهة ثانية تمنح المواطن هذه الحقوق والمشاركة في صنع حياة المجتمع، وهناك دول تجعل "المواطنة" درجات

---

[1] – د. الدجاني: المرجع السابق ص٩٧.

وتميز بين جنسية الدولة الممنوحة لفئة وجنسيتها الممنوحة لفئة أخــرى، فلا تتساوى حقوق المواطنين[1].

إن واقع قضية المواطنة في مجتمعات عالمنا المعاصــر جعلــت كثيراً من التساؤلات تطرح بشأنها في الدوائر الثلاث على السواء، دائرة الدولة الواحدة ودائرة الحضارة الواحدة، ودائرة العالم الواحد، ومن بــين هذه التساؤلات:

هل يكون الأصل هو المساواة التامة بين جميع المــواطنين فــي جميع الحقوق والواجبات في الدولــة الواحــدة؟.. ألا يعنــي أن تأخــذ "المواطنة" في الاعتبار حقيقة الانتماء لدائرة حضارية واحدة؟.. وكيف؟.. هل يمكن الارتكاز على مفهوم المواطنة لتنظيم العلاقات بين المجتمعات في عالمنا وتطبيق الإعلان العالمي لحقوق الإنســان؟.. وكيــف يمكــن التوفيق بين النظرة القطرية الضيقة والنظرة الدولية الرحبة؟..

وهناك تساؤلات أخرى تطرح حول معيار المواطنة ومــن ثــم الجنسية أهو عنصر الدم أم عنصر الأصل أم عنصر الدين أم مجموعــة العناصر الثلاثة؟.. وحول طابع الجنسية، أهــو قــانوني أم سياســي؟.. وحول تنويع درجات المواطنة والجنسية، أهــي تأسيســية أم أصــلية أم مكتسبة؟..

وهناك تساؤلات حول سياسة التعامل مع التشــريعات الخاصــة بالمواطنة وبالجنسية، فهل يجب التشدد في منح الجنسية أم التساهل؟..

---

[1] - أحمد حمد، فقه الجنسيات، ١٩٨٦م، هيثم مناع، المواطنة في التــاريخ العربــي الإسلامي.

لعل من أهم النقاط التي تتضمنها هذه التساؤلات نقطة العلاقة بين العقيدة الدينية والهوية الوطنية، فهذه العلاقة، كما يقول جون تايلور في بحثه عنها في البلقان – التي اتسمت بالاختلاط وبالعنف أحياناً – "كانت أحد عوامل الشعور بالحرمان من حق شرعي في البلقان وخاصة في أقطار يوغوسلافية السابقة التي برزت فيها محاولات سياسية لمعادلة جنسية ما بالأرثوذكسية أوبالكاثوليكية أوبالإسلام".

وتشغل علاقة الدين بالمواطنة بال مفكرين وسياسيين مسلمين ومسيحيين[1] في دائرتنا العربية اليوم، كما شغلت أجيالاً سابقة منهم طوال القرنين الماضيين، ويشرح طه جابر العلواني أسباب هذا الانشغال في بحثه "حول فكرة المواطنة في المجتمع الإسلامي" قائلاً: "لقد مثّل موضوع "المواطنة" جزءاً من مشكلة "الهوية" والمفاهيم المختلفة التي ارتبطت بها منذ بدء احتكاكنا الفكري والثقافي والسياسي والعسكري بالغرب في القرن الماضي، وإذا كانت المسألة قد حسمت على صعيد الواقع منذ أن تمزقت الدولة العثمانية، وتحولت أشلاؤها العربية وغيرها إلى دول وحكومات قومية وإقليمية، فإن المسألة لم تنته على المستوى الفكري والثقافي، بل بقيت سؤالاً كبيراً يطرح بشكل تحد أحياناً وبشكل عذر أوذريعة أحياناً، كما يطرح بشكل تساؤل أحياناً، وأياً كان الشكل الذي يطرح الموضوع به، فقد بقي موضوعاً شديد الحساسية كبير

---

[1] – جون تايلور، الإيديولوجية الدينية والهوية الوطنية في البلقان، دراسات إسلامية ١٩٩٧/٣م.

John Taylor, Religious Ideology and national Identity in Balkans Islamic Studies 3/1997.

الخطر، حتى إذا بدأت مظاهر الشيخوخة والكبر والفشل تبدو على قواعد الدول القومية والدول الإقليمية الوطنية في بلاد المسلمين بدأ البحث يشتد حول صيغ جديدة للهوية والانتماء، وأفضل أساليب تنظيم العلاقات من شعب كل قطر من ناحية والحكومات المهيمنة على مقدراتهم حزبية كانت أوعسكرية أوغيرها من ناحية أخرى، وتضاعف حجم ذلك السؤال كثيراً ونما بشكل هائل".

كما يعرض غسان سلامة لهذه العلاقة في بحثه "نحو عقد اجتماعي عربي جديد، بحث في الشرعية الدستورية"، ويشير إلى كثرة أعداء الفكرة الوطنية المتصلة بقضية المواطنة، في أوساط التيارين الإسلامي والقومي، وذلك في معرض دعوته لأن يقوم هذا العقد الاجتماعي على خمسة أركان، هي الفكرة القومية والفكرة العربية والفكرة الديمقراطية وحقوق الأفراد والجماعات ومضمون اجتماعي، وأمثلة أخرى كثيرة فيما صدر عن هؤلاء الباحثين[1].

تطور قضية المواطنة في الدائرتين القومية والحضارية

عنى الفكر في الدائرة العربية ودائرة الحضارة العربية الإسلامية بقضية المواطنة هذه منذ انتقلت من دائرة الحضارة الفكرية إليهما، وطرح المفكرون فيها إجابات عن التساؤلات التي برزت في إطار هذه القضية، وقد تتبع طارق البشرى في كتابه "المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية" تاريخ الأفكار التي جرى طرحها منذ عهد محمد علي

[1] – د. الدجاني: المرجع السابق ص١٠٠.

في مصر، وفصّل الحديث عن العلاقة بين العقيدة الدينية، والهوية الوطنية في أحد فصول الكتاب الذي صدر مستقلاً بعنوان "بين الجامعة الدينية والجامعة الوطنية في الفكر السياسي" فدولة محمد علي التي قامت في مصر وحظيت بنوع من الاستقلال في إطار الدولة العثمانية بدأت بتمصير الجيش عام ١٨٢٢م، وأبقت للأقباط المسيحيين المصريين دورهم التقليدي في إطار شؤون المالية العامة للدولة، وحين قام أول مجلس نيابي في "الخديوية" في عهد الخديوي إسماعيل عام ١٨٦٦م نص على أن كل مصري بلغ الخامسة والعشرين من عمره يمكن ترشيحه، يستوي في ذلك الجميع مسلمين ومسيحيين، ويهوداً، بلا تفرقة على أساس الدين، وقد أوضح رفاعة الطهطاوي ي كتابه "مناهج الألباب" عام ١٨٦٩م، أن الوحدة الوطنية تشمل الملل المختلفة، وتقوم على الاتحاد في اللسان والحاكم، كما أوضح أن هناك أخوة عامة تمليها العبودية لله ويترتب عليها التساوي في الإنسانية، وأخوة إسلامية يمليها الدين الإسلامي، وهكذا جرى إقرار الجامعة الوطنية بغير عراك مع العقيدة الدينية، ونجد في الفترة نفسها أن البطريرك مرقس وجه رعيته من الأقباط إلى التمسك بهذه الجامعة، وهاجم التغريب الذي تفشى في أوساط قبطية بفعل الغزوة الفرنسية، كما نجد أن الكنيسة القبطية قاومت التبشير الأمريكي البروتستانتي الذي نشط في القرن التاسع عشر مستهدفاً الأقباط والمسلمين على السواء[1].

فرضت قضية المواطنة نفسها في الدولة العثمانية في النصف

---

[1] – د. الدجاني: المرجع السابق ص١٠١.

الثاني من القرن التاسع عشر، وجاء الخط الهمايوني عام ١٨٥٦م بعد خط شريف كولخانة عام ١٨٣٩م، ليقرر مبدأ المواطنة لجميع العثمانيين على اختلاف مللهم، ودار حوار غني في ديار الإسلام عموماً حول القضية برز فيه تيار اتخذ موقفاً يغلب عليه رد الفعل الرافض تحسباً من نفاذ قوى الهيمنة الغربية من خلال قوانين "المشروطية" كما برز تيار أقوى حرص على التواؤم مع هذا الجديد وتأصيله دينياً، وقد حكى الشيخ رشيد رضا أن الشيخ محمد عبده كان يرى القضية الوطنية عبارة عن تعاون أهل الوطن الواحد لمختلفي الأديان في كل مافيه عمرانه وإصلاح حكومته، وإن الإسلام لايعارض في شيء من ذلك كما يثبته شرعه في العدل والمساواة، وأن السيد جمال الدين الأفغاني كان يرشد تلاميذه وحزبه السياسي إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر، وكان حزبه مؤلفاً من أذكياء الملل المختلفة، ومن الذين عبروا عن هذا التيار عبد الله النديم في صحيفته "الأستاذ"، قائلاً: "المسلمون والأقباط هم أبناء مصر الذين ينتسبون إليها وتنتسب إليهم"[1].

استمرت قضية المواطنة مطروحة في أقطار الدائرة العربية، ودائرة الحضارة العربية الإسلامية بعد انهيار الدولة العثمانية وانتهاء نظام الخلافة عام ١٩٢٤م، وقيام الدولة الحديثة في هذه الأقطار وفق أنموذج "الدولة الوطنية" وإذا كانت هذه الدول قد تبنت الفكرة قانونياً وعملياً على صعيد الواقع، إلا أن القضية بقيت مطروحة على الصعيد الفكري، وحفلت الممارسة بما كان يثيرها، وهكذا رأينا الحوار يستمر

---

[1] – طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق.

والكتابات تتالى حول القضية، ونذكر كيف شدّ هذا الحوار كثيرين حوالى منتصف هذا القرن حين أصدر خالد محمد خالد كتابه "من هنا نبدأ" الذي نادى فيه بوطنية الحكم وهاجم الحكومة الدينية، فرد عليه محمد الغزالي بكتابه "من هنا نعلم" مفنداً، وأصدر عبد المتعال الصعيدي كتابه "من أين نبدأ" الذي حاول فيه التوفيق بين الانتماء الوطني والانتماء الديني، "فالإسلام لايمنع المصري المسلم مثلاً أن يعتز بمصريته مع اعتزازه بإسلامه وأن يذكر مفاخر المصريين مع ذكر مفاخر سلفه من المسلمين"، "إن لكل مسلم جنسيتين، جنسية عامة يشاركه فيها جميع المسلمين،وتعد بالنسبة لهم جنسية واحدة، وإن كانت مجتمعة في شعوب مختلفة، وجنسية خاصة قد يشاركه فيها غير المسلم كالجنسية المصرية ونحوها من الجنسيات وكذلك لكل مسلم وطنان...".

والحق أن محاولة التوفيق هذه كان لها ما يبررها، وإن جاء الحديث عن الجنسيتين ينقصه الوضوح والتحديد، وقد دعا هذا الحوار إلى الخاطر المعركة التي أثارها في النصف الثاني من العشرينات صدور كتاب على عبد الرزاق "الإسلام ونظام الحكم".

دخل الحوار حول قضية المواطنة مرحلة جديدة في النصف الثاني من القرن العشرين في منطقتنا، وشارك فيه كثيرون في الدائرة الوطنية والدائرة القومية والدائرة الحضارية، وأقرت في مجراه ومضمونه أحداث وقعت ومسائل جرى طرحها، فقيام دولة باكستان مثلاً بعد تقسيم الهند طرح مسألة دين الدولة والحكم بالإسلام، ومكان غير المسلمين في الدولة، وبروز فكرة المواطنة القومية وظهور الصحوة الدينية طرح مسألة المواطنة والأخوة الدينية والحضارية، كذلك فإن الممارسة العملية للمواطنة القطرية أثارت مسألة مساواة الذكر والأنثى

في المواطنة، وخاصة في أمر النساء المتزوجات من غير جنسيتين ووضع أولادهن.

ويمكننا أن نلاحظ في هذا الحوار الدائر حول قضية المواطنة عدة موضوعات حيوية يجري تناولها وتتطلب معالجة، الأول منها هو وضع غير المسلمين في دولة وطنية غالبيتها من المسلمين، والثاني هو وضع عرب مسلمين ومسيحيين في دولة وطنية عربية غير القطر الذي ينتمون إليه، والثالث وضع مسلمين من غير العرب في دولة وطنية عربية ترفع شعار الإسلام، والرابع وضع أبناء مواطنات في دولة وطنية مسيحيات ومسلمات متزوجات من جنسيات أخرى كثيرة هي الكتب التي صدرت حول قضية المواطنة في هذه المرحلة، وقد حظي الموضوع الأول بنصيب وافر منها، لأنه يتصل بقضية نظام الحكم بالإسلام ويدخل في الحوار الدائر حولها في ديارنا، وهو موضوع شبهة يوجهها غربيون للإسلام، كما حظي الموضوع الثاني بعناية التيار القومي، وحظي الموضوع الثالث بعناية التيار الحضاري الذي يستشعر أهمية الدائرة الحضارية، وحظي الموضوع الرابع بعناية كثيرين من مختلف الاتجاهات الفكرية واستشعروا المعاناة منه.

ولايتسع مجال هذا الحديث لتفصيل ماتضمنته هذه الكتب، وقد عرض طارق البشري للكثير منه في كتابه، كما عني إدوارد غالي الذهبي في كتابه "معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي" باستعراض بعض هذه الأفكار، ونشير إلى ماصدر عن المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية "مؤسسة آل البيت" في الأردن عن معاملة غير المسلمين في الحضارة الإسلامية، والملاحظ أن جل هذه الكتابات أكدت على تكريم الإسلام بني آدم واحترام حقوق الإنسان، واستشهدت

بصحيفة المدينة لتدلل على المساواة في هذه الحقوق بين جميـع الملـل، وقدمت رؤية عصرية لمصطلح "أهل الذمة" ولموضوع تأديتهم "الجزية" وقررت احترام المواطنة.

ولقد لاحظ محمد سليم العوا – بحق – فـي كتابـه "فـي النظـام السياسي للدولة الإسلامية" أن بعض من تعامل مع قضية المواطنة اعتمـد منهجاً إيجابياً متابعاً الاجتهاد، ولكن في أضيق الحدود، وأوضح أن أصولاً ثلاثة تحكم التعامل مع هذا الموضوع، هي تحكـيم نصـوص الشـريعة الواردة في القرآن الكريم، وقبول ما تقتضيه المشاركة في الدار أو الـوطن بتعبيرها العصري، وإعمال روح الأخوة الإنسانية بدلاً من إهمالها[1].

المواطنة ودوائر الانتماء من وجهة نظر إسلامية:

في معالجتنا لقضية المواطنة في المجتمع المعاصر، في ضـوء نشأة هذه القضية وتطورها، نركز النظر على علاقتها بـدوائر الانتمـاء للفرد في هويته الواحدة، فهذا الفرد يولد في "ديار" هي "موطنه" لم يختره لنفسه، ولكنه يجد نفسه منتمياً إليه، وهو يشترك مع آخرين ولـدوا فـي الديار فأصبحت العلاقة بالموطن علاقتهم جميعاً، "فهم مواطنون في وطن مشترك تربطهم به علاقة مشاركة تاريخية، كما يقولون، تعبيراً عن أنها ناتج متطور طويل، وليست من إنشاء إرادة منفردة وقتية"، على حد قول عصمت سيف الدولة في كتابه "عن العروبة والإسلام"[2]، فدائرة الانتمـاء

---

[1] – محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق.

[2] – عصمت سيف الدولة، عن العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية.

إلى "الديار" "الوطن" بالغة الحيوية في تحديد "المواطنة" وواضح أن الدولة الوطنية القطرية أخذت هذه الحقيقة في الاعتبار في معظم الأحيان - باستثناء كيانات الاستعمار الاستيطاني العنصري التي حصرت المواطنة في فئة معينة أوجعلتها درجات حسب "العنصر" المعتمد.. ويستوي في هذه المواطنة القطرية أبناء جميع الملل والأقوام، باستثناء مقيمين وافدين لم تكتسبوا جنسية الدولة.

إن الإسلام يعترف بدائرة الانتماء هذه ويحترمها ويذود عنها، وقد تحدثت عدة آيات كريمة عن "الديار" واعتبرت الإخراج منها مبرراً لقتال المعتدين، وحفلت السيرة النبوية بالشواهد على محبة الوطن، وعلى تنظيم العلاقة بين أهل الوطن الواحد، كما تجلى ذلك في الصحيفة، وهذا ما دعا كثيراً من المفكرين المسلمين إلى أخذ هذه الدوائر في الاعتبار في قضية المواطنة، وجعلتهم يعلنون اتساع الإسلام لقبول مفهومها، ومن هؤلاء راشد الغنوشي.

ولذا فإن القول بأن "مشكلة المسلمين مع الإسلام كانت منذ البداية أنه دين أيديولوجيا بغير جغرافية، تهمة هوية الأرض أكثر مما تهمه الأرض" لاتصدقه الآيات الكريمة ولا السيرة النبوية ولامجرى حركة تاريخ الحضارة الإسلامية، واعتماد غسان سلامة هذا القول للتدليل على أن الإسلاميين يعادون الفكرة الوطنية بدافع أيديولوجي أمر يستوجب إعادة النظر، وملاحظة أن العصبية التي تحدث عنها ابن خلدون واستشهد بها الباحث للتدليل على رأيه، هي ثمرة نسب ووطن[1]، فالنسب

---

[1] - غسان سلامة، نحو عقد اجتماعي عربي جديد، مركز دراسات الوحدة العربية.

الواحد يرتبط بموطن واحد في الأصل، ومن هنا فإن أية معالجة لقضية المواطنة في المجتمع المعاصر يجب أن يأخذ في الاعتبار دائرة الانتماء إلى "الديار" "الموطن"[1].

هناك دائرة الانتماء إلى "الأمة" الواحدة بشعوبها في وطنها الكبير الذي يضم "مواطن" الأقطار وأراضي الدول الوطنية القطرية، فالفرد المنتمي لموطنه يستشعر انتماء لهذه الدائرة القومية الأوسع، ويقوى هذا الاستشعار مقترناً بشعور من المرارة حين تكون التجزئة مفروضة على هذا الوطن الكبير.

وتقوم بين الأجزاء حدود سياسية، ومثل على ذلك انتماء الفرد العربي الناطق باللسان العربي مسيحياً كان أومسلماً للعروبة، وهذه العروبة كما قال عصمت سيف الدولة "علاقة انتماء إلى وضع تاريخي يدرك العربي منذ مولده وتصاحبه حتى وفاته، ولو لم يكن مميزاً، ولو لم يدركها، ولو كفر بها".

وقد توقف جيمس كريج James Craig أمام هذا الانتماء للعروبة في محاضرته "ماذا يكون العربي؟ What is an Arab وهو الدبلوماسي البريطاني الذي عمل في عدة دول عربية، ثم عين مديراً عاماً لمنظمة الشرق الأوسط في بلاده وحاضر في أكسفورد، وفي محاولته الإجابة عن السؤال: مَنْ العربي؟؟ لاحظ أن هذا السؤال اوانصرف إلى فرد بريطاني أوأمريكي لجاء الجواب سهلاً بالقول: "هو من له الحق حمل جواز بريطاني أوأمريكي، ولكن لايوجد شيء اسمه الجواز العربي"، وأوضح

---

[1] – د. برهان زريق: الوطن في الإسلام، دمشق، دار معد، سنة ١٩٩٦ ص٢١٥.

أن التحديد الذي لاقى قبولاً هو أن العربي هو شخص ما اعتبر نفسه عربياً، ووقف أمام سمات العرب والمجتمع العربي فلاحظ "أن أولى خصائصه التي هزتني إدراك العربي الثابت لانتمائه العربي ولعروبته، فالعرب فريدون في كونهم موزعين في عشرين قطراً أوأكثر لكل منهم جنسيته، ولكن كلاً من هذه الأقطار فيه غالبية من المواطنين الذي يشعروه بالولاء لعروبتهم مثل ولانهم لوطنيتهم القطرية أوأكثر"، وعلل ذلك بحداثة الدول العربية التي يعود قيامها إلى هذا القرن، وإلى أن للعرب تاريخاً واحداً متصلاً عبر قرون، وهذا ما جعل المعجم السياسي يستخدم كلمة "القومية" للدلالة على هذا الانتماء إلى جانب كلمة "الوطنية" للدلالة على الانتماء لدائرة الدولة القطرية[١].

إن الإسلام يعترف بدائرة الانتماء "القومي" هذه ويحترمها ويذود عنها، فالله سبحانه خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل، مختلفة ألسنتهم وألوانهم – آية من آياته – فكانت "الأقوام" ومن ثم "القوميات" وقد أعطت "الصحيفة" في تنظيمها مجتمع المدينة مثلاً للتنوع في الوحدة، وحفلت صفحات تاريخ الحضارة العربية الإسلامية بأمثلة على إدراك العلاقة بين الانتماء القومي والانتماء الديني في السلم والحرب، على السواء، ومن ذلك موقف العز بن عبد السلام المقاوم للغزو المغولي التيمورلنكي، رغم كون الغزاة يدينون بالإسلام، ومثله

---

١ – جميس كريج، محاضرة ألقيت بتاريخ ١٨/١١/١٩٩٦م في منظمة الشرق الأوسط – إنكلترا، بعنوان "ماذا يكون العربي؟".

James Craig, What is an Arab? Middle East Association, England.

موقف كثير من المسيحيين الأرثوذكس الرافض للغزو الفرنجي الذي رفع شعار الصليب، والرأي الغالب في فكر التيار الإسلامي المعاصر.

يؤكد هذا الاعتراف بدائرة الانتماء القومي، وبتكاملها مع دائرة الانتماء الديني، ومثل على ذلك ما كتبه يوسف القرضاوي عن العروبة والإسلام، وهذا شأن الرأي الغالب في فكر التيار القومي المعاصر، ومثل على ذلك ما كتبه عمصت سيف الدولة في الموضوع نفسه، وقد تجلى اللقاء بين هذين التيارين في توافقهما على تأسيس المؤتمر القومي – الإسلامي الذي ضم عرباً مسلمين ومسيحيين من التيارين، ولكن لاتزال هناك قلة في التيارين أسيرة اصطناع تناقض بين الانتماء القومي والديني ارتفع صوته في الخمسينات، وهي تعمد إلى إنكار أحد الانتماءين للتأكيد على الآخر مغفلة تكاملهما، وواضح أنها تؤثر سلبياً في قضية المواطنة وخاصة أنها تعمد إلى خطاب يتصف بالمغالاة والحدة، ولافت أن الرأي الغالب يشق طريقه قدماً بما يتصف به من علمية ووسطية[1].

لابد من أخذ دائرة الانتماء القومي في الاعتبار في قضية المواطنة، سواء عند سن قوانين المواطنة في الدولة الوطنية القطرية، أم في روحية تطبيق هذه القوانين، ويلاحظ أن جل دساتير الدول العربية تنص على الانتماء للأمة العربية، إلا أن أكثرها لم يقنن مبدأ المواطنة العربية، وقد دعا الدكتور الدجاني إلى هذا التقنين في كتابه "عن شعب فلسطين العربي"، و"وحدة التنوع"، وتحفل قرارات صادرة عن جامعة الدول العربية بما يساعد على هذا التقنين، ولكنها لم تأخذ طريقها إلى

---

[1] – د. الدجاني: المرجع السابق ص١٠٩.

التطبيق في غالب الأحيان، كما حدث في دوائر قومية أخرى في عالمنا في أوروبا وأفريقيا، وهناك خطوات محدودة تم اتخاذها على هذا الصعيد في مجلس التعاون الخليجي تستحق التشجيع، وواضح أن تأخر تقنين هذا المبدأ في الدول العربية يجعل أي عربي يحل في دولة عربيــة أخـرى لايحمل جنسيتها "أجنبياً" لأن "الأجنبي" في القانون المصري مثلاً هو كل من لايتمتع بالجنسية المصرية، حسب قانون /٨٩/.

ولاشك في أن المؤمنين بالله من المسيحيين والمسلمين يسـتطيعون التعاون معاً في توظيف حقيقة الانتماء القـومي إيجابيـاً وحمايتـه مـن الاستعلاء الذي يشوهه، باستحضار قيم الأخوة الدينية الإنسانية، وقد لاحظ جون تايلور – بحق – في بحثه عن البلقان أن القومية التي يمكن أن تكون تآلفاً نبيلاً للقلوب، يمكن أن تتشوه أحياناً بالاستعلاء، واستشهد ببيان وفـد علماء الأديان الذين زاروا البلقان في ١٩/١٠/١٩٩٤م، وقد جاء فيــه أن الهوية القومية يجب ألاتعني قومية متعصبة ضيقة، وأن الوحدة عبر التنوع ضرورية وممكنة للأمم والأديان، وأنه لابد من التعاون بـين المـؤمنين لإيجاد قوى محركة لربط صحيح بين الدين والقومية[١].

هناك أيضاً دائرة الانتماء إلى "الدين" ومن خلاله إلى "الحضارة" والصلة بين الدين والحضارة وثيقة، فالفرد منذ أن يولد ينتمي لدين والديه وقومه، ويتمثل في ترعرعه تعاليم هذا الدين، ولايلبث أن يـدرك أنـه ينتمي لحضارة أسهم الدين في ازدهارها، تجمعه مع آخرين مــن ملـل أخرى وأقوام آخرين في دائرة واحدة لها قيمها وإنجازاتها وتاريخها الذي

---

[١] – د. الدجاني: مسلمون ومسيحيين ص١١١.

أسهم الجميع فيه، فابن الحضارة الغربية مثلاً من أي قطر أوروبي كان أو الولايات المتحدة الأمريكية يستشعر انتماءه لمعتقده ولهذه الحضارة، والأمر نفسه بالنسبة لابن الحضارة العربية الإسلامية التي شارك مؤمنون من ملل عدة وأقوام عدة في ازدهارها، وقد لاحظ جيمس كريج في حديثه عمن هو العربي أن الخاصة الثانية للمجتمع العربي بعد خاصية العروبة هي استشعار أهمية الإسلام، لأن القرآن نزل بالعربية على نبي عربي، كما لاحظ قوة هذا الاستشعار رغم ما تعرض له الإسلام من محن وهجوم، ولفته بقوة أن المسيحيين العرب يشاركون إخوانهم المسلمين هذا الاعتزاز بالإسلام تاريخاً وحضارة، وأورد استشهادات عدة للتدليل على هذه الخاصية من أقوال مسيحيين عرب من مختلف الشرائح خاصة وعامة.

والحق أ ن عدداً من المفكرين والباحثين العرب المسيحيين المعاصرين شرحوا هذا الانتماء لحضارتهم العربية الإسلامية[1]، وقد كتب قسطنطين زريق في "الوعي القومي" عام ١٩٣٨م، أن واجب كل عربي بصرف النظر عن معتقده الديني أن يدرس الإسلام وتاريخ النبي محمد من جهة أنه موحد العرب وجامع شملهم، كما كتب آخرون عن اعتزازهم بالإسلام حضارياً، ومنهم الأب جورج قنواتي، وفي كتابه "عن العروبة والإسلام"، أبدع عصمت سيف الدولة في شرح لقاء المسلمين والمسيحيين على قيم هذه الحضارة، وخاصة معيار الحلال والحرام فيها، وأوضح أن

---

[1] – إداورد غالي الذهبي، معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة غريب، كريم بقردوني وكريم مروة، "الوطن الصعب، الدولة المستحيلة" دار الجديد.

الانتماء الديني قد يتعدد في أمة واحدة دون أن يمس هذا التعدد وحدة الأمة، مستشهداً بعشرات الآيات في القرآن الكريم.

إن الإسلام يعترف بالانتماء لهذه الدائرة الدينية الحضارية، ويحث على تآخي الشعوب والأمم في إطارها أقواماً متحابين وملأ، متعارفين متعاونين على البر والتقوى، يستبقون الخيرات، وقد أثمر هذا الانتماء حيزاً كثيراً في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وكان للمسيحيين إسهامهم بنصيب وافر فيها، وخاصة أتباع الكنيسة الأرثوذكسية التي تميزت منذ نشأتها بصرامة التزامها بتعاليم السيد المسيح عليه السلام وانتمائها لهذه الحضارة، على حد وصف عصمت سيف الدولة لها[1].

ينبغي أخذ الانتماء لهذه الدوائر في الاعتبار عند معالجة قضية المواطنة، وقد تنبهت الدول الأوروبية الغربية لهذا الأمر بعد أن عانت الأمرّين من إغفاله لعدة قرون اكتوت أثناءها بحروب نفخ فيها الاستعلاء القومي، وهكذا اتجه الاتحاد الأوروبي إلى تقنين المواطنة الحضارية الأوروبية في اتفاقية ماستريخت، والحاجة ماسة إلى تقنين المواطنة الحضارية في الدائرة الإسلامية، ولمنظمة المؤتمر الإسلامي دور ينتظرها على هذا الصعيد.

وبعد.. فإن قضية المواطنة في المجتمع المعاصر سوف تبقى مطروحة تستنفر مزيداً من الجهود لمعالجتها بحيث تنسجم مع مختلف دوائر الانتماء في الهوية الواحدة، وواضح أن مانجم عن ثورة الاتصال من آثار على صعيد التواصل بين المجتمعات وإدراك كل مجتمع لذاتيته،

---

[1] - د. الدجاني: المرجع السابق ص١١٢.

سوف يحث على معالجة لها تجمع ما تتطلبه المساواة بين بني الإنسان، وما يتصف به المجتمع من سمات تعود إلى ما فيه من أقوام وملل، وما يتطلبه التوجه نحو تعاون الحضارات في عالمنا.

وواضح أن ظاهرة العولمة التي نراها اليوم في العالم بما تتضمنه من فرض قسري يستثير الخصوصية الثقافية للمجتمعات، سوف تستنفر المؤمنين بالله ليعملوا معاً لاحترام حقوق الإنسان والحفاظ على ذاتيته وصيانة هويته[1].

الوطنية على أرض الكنانة أنموذجا ورمزا

وفي الحقيقة لقد اخترنا التجربة المصرية نظراً لخصوصيتها وغناها الروحي وعمقها وحجم المودة والعطاء فيها.

لقد كثرت الأقلام التي تناولت هذا الموضوع، وفي ذلك يقول المفكر الأستاذ وليم سليم قلادة، وفي هذه الظروف أمكن الشعب المصري أن يبدع أسلوب حياة لايستبعد فيه مطلقاً آخر، وأتيحت فرصة لهذا التعايش أن يستمر وأن تتأصل جذوره بل وأن يواصل تطوره إلى مزيد من الامتزاج والوحدة بين مكونات الشعب ومن ثم:

أولاً: تزايد اقتناع الشعب، مع تواصل حركته الوطنية والدستورية، بعدم جدوى الجدال الديني.

ثانياً: رسخت مقومات الكيان المصري، مع تواصل التحديات الخارجية والداخلية اقتناع الجماعة كلها بضرورة – بحتمية – الانصهار

---

[1] – د. الدجاني: المرجع السابق ص١١٣.

معاً في وحدة حقيقية، تعني أن المواجهة في المجتمع لن تكون بين عقائد مطلقة، بل هي تعني أن أديان الجماعة تقف متجاورة متعاونة ملتحمة، تواجه كلها التحديات والمشاكل التي يتعرض لها المجتمع وتهدد بالخطر جميع مكوناته بلا استثناء كما أن ظروف الحياة الاقتصادية والإنتاجية والاجتماعية صنعت حياة مشتركة تلتحم فيها مكونات الجماعة وتتعاون.

ثالثاً: أفرز تعايش المطلقين والوحدة بين أتباعهما مساحة مشتركة من المفاهيم والقيم والأهداف يمكن أن يواصل في إطارها المصريون المسلمون والمسيحيون حياتهم في امتزاج يتطور إلى وحدة من خلال العمل المشترك: مفهوم الإنسان وكرامته وحقوقه، وحدة الجماعة، الاعتزاز بالوطن، الحرية، المساواة، العدل.... فصارت هذه المساحة المشتركة هي الخلفية المرجعية العامة لجميع أبناء مصر، ومن خلالها بزغ مفهوم المواطنة، وفي إطارها قام البناء الدستوري والسياسي.

هذه المساحة المشتركة ليست بديلاً عن الدين بل فهي:

أ - تتغذى في مضمونها من الدينين الإسلامي والمسيحي.

ب- تضمن الأصالة لكل مكوّن في مكونات الجماعة، وهو يؤدي دوره في مختلف مجالات العمل الوطني، أن يتمكن من أن ينسب هذه المساحة إلى نفسه وإلى تراثه دون تعارض مع الآخر أوتجاهل له.

ج- ثم إن هذه المساحة المشتركة تحثّ كلاً من مكوني الجماعة على أن يواصل ممارسته الدينية كاملة، بل إن هذه الممارسة هي التي تهيئ الشخص والجماعة الدينية للقيام بواجباتهما طبقاً لمفاهيم المساحة

المشتركة وقيمها وأهدافها، وهذه الممارسة حي التي تعبئ – وتنشط، طاقة الإبداع والمثابرة على مزيد من تطور المجتمع وتجاوز الواقع الراهن[1].

ومن ثمّ يكون المنهج العام لهذه الممارسة الدينية الإسلامية والمسيحية معاً هو أن الدين يساهم في تكوين الإنسان والإنسان يصنع العالم بعقله ووجدانه وإرادته.

وبناء على ذلك يكون هدف العلاقة بين الدينين – ليس استبعاد الآخر أواستيعابه ولكن بالأحرى، إبراز الركائز الفكرية المستمدة من الدين – أي من الدينين لدعم هذه المساحة المشتركة وتأكيد الرضا العام بالنظام الوطني – السياسي والدستوري المشيد على أرضها.

طرفا العلاقات- الكنيسة القبطية والإسلام

دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الأول الميلادي بواسطة القديس مرقس الرسول كاتب الإنجيل الثاني، ومنذ أن اعتنق المصريون المسيحية – التأم المؤمنون في جماعة منظمة هي "الكنيسة القبطية" أقدم مؤسسة شعبية في مصر، ومازالت مستمرة دون انقطاع طوال عشرين قرناً تقريباً – تؤدي مهمتها في كيان مستقل له التنظيم الرئاسي المكتمل والمكتفي بذاته داخل مصر.

كانت مصر وقتئذ ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية، وكان الانفصال القاطع بين الحكام والمحكومين – انفصالاً دينياً وطبقياً ولغوياً وحضارياً، واستمر الانفصال بعد أن ألحقت مصر بالقسم الشرقي

---

[1] – العلاقات الإسلامية – المسيحية، المرجع السابق ص٢٥٥.

البيزنطي من الإمبراطورية.

وعلى مدى ستة قرون كاملة تعرض المصريون للاضطهاد الشرس، ولكنهم خرجوا منه ثابتين على إيمانهم موحدين في كنيستهم، فلقد كانت هذه الكنيسة هي الحاضنة الوحيدة للوجدان والتطلعات المصرية، وفي هذا الحضن الرؤوف تعلم المصريون، وتربوا ومارسوا الكرامة والإخلاص، ولم ينسوا هذا الدرس قط في قابل أيامهم، بل حملوه في أعماقهم وديعة صالحة، بذرة طيبة ثمينة ولو تغير الانتماء الديني.

كانت الكنيسة مرادفاً لمصر، ورجالها هم المعبرون عن صوت مصر، وعبر قرون طويلة، كانت مصر ولاية مستعمرة تابعة لدولة عظيمة – ولكن لها كنيسة مستقلة، فقد أصبحت الكنيسة المصرية لدى المصريين رمزاً للاستقلال القومي في غياب استقلال سياسي حقيقي.

لذلك يكون من الطبيعي أن تستقر في الوجدان – العقل الجمعي المصري[1]، ويتابع الأستاذ الحديث عن اللقاء بين القائد عمرو بن العاص والبابا بنيامين ويمكن القول إن روح هذا اللقاء تمثل نقطة الانطلاق في مسار العلاقات بين أتباع الدينين، فالراوي الأول لوقائع هذا اللقاء هو ابن عبد الحكم القرشي المصري يقول: "كان في الإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو بنيامين، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم بأنه لاتكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو".

ويروي "ساويرس" الذي كتب بعد ابن عبد الكريم بحوالى قرن

[1] – وليم سليم قلادة: المرجع السابق ص٢٥٦.

من الزمان أن أحد رؤساء القبط عرف عمرو الأب المجاهد بنيامين البطرك وأنه هارب من الروم خوفاً منهم، فكتب عمرو بن العاص إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه الموضع الذي فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله، فليحضر آمناً مطمئناً ويدبر حال بيته وسياسة طائفته، فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاث عشرة سنة، فلما ظهر فرح الشعب وكل المدينة بمجيئه... وذهب ذلك الرئيس وأعلم عمرو بوصوله، حينئذ "أمر بإحضاره بكرامة وإعزاز ومحبة، فلما رآه أكرمه وقال لأصحابه، إن في جميع الكور التي ملكناها إلى الآن، ما رأيت رجل الله يشبه هذا، وكان الأب بنيامين حسن المظهر جداً، جيد الكلام بسكون ووقار، ثم التفت عمرو إليه وقال له: جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم.. وانصرف من عنده مكرماً مبجلاً.

وتقول سيدة إسماعيل كاشف أن عمر بن العاص لم يذكر في صلح بابليون الأول سوى الجزية، ولم يذكر شيئاً في ما يختص بلباسهم وزيهم، وما سيحدث من كنائسهم وغير ذلك مما أورده الماوردي وأبوسيف.

ولقد كانت سياسة عمرو الاقتصادية ترعى المحل الأول صالح "أهل الأرض" ولقد أطنب عبد الرحمن بن عبد الحكم مؤرخ الفتح في بيان اهتمام عمرو بن العاص بعمران مصر، وإنه لم يكن يرسل إلى الخلافة الخراج المطلوب إلا بعد اقتطاع ماتحتاج إليه البلاد من أجل حفر خلجانها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها، وذلك تنفيذاً لنصيحة بنيامين حين طلب منه عمرو أمثل السبل لعمران الديار المصرية، ويبدو هذا الحرص واضحاً في الرسائل المتبادلة بين الخليفة

عمر بن الخطاب والوالي عمرو بن العاص، إذ أرسل إليه الأول الرسائل الكثيرة مطالبه فيها بأن يرسل مزيداً من الخراج، فأجابه في اعتداد بالرأي وحرص على صالح "أهل الأرض".

ويتابع الأستاذ قلادة قوله: فإذا كانت المعارك الحربية قد انتهت – فما زالت هناك المواجهة في ميدان العقائد – فمن الطبيعي أن يحاول المسلمون من رجال الدين والفكر أن يواصلو الانتصارات الإسلامية بدحض عقائد الأديان الأخرى.

ومن الطبيعي أيضاً أن ينهض أصحاب هذه العقائد للدفاع عما يدينون به، يقول أحمد أمين: "كانت المناقشات الدينية بين المسلمين والنصارى، فقد فتح المسلمون البلاد كالشام والعراق وكانت مملوءة بالنصارى، فلما هدأت الحرب بالسيف بدأت الخصومة باللسان".

كان المسلمون يدعون إلى الإسلام فيضطرهم ذلك إلى ذكر الحجج والبراهين على صحة هذا الدين، فكان رؤساء النصرانية يقابلون الحجج بحجج، فنشأ من هذا الجدل كثير، وكثر ذلك في الدولة الأموية... واستمر الجدال بين المسلمين والنصارى في العصر العباسي...".

هذه هي المرحلة البدائية من العلاقة بين الإسلام والمسيحية، المرحلة الأولى، مرحلة "الجدال" العقائدي – المبدأ المهيمن فيها هو "الاستبعاد" المتبادل، كل طرف يقف على أرضه الخاصة – لايدلل على صحة عقيدته وحسب بل وإنه – إلى ذلك، يقيم الحجة على خطأ العقيدة الأخرى، ويفرز الاستبعاد نتيجته المنطقية وهي توجّه كل طرف – وفي المحل الأول الطرف الأقوى في الجدال، إلى "استيعاب" الآخر.

على أنه لابد للتعرف على هذه المرحلة من أن تؤخذ في الاعتبار عوامل عدة:

أ- وجود انفصال قاطع بين الحكام والمحكومين، سواء أفي دولة المركز أم على وجه الخصوص في الولايات - هذا الانفصال الذي تدعمه السلطة المادية والمفاهيم الفقهية يؤدي إلى إثبات المواقف في الجماعة، ولاتبدأ إمكانية تغير هذه المواقف إلا مع التغيير في كل مجالي الحكام أوالمحكومين، وسنرى متى وكيف تم ذلك؟.

ب - ولكن مع هذا الانفصال الذي تكرسه كتب الفقه السياسي - كانت الحياة المشتركة قائمة بين المسيحيين والمسلمين في إطار الدولة الإسلامية، سواء في مجال الإدارة الحكومية بمختلف فروعها، أم في مجال البحث والفكر والمعرفة، أم في النشاط الاقتصادي في العديد من مجالاته، يقول متز: "إن ما يميز المملكة الإسلامية عن أوروبا النصرانية في القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الإسلام، وليست كذلك الثانية، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا في القرون الوسطى، وقد خالط المسلمون اليهود والنصارى واتخذوا منهم أصدقاء".

ج -- حدثت أثناء هذه المرحلة حروب الفرنجة التي يعرفها الغرب باسم الحروب الصليبية، ومن الطبيعي أن تؤدي هذه المواجهة العسكرية الدينية إلى مزيد من الشقاق والجدال العقائدي الديني تعبيراً عن المواجهة العسكرة واستمراراً لها، ويتعين الإشارة هنا إلى موقف نصارى الشرق من هذه الحروب وعلى وجه الخصوص الموقف القبطي، فهنا كان أبناء البلاد صفاً واحداً في مواجهة المعتدي الوافد.

انطلقت في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر حركة مصرية لاختراق حاجز السلطة، وأدت إلى أن فرض المحكومون اسم

الحاكم الذي اختاروه: محمد علي: وتصاعدت قوة الحركة فتزايدت نتائجها في أيام خلفائه، وتواصلت حتى بعد الاحتلال البريطاني، وتبدّت خلال هذه المراحل المتتابعة وحدة مكونات الأمة في مواجهة القوى الأجنبية والحكم المطلق الداخلي، وعبّر الفكر الديني عن هذه المرحلة بمقولات صاغها السيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، ويمكن أن نسمي هذه المرحلة: "بداية اللقاء" بين الدينين، ويأتي الاحتلال البريطاني ليجهض هذه المرحلة بما فيها من زخم سياسي وفكري.

هكذا تأتي مرحلة الهيمنة الغربية الاستعمارية، وفيها حدث تغير نوعي في مجال الكلام، كما ظهر فيها نشاط الإرساليات الوافدة لنشر المذاهب المسيحية الغربية بين أبناء البلاد المستعمَرة "بفتح الميم" المسلمين، وأيضاً وعلى وجه الخصوص بين أبناء الكنائس القديمة، ومن بينهم المصريون أبناء الكنيسة القبطية العريقة، وقد شهدت هذه المرحلة جدالاً عقائدياً ضارياً تبدّى في كتب الهجوم على الإسلام التي كانت تصدر عن الإرساليات وفي دفاع الكتّاب المسلمين الذي تضمن بدوره هجوماً شديداً على العقائد المسيحية.

ولكن اندماج المسلمين والأقباط في الحركة الوطنية والدستورية، وبزوغ مشروع شامل يشترك في وضعه وتنفيذه مجموع أبناء الأمة – كان له أثره المباشر في مناخ الحوار وعلى صياغاته، ولم تعد هذه العلاقة من قبيل "الجدال البدائي"، بل إن مقومات الكيان المصري أفرزت علاقة حميمة من نوع خاص نطلق عليها "اللقاء" بين المسيحية والمسيحيين المصريين، والإسلام والمسلمين المصريين من ناحية أخرى،

وتبدّى ذلك في ثورة ١٩١٩[1].

وتحدث الأستاذ قلادة عن التجربة المصرية مع قائدها أحمد عرابي فقال: لما عقدت الجماعة اجتماعها يوم/٢٢/ يوليو/١٨٨٢ تلا عليها الشيخ محمد عبده أوامر الخديوي ومنشوراته، فاتفقت الآراء على رفض قبول عزل عرابي وأصدرت قراراً خطيراً ينص على وجوب توقيف أوامر الخديوي وما يصدر عن نظاره الموجودين معه في الإسكندرية، كائنة ما كانت هذه الأوامر، لأيّ جهة من الجهات، وعدم تنفيذها، حيث إن الخديوي خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون الحنيف.

هكذا أصدر ممثلو القوة المحكومة بجميع مكوناتها واحداً من أخطر القرارات السياسية الدستورية في القرن التاسع عشر، عزل الوالي ممثل الخليفة الحاكم الذي يساند عدو الأمة في مؤامراته، ومن الواضح أن هذا القرار الخطير هو تعبير عن السلطة التي تمارسها "القوة المحكومة" موحدة ودون تمييز فيما بينها، ويتبين مما سبق أنه مع مضي سنوات القرن التاسع عشر، تتأكد سلطة هذه القوة، فليس هذا أول قرار من نوعه، فلقد ذكرنا أنه في عام ١٨٠٥ أعلنت الجماهير المصرية عزل الوالي وتسمية الوالي الجديد الذي ارتضته، محمد علي وهكذا بعد أقل من ثمانين عاماً تعيد "القوة المحكومة" ممارسة سلطتها في هذا المجال وتمارسها عن طريق ممثلي جميع مكوناتها تأكيداً لإرادتها في الاستقلال وفي الحياة معاً، في مشاركة ومساواة.

---

[1] – مقال الأستاذ قلادة ص٢٧٣.

ويواصل السلطان العثماني ضد الحركة المصرية، فـاتفق مـع الانكليز على أن يعلن عصيان عرابي، ونشر ذلك في صحف الأستانة وبين ضباط الجيش المصري، وأحدث ذلك تأثيراً كبيراً في حالة الضباط المعنوية.

ولكن الشعب المصري العظيم بكل مكوناته كان له موقف آخـر، فعندما نشبت الحرب لم يكن لدى الجيش المصري درهم ولادينار، فقـد أخذ المراقب الإنكليزي الأموال الموجودة في الخزانة ونقلها إلـى سفن الأسطول الإنكليز، لذلك قام الأهالي بإعانة الجيش بما يلزمه، والمتفحص في أسماء الذين تبرعوا بالمال وبأصناف الغذاء يجـد بيـنهم المسـلمين والأقباط، وهَبَّ الأهالي جميعاً للدفاع عن وطنهم، يروي أحد المعاصرين لأحداث الثورة أن عرابي أرسل إلى جميع المديريات والمراكز برقيـات نشرت في جميع القرى والكفور جاء فيها أن عرابي كان ماراً ذات يـوم في خط النار بجهة كفر الدوار فاستوقف نظره شيخ هرم حنـت الأيـام ظهره وخط المشيب رأسه، فاستدعاه إليه، وقال له: يا أبت أنا أرى شيبك لايسمح بوجودك بين صفوف المقاتلين فلك أن تستريح كما تشـاء، قـال الرجل له: كيف تحرمني من أن أجود بدمي فدية عن بلادي من المغيرين عليها، وأنا – وإن كان أولادي ثلاثة هنا أيضاً في ميدان القتال، ولكنني لم أود إلا أن أشترك معهم، فقبّله عرابي في جبينه وسأله عن اسمه فقال: جرجس[١].

ويعرض الأستاذ قلادة لرأي الشيخ محمد عبده في الدين فيقـول:

---

[١] – الأستاذ قلادة: المرجع السابق ص٣٠٨.

ويواصل الأستاذ الإمام هذه الفكرة التوحيدية، فلديه أن "...الإسلام صرح تصريحاً لايحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد... نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان، هو إفراده بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته في ما أمر به (وفي ما) نهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول إلى فهمه منها، والعزائم إلى العمل به، وأن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف، وأن اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين، وبعد عن سنته، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية في الإنعام على البشرية، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها، وسار الكافة في مراشدهم إخواناً، بالحق مستمسكين، وعلى نصرته متعاونيين..."، ويقول إن الإسلام "برهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد ومشيئته في إصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة".

وقال الإمام محمد عبده في تفسيره "صراط الذين أنعمت عليهم" من سورة الفاتحة: "لم يكن المسلمون في أول نزول الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم، وما هداهم إلا من الوحي، ثم هم المأمورون أن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل، سبيل من أنعم الله عليهم من قبلهم – فأولئك غيرهم وإنما المراد بهذا ما جاء في قوله تعالى: "فبهداهم اقتده" وقوله تعالى "أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين" أي "من الأمم السالفة..." ويتساءل: "كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا، وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم، وأصلح لزماننا وما بعده؟"، ثم يقول

"القرآن يبين لنا الجواب، وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد، وإنما تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان..." (أوردها، محمود أبو رية، دين الله الواحد – محمد والمسيح أخوان، ص٨٠ و٨٣ و ٥١).

ويفصل الإمام فكرته عن وحدة دين الله فيقول: "إن الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الأهواء وتحديد مطامع الشهوات والدخول إلى كل أمر من بابه وظل كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح في الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل – ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها... ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها (الأستاذ الإمام محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق محمود أبو رية، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص١٥٦،١٥٥، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١)[1].

وهكذا نجد أن الفكر الديني المصري أفصح، من خلال الحركة المعيشة المشتركة، عن كيف يصبح الدين في الجماعة التعددية تديناً، أي ممارسة عملية واقعية تضم أوسع دائرة ممكنة من العلاقات الاجتماعية الخاصة فالعامة، وأظهرت الحياة المشتركة كيف يصيغ الدين – الإسلام والمسيحية، من الإنسان المؤمن شخصاً كريماً أميناً شهماً ذا نخوة ومروءة، ومن ثم الثقة المتبادلة في بعضهم البعض، واحترام الآخر في شخصه وعقائده.

---

[1] – الأستاذ قلادة: المرجع السابق ص٣١١.

ونحن نجد هذا الفكر اجتهاداً إسلامياً ينطلق من العقيدة ويتـواءم مع ظروف الجماعة – في المكان والزمان، بقدر ما أن هذا الاجتهاد هو في الوقت نفسه إعمال للمبادئ المسيحية، وبهذا كشـف هـذا الاجتهـاد النظري الفقهي والعملي عن مساحة مشتركة من القيم والمفاهيم ينطـوي عليها التراث المصري كله بجميع روافده ويعبر عن حركـة الجماعـة التعددية[1].

ويتابع الأستاذ قلادة الحديث عن تجربة الوفد المصري فيقـول: فبالنسبة إلى الوفد وكما يقول محمد حسنين هيكل "لم يبق توكيل الشـعب أمراً صورياً لمحاجة انكلترا، بل أصبح هذا التوكيل حقيقـة ملموسـة، وأصبح الشعب هو الأصيل، والوفد هو الوكيل في حدود معيّنة لايجـوز له أن يتراجع وراءها أوأن ينزل عن شيء منها، وفيما يتصل بـالإنكليز لم يعد يجديهم أن يكتسبوا تسليماً من جانب الدول الأوروبية بمركزهم في مصر واعترافاً فيها بالحماية، لأن البت في المسألة المصرية لم يعد فـي دول أوروبا وإنما أصبح في يد الشعب المصري، وبهذا أصبحت المسألة المصرية مسألة مصرية فعلاً لامسألة دولية.

هكذا كانت ثورة١٩١٩ حركة صدرت عن الشـعب المصـري مباشرة، الوفد نفسه لم يكن يتوقع عندما بدأت المظاهرات الأولى عقـب القبض على سعد زغلول وصحبه أن هذه المظاهرات سوق تتطور إلـى ثورة عارمة تكتسح البلاد من أقصاها إلى أدناها، حين علم سعد بأنبـاء الثورة قال: "إنها جاءت قارعة شديدة فوق مايقدر المقـدرون"، وكتـب

---

[1] – الأستاذ قلادة: المرجع السابق ص٣١١.

محمد فريد في مذكراته: "إن هذه الحركة لم تكن في الحسبان، وإن ما أظهره المصريون من التضامن والاتفاق ما كان أحد ليحلم به خصوصاً اشتراك السيدات في المظاهرات والاتفاق بين الأقباط والمسلمين".

ثم إن اشتراك جموع الفلاحين دلالة كبيرة لتفهّم مضمون الثورة – فهؤلاء المصريون المتدينون شاركوا بحماس رائع فيها، يقول عبد الرزاق السنهوري في رسالته عن الخلافة، إن ما يصنع عظمة سعد زغلول أنه استطاع أن ينفذ إلى نفوس الفلاحين.

فمنذ أيام مصطفى كامل كانت صفوف الحركة الوطنية تتكون بصفة عامة من المثقفين والطلبة أما الآن(يكتب عام ١٩٢٥) فإن أبسط فلاح يعرف ماذا يعني الوطن.

ولعل ما يعطي لهذا الاجتماع قيمته هو تتبع بعض المواقف في مسار الثورة:

إن الأقباط لم ينتظروا دعوة للانضمام إلى الحركة الوطنية، بل جاء ذلك بمبادرة منهم، وفي الحقيقة فإن هذا الاندماج في الحركة كان معروفاً أنه سيترتب عليه بالضرورة المواجهة مع سلطة الاحتلال، وقد حدث ذلك بالفعل.

وكانت النتيجة أن شمل النفي والمحاكمة والسجن جميع المناضلين أقباطاً ومسلمين، ويرد هنا ما كان يقوله واحد من خطباء الثورة وهو القمص مرقص سرجيوس، كان يردد: "إذا كان الإنجليز يتمسكون ببقائهم في مصر بحجة حماية القبط – فأقول: ليمت القبط وليحيى المسلمون

أحراراً.... إذا كان استقلال المصريين يحتاج إلى التضحية بمليون قبطي فلا بأس من هذه التضحية..."[1].

ويتابع الأستاذ قلادة قوله: "هذا القاسم المشترك هو الخلفية المرجعية العامة لأبناء الوطن، وعلى أرضه قامت وتقوم العلاقة بين الإسلام والمسيحية في مصر، ومن خلاله تجري الصلة بين أيّ من الدينين والحياة العامة المشتركة للجماعة، كما الصلة بين هذه الحياة والدين.

وبناء على ذلك يكون هدف الحوار – اللقاء هنا ليس استبعاد الآخر أوتجاهله أواستيعابه أومواجهته، ولكن بالأحرى إبراز الركائز النظرية والعملية المستمدة من الدين، أي من الدينين معاً لدعم هذا القاسم المشترك وتأكيد الرضا به.

وهكذا يصبح التعدد الديني سبيلاً إلى الوحدة ولاسبباً للفرقة، ولقد رأينا أن الفكر الديني عبّر عن وحدة حركة الجماعة المصري قبل الاحتلال في ما كتبه السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام محمد عبده، عن أن دين الله في جميع الأزمان، وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد.

وكما سلف البيان، فقد كمن هذا التراث في الكيان المصري في فترة الاختمار السياسي والثقافي فيما بين الاحتلال وثورة ١٩١٩، وبعثه "إجماع" الشعب المصري في تعبير عنه أكثر اكتمالاً، وصاغه مثقفوه وجماهيره وفنانوه في تنويعات ثرية – شعارات شعبية، ورموز فنية

---

[1] – مقالة الأستاذ قلادة ص٣٢٥.

رفعتها ورددتها الجموع في صدق وحماس وضحوا بحياتهم في ظلهـا، وهكذا أفصح هذا الإجماع الشعبي من جماعة ينتمي أبناؤها إلى أكثـر من دين في حركة لها أهداف ومواقف موحدة، أفصح ذلـك كلـه عـن المدلول الحقيقي الواقعي للفكر الديني الفلسفي المصري.

لقد كشفت الحركة الوطنية والدستورية عن أن المقصـود لـيس الوحدة العقائدية بين الأديان ولكن وحدة السـلوك الـذي يطبـق القـيم، والتعاليم التي تدعو إليها الأديان جميعاً، والتي تلتقي بـذلك عنـد قاسـم مشترك تتفق حوله"[1].

ويستأنف الأستاذ قلادة قوله:

"ولعل التطبيق المباشر لفكرة الإمام جاء في عنوان مقالات سنوت حنا: "الوطنية ديننا"، هنا الدين مقصود به المضمون العملـي الحركـي، يقول المستشار طارق البشري إنه "يلحظ من شواهد هذه الفترة أن غالب المصريين قد وجد نفسه في عبارة: "الشعب المصري أثناء ثورته: الدين لله والوطن للجميع، فليس مؤدّى هذا المبدأ الذي جرت صياغته في إطار المساحة المشتركة بين الدينين أن تبعد الحياة الوطنية عن المبادئ والقيم السامية التي تدعو إليها الأديان، بل إن معناه الحقيقي أن يكون الوطن لله من خلال ممارسة أبناء الوطن، حيث يكون حب الوطن، من الإيمان كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخ رفاعة الطهطاوي".

"هذا الفكر الديني الفلسفي وتطبيقاته العملية وجد تعبيراً عنه فـي العمل الغني وفي الممارسات الشـعبية، فلقـد عبّـر الفنـان والصـانع

---

[1] - مقاله السابق الذكر ص٣٣٠.

المصريان عن القاسم المشترك بين المسيحية والإسلام برمز كان الشعب المصري قد رفعه أيام حروف الفرنجة "...." كما ذكرنا، ثم بعثته الذاكرة الوطنية بعد قرون طويلة أثناء هذه الثورة في لحظة إبداع جمعي عبقرية، فكان تعبيراً عن الوحدة الوثيقة، وعن أصالة كل من مكونات الجماعة وهي تمضي في حركتها".

"وتحفظ دور الآثار المصرية قطعاً أثرية يحيط فيها الهلال بالصليب، وذلك في تكوين للمسارح التي تضاء بالزيت ويرجع تاريخ هذه الآثار إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أي أن صانعيها أبدعوها أثناء اشتعال معارك الحروب مع الفرنجة الآتين عبر البحار، والتي يصفها مؤرخو الغرب بأنها الحروب الصليبية، ويسجل تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية أن هؤلاء الغزاة كان يبغضون القبط، وأنهم منعوا هؤلاء من الحج إلى القدس الشريف، وهكذا أبدع هؤلاء الفنانون أعمالاً تعبّر عن خصوصية مصرية – هي الالتحام الوثيق بين مكونات الجماعة خصوصاً في لحظات التاريخ الحرجة".

"فقد فوجئ العالم كله بعلم ترفعه الجماهير الثائرة، أطلق عليه المعارضون "العلم الجديد" و"علم الثورة": وكتب توفيق الحكيم في "عودة الروح": في وسط المظاهرات والهتافات... كانت ترفرف الأعلام المصرية وقد رسم فيها الهلال يحتضن الصليب... ذلك أن مصر أدركت في لحظة أن الهلال والصليب ذراعان في جسد واحد له قلب واحد: مصر، ويروي مصطفى أمين: "صنعت صفية زغلول هذا العلم بيدها في بيتها، واشترك في صنعه معها عدد من السيدات بينهن زوجتا سينون حنا ومرقص حنا، وكان العلم مصنوعاً من الحرير، وأصبح العلم الوحيد الذي ترفعه كل المظاهرات في الثورة"، ويذكر الشيخ أحمد أمين:

"انغمست في السياسة واشتركت في المظاهرات التي ترمي إلى التقريب بين الأقباط والمسلمين، فكنت أتلمس المظاهرة فأركب عربة وأنا بعمامتي أصطحب فيها قسيساً بملابسه الكهنوتية، ونحمل علماً فيه الصليب والهلال".

ويروي محمد مظهر سعيد: "حضر زهدي لأسوان يوم ١١ آذار/مارس، وأخبرنا أن مظاهرات ضخمة اجتاحت القاهرة يوم ٩ آذار/مارس، احتجاجاً على اعتقال سعد ونفيه، وأن الإضراب العام قد أعلن... وأن الوفد يأمر بإعداد العدة من الآن لمظاهرة شعبية كبرى وإسقاط الحكومة المحلية إذا لزم الأمر إقامة حكومة وطنية شعارها: الهلال والصليب..."، ويصف ما حدث في أسوان: "....وبدأت المسيرة في مقدمتها مدرسة الصنائع وفي المؤخرة أعضاء المجلس الوطني، ثم وقفنا أمام سراي المديرية فصعد حبيب ومعه بعض المساعدين ورفعوا عليها علم الثورة بين المدوية والزغاريد".

"وثمة ممارسة دينية وطنية مشتركة أبدعها الوجدان المصري الموّحد حين بدأت عام ١٩٢٢ المفاوضات حول القضية الوطنية، وأراد سعد زغلول أن يرجع إلى الأمة لاستشارتها في أمر السفر إلى لندن لهذا الغرض، فاقترح عبد العزيز فهمي أن يكتب الشاعر أحمد شوقي دعاء يصلي به الشعب في المساجد والكنائس ليكلل الله جهود الوفد بالنجاح في مفاوضاته، فأبدع الفنان أنشودة وطنية روحية صلّى بها المتدينون المسلمون والمسيحيون معاً وقالوا بصوت واحد:

اللهم قاهر القياصر، ومذل الجبابر، وناصر من لا له ناصر..

هذه كنائنك فزع إليك بنوها، وهرع إليك ساكنوها..

هلالاً وصليباً، بعيداً وقريباً، شباباً وشيباً...

مستبقين كنائسك التي دفعتها لقدس أعتاباً...

ميمّمين مساجدك التي شرعتها لكرمك أبواباً..

نسألك، بهذه الصلاة العامة من أقباط الوادي ومسلميه..

آتنا اللهم حقوقنا كاملة..

اللهم تاجنا منك نطلبه، وعرشنا إليك نخطبه، واستقلالنا التام بك نستوجبه فقلدنا زماننا، وولنا أحكامنا، واجعل الحق إمامنا...

وفي اليوم التالي لتلاوة الدعاء الموّحد في المساجد والكنائس، وصفت الصحف إقبال الشعب المصري من الأقباط والمسلمين بكثرة غير عادية على دور العبادة للمشاركة في هذه الصلاة"[1].

هذا وأثناء انعقاد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي دُعيَ للانعقاد منذ خريف سنة ١٩٦٢، أرسل البابا بولس السادس في ١٤أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣ كتاباً إلى المجمع يعلن عزمه على إنشاء سكرتارية للأديان غير المسيحية في الفاتيكان، ثم صدر عن المجمع تصريح عن علاقة الكنيسة مع هذه الديانات غير المسيحية: "في عصرنا الذي يتزايد فيه يوماً بعد يوم اتحاد الجنس البشري، وتتوثق باطراد علاقات الشعوب تمعن الكنيسة النظر فيما ينبغي أن تكون عليه علاقاتها بالأديان غير المسيحية، وفي رسالتها الرامية إلى تعزيز أواصر الوحدة والمحبة بين البشر والشعوب، فإنها تتفهم بادئ ذي بدء، في رؤية وتعمق الروابط المشتركة بين الناس الذي تدفعهم إلى أن يحيوا معاً مصيرهم المشترك،

---

[1] - الأستاذ قلادة: المرجع السابق ص٣٣٣.

فالشعوب كلها جماعة واحدة، أصلها واحد، أسكنها الله وجه الأرض كلها، فتتجه نحو غاية واحدة قصوى هي الله الذي يشمل الكل بعنايته وبآيات لطفه...".

ثم جاءت الفقرة الخاصة بالدين الإسلامي، وفيها يقول المجمع الفاتيكاني: "تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الأحد الحي القيوم الرحمن القدير فاطر السموات والأرض الذي كلم الناس، إنهم يجتهدون في التسليم بكل نفوسهم لأحكام الله وإن خفيت مقاصده، كما سلم الله إبراهيم الذي يفتخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وبرغم أنهم لايعترفون بيسوع إلهاً فإنهم يكرمونه نبياً ويكرمون أمه العذراء مريم ويذكرونها في خشوع، ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس عندما يبعثون أحياء من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم"، إنه الركيزة المأمونة التي يجري الاستناد إليها لصياغة مفهوم نظري لهذا اللقاء، وممارسته والتقدم به إلى آفاق أوسع وأكثر فاعلية.

ومن أجل "تذكر" هذا الماضي، والبناء عليه، خصصنا الصفحات السابقة عن مسار اللقاء بين الإسلام والمسيحية على أرض مصر[1].

يستأنف الأستاذ قلادة حديثه قائلاً:

مع زيادة الالتحام بين مكونات الجماعة ومع تواصل حركتها الموحدة التي بدأت تستوعب الجوانب الاجتماعية منذ الأربعينات، واصل المفكرون المصريون تقديم التعبيرات الدينية الإنسانية عن هذه الوحدة

---

[1] - مقال الأستاذ قلادة: السالف الذكر ص٣٤٦.

الوثيقة للجماعة المصرية، وهم في هذا يتابعون منهج الأستاذ الإمام محمد عبده الذي عرضناه فيما سبق، ولكن في إبداع متميز، يعبّر بصدق عن الروح المصرية التي تنطوي على الاحترام العميق لعقائد جميع مكونات الجماعة.

في هذه المرحلة من "اللقاء" بين المسيحية والإسلام على أرض الواقع المصري نجد المفكرين يتابعون أيضاً منهج حجة الإسلام الغزالي الذي طبقه في "الرد الجميل"، أي دون توقف عند مسألة التحريض أوما أشبه – كما سلف البيان – ولكن الوصول إلى هدف مختلف: يقرأ المسلمون الإنجيل وباقي الكتب المسيحيين المقدسة، ويقرأ الأقباط القرآن والسنة – وهدف الجميع إبراز نقط الالتقاء، وهذا هو وجه الاختلاف بين عملهم وعمل الغزالي.

وقد كانت حصيلة مرحلة اللقاء الثالثة هذه مكتبة مصرية عظيمة القدر باقية الأثر، ترد فيها – على سبيل المثال لاالحصر – أسماء عباس العقاد، وخالد محمد خالد، وفتحي عثمان، ولِيم سليمان قلادة.

يكتب الأستاذ العقاد في "عبقرية المسيح" عن الأناجيل إنه "ليس من الصواب أن يقال إن الأناجيل جميعاً عمدة لايعول عليها في تاريخ السيد المسيح... وإنما الصواب أنها العمدة الوحيدة في كتاب ذلك التاريخ، إذ هي تضمنت أقوالاً في مناسباتها لايسهل القول باختلافها، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذلك".

ثم يتكلم عن كل إنجيل على حدة، ليقول: "وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أوأكثر من مصدر، فمن الواجب أن يدخل في

الحسبان أنها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد.

وفي الصفحات الأخيرة من كتابه، الذي يقدم فيه "الغاية بعد كل ختام"، يبرز الأستاذ أهمية القاسم المشترك بين الأديان: "إنما الإنسان غير الحيوان البهيم، لأنه صاحب ضمير، وإنما يقاس ضمير الإنسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها... إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس عن القيم والحوافز، وبما تزيد من نصيب الإنسان في حرية الضمير أوفي حرية التمييز بين الحسن والقبيح، وقد عملت الأديان كثيراً ولاتزال قادرة على العمل الكثير، ولكنها لن تغني الإنسان يوماً عن جهاد الضمير".

ويأتي كتاب الأستاذ خالد محمد خالد: معاً على الطريق – محمد والمسيح، فيقدم مساهمة مبدعة في التعبير عن اللقاء الحميم بين المسيحية والإسلام في مصر، يقول عن كتابه، "ليس في الكتاب تاريخ للرسول ولاللمسيح بل بحث عن الإنسان وعن الحياة في تعاليمهما الرشيدة ومواقفها المجيدة مع الإنسان ومع الحياة، فالبشرية الآن في أمسّ الحاجة إلى الإصغاء لكلمات الرسول والمسيح، ففيه هذا – لاقبله ولابعده – ينقذ الإنسان يومه التعس وتجد الحياة مستقبلها المرتجى".

وهو يجعل الممارسة هي البرهان على الإيمان الصادق: "أن أقول للذين يؤمنون بالمسيح، وللذين يؤمنون بمحمد: برهان إيمانكم إن كنتم صادقين، أن تهبّوا جميعاً لحماية الإنسان وحماية الحياة.

المسيح ومثله الرسول ثم يجيئا ليوقدا شموعهما في أرشليم وفي مكة وحدهما، بل جاءوا ليوقدا شموعهما للعالم كله، ولقد كانا على وجدان بهذه الحقيقة، قال المسيح: جئت لأخلص العالم، وقال الرسول: إن

الله أرسلني للناس كافة، وأرسلني رحمة للعالمين، ولقد حدث هذا فعلاً، ولم تبق دعوتهما داخل القرى الصغيرة، بل تفتحت لها أبواب القارات الكبيرة، ولاتزال الديانتان: المسيحية والإسلام تغمران الأرض، وهذا شيء طبيعي فللأفكار قوة على النفاذ والزحف أكثر مما للجيوش نفسها، ولاسيما تلك الأفكار الصادقة الكبيرة التي تحمل من أماني البشر، وتحقق من احتياجاتهم، وما هم إليه متشوقون".

ويقدم أحداث ميلاد يوحنا المعمدان ويورد أقواله كما رواها كاتبو الأناجيل ثم يتحدث عن مجيء المسيح رابطاً في كلامه بين مجيئه ومجيء الرسول: "نفس الصوت الذي سيسمعه محمد بعد ستمائة عام يرنّ في روعه رنين الصدق هاتفاً: "يا أيها المدثر، فأنذر"، نفس الصوت يرن الآن في روح المسيح: "أنت ابن الحبيب الذي به سررت...".

وفي الفصل الرابع بعنوان: "معاً من أجل الإنسان" يقول خالد محمد خالد: "إنهما لم يجيئا بدعوة مجرّدة، بل بدعوة ذات موضوع حافل عظيم... فماذا كان الموضوع؟... لقد كان الإنسان، وكانت الحياة، وأول ما يبهرنا في عنايتهما بالإنسان ذلك الترديد الممعن لاسمه والحفاوة الصادقة به، فالمسيح ينعت نفسه بأنه "ابن الإنسان" ويكررها كثيراً: "أن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص".... ويورد نصوصاً كثيرة من الأناجيل يرد فيها هذا اللقب، ثم يواصل، ثم ينتقل إلى القرآن الكريم ليقول أيضاً: إنه "يتحدث عن الإنسان، فيعطيه صفته الحقة كمحور لنشاط النبي وموضوع لرسالته: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"... ويورد هنا أيضاً نصوصاً قرآنية كثيرة "ثم إن محمداً والمسيح لم يهتما بشيء مثل اهتمامهما بأن يحررا البسطاء من غفلتهم وسذاجتهم ويحررا الذكاء الإنساني مما يوبقه من رواسب الرؤى المغلوطة والأساطير الموروثة".

ويقدم موقف الإثنين من "الرجل العادي.... الإنسان الذي لاحول له من مال أوجاه أومنصب، المستضعف... الكادح... إن موقفهما مع الرجل العادي يبهر الألباب... يجذبان الإنسان العادي... ليأخذ مكان الصف الأول..."، ويورد أمثلة ونصوصاً كثيرة من الأناجيل والقرآن والسنة توضح هذا الموقف ويوضح في الفصل الخامس موقفهما المشترك "معاً – من أجل الحياة" ليتساءل في الفصل السادس: "والآن... باراباس أم المسيح...؟."ليجيب: "إن التفاؤل الصادق الذي ملأ به محمد رسول الله أفئدتنا ليجعلنا نجيب في يقين راسخ: لا لن يحدث ذلك مرة أخرى.

لقد أقسم رسول الله محمد أن المسيح قادم ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ونحن نؤمن بصدقه، ونؤمن بأن عودة المسيح هذه تعني انتصار القيم التي كان المسيح يمثلها والتي قهر بها الرسول عالم الوثنية والظلام....

تعني انتصار الإنسان وانتصار الحياة... تعني سيادة الحب وسيادة السلام"، وفي "قرية ظالمة" يقدم الدكتور محمد كامل حسين قصة أحداث يوم الجمعة، الذي تم فيه طبقاً للأناجيل صلب المسيح، يروي الأحداث من وجهات نظر المشركين فيها: اليهود، والحواريين، والرومان، ويجري الأحاديث على لسان ممثلي هذه الأطراف لتكون تفصيلاً وشرحاً للأحداث نفسها.

فبالنسبة لبني إسرائيل يرى الحوار بين ممثل الاتهام في محاكمة المسيح وبين زوجته فيضع على لسان الرجل نصاً من رسالة يوحنا: "إنه "يسوع" كفر بالله وأنكر الصفات التي له في التوراة، وإنما يقول إن الله هو الحب، ويريد أن لايخاف الناس الله، وإنما يريد لهم أن يحبوه لأنه يحبهم، وفي ذلك خروج على تعاليم التوراة لابد أن يؤدي إلى الفوضى"،

فتجيبه الزوجة مستنكرة: "أتقتلون رجلاً يقول إن الله هو الحب؟ تلك كلمة لايقولها مجرم، الله هو الحب".

ولديه إنه وقد حكم على المسيح بالصلب، فتكون الجريمة قد تمت في ما يتعلق بالإنسان حين حكم على المسيح بالموت.

وفي شباط/ فبراير ١٩٧٩ قدم محمد عمارة كتابه عن الإسلام والوحدة الوطنية، ولديه أن سنن الله في الكون وقوانينه لن تتبدل: أن يظل الخلاف والاختلاف والتمايز قائماً بين البشر في الدين... ولكن حركة الاستنارة واليقظة العربية مع ما صاحبها وزاملها من زيادة الصلات مع الحضارة الأوروبية واستقبال تأثيراتها، ذلك كله أدى إلى يقظة الأمة في فكر طلائعها وصناع يقظتها لأهمية الوحدة الوطنية، ولدور العلاقات بين أبناء الأمة الواحدة على أساس من حقوق "المواطنة" التي ترفض التمييز بين أبناء الأمة بسبب المعتقد والدين، ويقدم فكر الطهطاوي الذي يطوي صفحة التاريخ الذي كان يقسم الناس إلى "مؤمنين" و"كفار" ليبسط مكانها صفحة الحضارة الحديثة التي يتم بين الأمم والشعوب على أساس "التحضير" و"الخشونة" و"البداوة"، ويضع شعوباً مسلمة في المرتبة الأخيرة، بينما نجد أمماً وشعوباً غير مسلمة يضعها الطهطاوي في مرتبة أهل الأدب والتحضر والتمدن، لأنهم "أرباب عمران وسياسات وعلوم وصناعات... ولهم معارف كاملة في الآت الصنائع".. ويورد برنامج الحزب الوطني الأول الذي صاغه الأستاذ الإمام محمد عبده والذي يجعل هذا الحزب سياسياً وليس دينياً.

ويقول: إنه "ليس من منطلق "تجاوز الدين واستبعاده" ندعو إلى الوحدة الوطنية والقومية بل من فكر الدين الحق، ومنطلقه نكتشف أن الدين مع الوحدة".

ثم يفصل فكرة الإمام محمد عبده التي تنادي بأن دين الله واحد ويورد في هذا نصوص كلام الإمام الذي يجعل قصد الله واحداً ومشيئته واحدة، ويواصل مناقشة المشكلات والشبهات بشأن الجزية والزي الخاص ووقف بناء الكنائس والبيع الجديدة...الخ، ويتحدث عن الحضارة الواحدة.

ويأتي في هذا السياق كتاب محمود أبو ريه دين الله واحد، محمد والمسيح إخوان، وفي ختامه يورد الكتاب آيات من العهد القديم التي أوردها السيد المسيح ورسله في العهد الجديد، ونصوصاً من موعظة السيد المسيح التي ألقاها على الجبل، ونصوصاً من القرآن الكريم.

وفي ختام الكتاب يورد فكرة السيد جمال الدين الأفغاني عن دين المستقبل، وهو الذي يراه متضمناً في آية القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة٦٢.

وقال السيد: "انقشوا هذه الآية على هرم الجيزة إلى أن يجيء المستقبل يفسرها".

في كانون أول/ديسمبر ١٩٦١ نشر فتحي عثمان كتابه الكبير والهام مع المسيح والأناجيل الأربعة، وصدرت طبعته الثانية في ديسمبر ١٩٦٦ (٤٦٦صفحة)، يقول في مقدمة هذه الطبعة الأخيرة أنه حين دفع بأصول الكتاب في طبعته الأولى إلى الناشر صارحه بأنه لايتوقع لهذا الكتاب كبير رواج، "فالقرّاء المسيحيون قد لايحبون أن يقرأوا عن المسيح

كتاباً كبيراً لكاتب مهما كان معجباً بالمسيح فهو يخالفهم في عقيدتهم فيه، والقرّاء المسلمون قد لايعنون بقراءة كتاب كبير يعتمد على الأناجيل المتداولة الحديثة عن المسيح"، ولكنه يواصل القول بأن رد القراء عليه كان بليغاً: "كان دفاعاً عن القارئ العربي الذي كان كثيراً ما يبخس قيمته أيّما بخس... ولقي الكتاب رواجاً "مادياً" عجيباً، ثم لقي تقديراً "أدبياً" يعتز به كاتبه أيّما اعتزاز"، وشرح قصده من الكتاب، أنه لايريد إلا أن يتعرف "في أمانة وسلامة على "المسيح" و"المسيحية" في الأناجيل المعتمدة عند المسيحيين اليوم"، وأن يقدم محاولته للناس في هذه الحدود.

ويشرح في مقدمة الطبعة الأولى محاولته فيقول: إنه وجد "الإسلام" معروضاً على المسلمين والمسيحيين في كتابات عربية عصرية مبسّطة، ولم أجد للمسيحية مثل هذا العرض في أدبنا الحديث والمعاصر إلا قليلاً...".

ويذكر أن كثيراً من المؤلفات تجعل مدار بحثها المجادلات العقائدية وحدها، ثم يتساءل: "أفليس في تعاليم المسيح الشيء الكثير الذي تتفق عليه جميع الأديان والذي يستفيد منه الفكر الديني على وجه العموم؟"، ويضيف: "لاأريد أن أفتح باب الجدل العقائدي الذي قلت أنه حجب عن الأعين نور المسيحية، وإنما أريد أن أقنع المسلمين بأن العهد الجديد المتداول لايتعرض فقط لما ينكرون، وحتى ما ينكرون، فيه مجال كبير للبحث والنظر، ليرفضوا عن بينة كما اقتنعوا عن بينة، ولايعيش الواحد فيهم ويموت غير عالم شيئاً من هذه الديانة الكبرى".

ثم يقول: "هذا هو حق المسيحية على الإسلام كما يوجبه الإسلام، وللمسيحية حق على مصر تمليه ظروف المكان"، ويورد زيارة المسيح وأمه ويوسف إلى مصر.

"لهذا كله أحببت أن أكتب عن المسيحية..."، وذكر المؤلف أن "أقصر الطرق لدراسة المسيحية هو دراسة الأناجيل المتداولة، وإن لم يكن هذا هو الطريق الوحيد، وأورد نص ما قاله العقاد في كتابه عن الأناجيل.

وفي ختام المقدمة أوجز الكاتب هدفه ومنهجه:

"الكتاب الذي بين يدي القارئ سيستند إلى الأناجيل المتداولة في الحديث عن المسيحية، فأنا أريد أن أتحدث عن المسيحية من وجهة نظر أهلها، وأريد أثبت للمسلمين والمسيحيين أن مجال الخلاف أضيق من أن يحجب كلاً من الدينين العظيمين عن معتنقي الدين الآخر، وإن بجانب المجادلات العقائدية الذائعة المحدودة، آفاقاً رحبة في الأناجيل المتداولة تفيض بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، موضحاً أهمية المساحة المشتركة بين الأديان: "كثيراً ما تجذبني نصوص الأناجيل المتداولة إلى مواقف مشابهة في الإسلام، وهذا التوارد والتقارب والتمازج أكبر شاهد على وحدة الدين على ألسنة جميع المرسلين والكتب".

وفي الصفحات الأخيرة من الكتاب يتحدث المؤلف عن حياة المصريين بعد الفتح العربي فيقول: "عاش المسلمون والمسيحيون معاً، امتزجوا وتفاعلوا وصهرتهم الأحداث، امتزاجاً لايهمل قدر الدين، فهؤلاء وهؤلاء متدينون، ولايقوم (تدينهم) على النفاق والمداهنة، فهذا ما لايرتضيه الإسلام ولاترتضيه المسيحية، وإنما يأتي التجاوب من أعماق

النفس، ويأتي التفاهم من الأصول الفكرية التي قررها المسيح ومحمد اللذان أبلغا رسالة إلى الناس كي يسعدوا دنياهم بهدى دينهم، ولاليشقوا أنفسهم بالفرقة والشقاق"[1].

هكذا تتضوع مسكاً الغبراء بالوطنية المصرية وينتشر عبقها وأريجها ويقدم الشعب المصري على هذه الطريق خطوة بعد خطوة ويدافع عن العقيدتين الإسلامية والمسيحية اللتين تصوغان السلوك وتحددان المنهج وخطى السير.

---

[1] – مقال الأستاذ قلادة في العلاقات الإسلامية – المسيحية ص ٣٥١.

نتائج وآفاق

لقد أبرز الأنتربولوجي الفرنسي المرموق لويس دومون تمييزاً عميقاً بين حضارات "المسيحية – الغربية والهندوسية"، ميالة لإعطاء موقع أساسي للفرد وحضارات "كالعربية الإسلامية"، تضع تماسك الجماعة في الصدارة[1].

والسبب والعلة وراء هذا الحكم واحدة وجلية، فالإسلام – وروحه المتسامحة – حريص على احترام الجماعات الطائفية والمذهبية والإثنية وغيرها، وصون حقوقها وضمان قيمها، وهذا ما يستتبع الحفاظ عليها واحترامها، ونسج روابط المحبة والوفاء لها ومعها.

هذا المبدأ الكبير يكمن وراء الرابطة الإسلامية – المسيحية ونموها واطرادها، منذ لقاء وفد نجران مع الرسول الكريم، ثم استمرارها بالنمو والمعاناة يعززها في ذلك سماحة الإسلام، وطلائع المسيحية (القسيسون والرهبان) الذين لايستكبرون والذين – مودة ورحمة – تفيض

---

[1] – Lauis Dumont: Essia sur L'indivi devi diluasme, une perspective ontrapiologique. Sur L'ideologie modirne (paris seil,1983).

أعينهم بالدمع عندما يلقى في آذانهم ذكر الله.

وكان أمراً طبيعياً أن يلعب العلماء المسيحيون والمفكـرون دوراً كبيراً وهاماً في إشادة حضارتهم: الحضارة العربية الإسلامية وأن يتكرر البعد في راهنيتنا المعاصرة، حيث يلعب المسيحيون العرب دور السفراء لأمتهم عند الغربيين وحيث تلعب قوة الاغتراب (المهاجرون في الغرب)، دوراً فعالاً لصالح أمتهم ولاسيما ما تعلق بقضية فلسطين، هذا فضلاً عن أن تثير اهتمامنا مسألة هجرة المسيحيين غير الطبيعيـة وأن تجـد لهـا الدواء والحلول الناجعة[1]، والأمر الطبيعي الثاني هو نمو عقد الذمة نمواً انتهى به الأمر إلى الرفع والزوال:

(إلغاء نظام الملل العثماني)[2]، مفسحاً المجال لنظام الموطنة الحية كما هو معهود في راهنيتنا المعاصرة، مع التنويـه والإشـارة إلـى أن الفقهاء بحثوا في عقد الذمة وحكمة مشروعيته، وقرروا أن المقصود في ترك القتال وليس المال.

والسؤال النافل المطروح هو: لماذا لايكون هنالـك تسـاو فـي مجتمع يقوم على المساواة.

إنني لست مسيحياً كي لايقال أن دافعي كان طائفياً مذهبياً ولكننـي أتساءل – ولطالما أن هنالك تشابهاً في الأخلاق والسـلوك عنـد الـديانتين الإسلامية والمسيحية – لماذا تبقى الأخلاق المسيحية مقوقعة في الأديرة، لما لا تبث في الأوساط الإسلامية باعتبارها بضاعتنا وثقافتنا وخلجات روحنا،

---

[1] – منير درويش: هجرة العرب المسيحيين من الوطن العربي ص٣٩ وما بعدها.

[2] – د. الدجاني: مسلمون ومسيحيون ص٢٤.

أليس دين الله واحد، والإسلام يقر شرح ما قلنا وتعتبره حكماً ملزماً لنا.

نحن لانحكم على أحكام العقدية الخلافية نسبياً ولكننا نشير إلى أحكام الأخلاق التي لاتثير أي خلاف، والتي هي مدعاة للسلوك ولكل لحمة وطنية سديدة ومتينة.

إذا افترضنا أن الوطنية تستدعي التفاعل والامتزاج، فلماذا لايأخذ هذا التفاعل دوره على مستوى الثقافة لاسيما ثقافة الأخلاق، كم هو رائع أن تفتح الندوات العامة والوطنية بقراءة من القرآن الكريم وقراءة من نصوص الإنجيل[1]، تورث النقاء والشفافية وتخلق الجو الروحي والصافي احتراماً وتقديراً لإيمان الشريك وعقيدته واستشعاراً باحترام هذا الشريك وسموه وتقديره.

أليست الدعوة التي دعانا إليها الإسلام في أن نستظل تحت كلمة السواء: هي بذاتها تشمل الدعوة إلى الثقافة المشتركة، تلك الثقافة التي انحدرت إلى الإسلام والتي تمثل المثاليات الإنسانية الآيلة إلينا من الحضارة اليونانية، بل التي تمثل الناموس الأعظم المنحدر من أعماق حياة الإنسان.

هذا ما أكده الفيلسوف العربي الفارابي، إذ قال:

١- إن الدين الإسلامي هو الدين المسيحي، وقد نقل إلى الأمة العربية معدلاً مصححاً.

٢- الدين المسيحي هو النواميس النظرية والعملية التي استنبطت

---

[1] - د. الدجاني: مسلمون ومسيحيون ص٩.

من الفلسفة اليونانية النظرية والعملية ليؤدب بها الجمهور.

٣- الفلسفة المنقولة إلى الأمة العربية هي الفلسفة اليونانية التي كانت أصلاً للدين المسيحي، وبالتالي فهي أصل الدين الإسلامي[1]

فلنضيء مشاعل النور ونفجر طاقات المحبة، وليكن رائدنا وتذكرنا، في إطار الوطنية الحقوقية المتوثبة وليس منة وعطفاً – قصة سيدنا عمر والذمي العجوز السائل، إذ وضع عنه الجزية وعن ضربائه، وصرف له من بيت المال معتبراً إياه من المساكين، وإلى قصة أهل حمص مع الفاتحين العرب المسلمين التي رواها البلاذري والذين كانوا من النصارى في غالبيتهم، وإلى قصة البطريك بنيامين مع عمرو بن العاص في مصر، وإلى موقف عمر بن عبد العزيز من جباية الجزية والخراج، "قوله إن الله بعث محمداً هادياً لاجابياً"، وإلى مشاركة نصارى الشام الفعالة في أعماق الدولة الأموية، ومن بينهم الدمشقي الشهير، وإلى مقاله الجاحظ عن نصارى العباسيين: "وكان منهم كتاب السلاطين وفراشو الملوك وأطباء الأشراف، وقد نافسوا المسلمين في لباسهم ومركوبهم وألقابهم، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي، واكتنوا بذلك أجمع، وكان المسلمون أعطف على النصارى من اليهود"[2].

إن مهر الحسناء غال، ومن طلب الحسناء لم يغله المهر، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وتكبر المقامات والهمم.

---

[1] – د. محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، بيروت – مركز دارسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ص١٢٠.

[2] – محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ص٤٠.

الفهرس

مكانة المسيحيين في قلوب المسلمين

مكانة المسلمين في قلوب المسيحيين

الحوار المسيحي الإسلامي

الإرشاد الرسولي

المواطنة و الوطنية على أرض الكنانة

الكنيسة القبطية

المسيحيون في فكر بطاركة المشرق الكاثوليكي

التضامن بين المسيحيين و المسلمين





دار حوران للطباعة و النشر و التوزيع

سورية - دمشق تلفاكس: 6713079